لطائف البيان

في تفسير القرآن

تفسير جزئي يوسف والحجر

(١٣-١٤)



تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

لطائف البيان في تفسير القرآن
تفسير جزئي يوسف والحجر (١٣-١٤)
تأليف أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة
أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي يوسف والحجر

(١٣-١٤)

العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي يوسف والحِجر (13-14).

المؤلف: أ.د.حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (308 صفحة).

الطَّبعة: الأولى، 1447هـ - 2026م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (126) 2024م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P

782 16 12 14

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي يوسف والحجر

(١٣-١٤)

تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبّر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، وقد يسّر الله لنا إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عددٍ من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار – جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يوميٍ بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالبًا، مع أخذ الدروس والعِبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصيًا من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق بعض

النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، **وسميته: "لطائفُ البيان في تفسير القرآن"**.

وقد تم ولله الحمد إنجاز الكتاب التاسع من هذه السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (يوسف والحِجْر (13-14)).

ويسرّني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القرّاء الكرام إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرّض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، أو الإيميل: (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعاً، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء – اليمن

30شوال 1447هـ

تفسير جزء يوسف

(13)

تفسير سورة يوسف

تفسير المقطع الأول من سورة يوسف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن
قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ
وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ
وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ
ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا
تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟
يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ
وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ
عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة يوسف؛ سورةٌ مكية[1]، **وسبب نزولها** ما رواه مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، **فأنزل الله:** ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، **إلى قوله:** ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[2].

ومن مقاصد السورة: بيان لطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأوليائه الصالحين، فمن خلال قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مراحلها وابتلاءاتها المتعددة أظهر لنا لطفه بعباده وأوليائه، ففي كل مِحنة منحة قد لا نراها، ولكنها تظهر لنا بالتأمل في المِحن والابتلاء وما فيها.

ابتدأت بقوله سبحانه: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ①﴾، وهي من السور التي تبدأ بالأحرف الهجائية المقطّعة، والحكمة من ذلك بيان إعجاز القرآن، فأغلب السور التي بدأت بها يُذكر بعدها القرآن الكريم، للإشارة إلى أن هذه هي أحرف لغتكم، والقرآن نزل بها، وعجزتم عن الإتيان بمثله، واسمُ الإشارة يعود إلى الآيات القرآنية، التي في هذه السورة، أو ما سبق نزولها من الآيات، والكتاب المقصود به القرآن الكريم، والمبين وصف له، **أي:** الذي بُيّن فيه الحلال والحرام، والهدى والرشد، فهو واضح في أحكامه، وما اشتمل عليه من بيان وإعجاز ونحوها.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 365).

(2) صحيح ابن حبان: (14/ 92)، برقم: (6209).

وقولـه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾، فقـد أنزلـه الله كتابـًا يُقرأ بلغة العرب، رجاء حصول العلم والفهـم لهـم مـن لفظـه ومعنـاه، كونـه نـزل بلغتهم فيستوعبونه ويُؤمنون به.

وقولـــه: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾، الـضمير يعـود إلـى الله، وعبّـر بـالجمع للتعظـيم، والمخاطـب محمـد ﷺ، **وأحـسن القَـصص:** هـي قـصص القـرآن الكريم البالغة الكمال والتمام في الحُسن، في صدقها وبلاغتها وسلامة ألفاظها، فليس فيها خيال، ولا شخصيات وهمية، ولا وقائع غير حقيقية، ومنها قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فهي من أحسن القصص، لأنها قصة تامة مفصلة حسنة، والباء سببية، **أي:** بسبب وحينا إليك هذا القرآن، فكل قصة ذُكرت في القرآن هي من الوحي الموصوف بأنه كلام الله، وإن كنت يا محمد: قبل نزول القرآن عليك مـن ضـمن الغـافلين عـن قـصص الأولـين، ومنهـا قـصة يوسـف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وإخوته[1]، فأنت غير مُطّلع عليها؛ لأنك أُمّيّ لا تقرأ ولا تكتب، فلما أوحى الله إليه بهذا القرآن ذهبت عنه تلك الغفلة، وحصل له العلم بما لم يكن يعلم، وفي ذلك دليل على أنه من عند الله؛ لكونه علّمه من غير تعليم[2].

وقولـه: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 88).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 721).

﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾، ثم بدأ في تفصيل قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي قصة لطيفة وجميلة وحزينة ومن أحسن القصص، فأحضروا مشاعركم معها حتى تستفيدوا منها، **والمعنى**: واذكر يا محمد لقومك حين أخبر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أباه يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ برؤيا رآها في المنام، وكان صبياً صغيراً، **قيل**: عمره اثنتا عشرة سنة[1]، فقد رأى في منامه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له، فلما سمع ذلك والدُه منه علم بتأويل الرؤيا، وأن الله سيكرمه بكرامات، وسيكون له شأن في المستقبل، وخشي أن يحسده إخوانه ويدبروا لك مكيدة بسبب ذلك؛ لأنهم هم المقصودون بها، فالكواكب إشارة إلى إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً، والشمس والقمر إشارة إلى أبيه وأمه[2]، **وعلّل ذلك** بأن الشيطان عدو مبين لبني آدم يفرح بأي نزاع وخلاف بينهم، فيسعى في إثارته بمكره وكيده، وفي الآية إشارة استحباب كتمان النعمة حتى توجد وتظهر، **وفي الحديث**: "**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**"[3]، خاصة إذا كان يعيش مع أناس غير صالحين، فلا يخبرهم بما عنده من الخير حتى لا يحسدوه.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾، الكاف

---

(1) ينظر: تفسير الثعلبي: (5/ 198).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 369).

(3) مسند الروياني: (2/ 427)، برقم: (1449)، المعجم الأوسط: (3/ 55) برقم: (2455)، وضعفه ابن أبي حاتم في العلل: (2/ 225)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (3/ 436)، برقم: (1453) من طريق آخر.

للتشبيه، **أي**: وكما أنعم الله عليك بالرؤيا الطيبة وأكرمك بها، فإنه يختارك ويصطفيك لغيرها من الخيرات، ويعلمك ما تؤول إليه الرؤيا في المستقبل حين تتحقق، ويتم عليك النعمة بالنبوة[1]، وتكون نبياً من أنبيائه، وهي أعظم النعم في الدنيا، ويتمها على من اختصهم بالنبوة من آل يعقوب بعدك، كما أتم نعمة النبوة على أبويك إبراهيم وإسحاق من قبل، **وعبّر عن الجد** بالأب، **وذيّل الآية** بأنه عليمٌ بمن يستحق النبوة، وحكيم في أفعاله وعطائه، حيث يضع الشيء في موضعه، وفي ذلك تزكية مطلقة لأفعال الله كلها بالخلق، فكلها صادرة عن العلم والحكمة.

وقوله: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾، بدأ بهذا الأسلوب ليُشوقنا إلى سماع القصة الجميلة العظيمة وما فيها من عِظة وعبرة، ففيها علامات وحقائق وبراهين دالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه لكل من سأل عنها واهتم بها من الناس[2]، **وفي ذلك إشارة إلى** أن الغافل لا يستفيد مما يقال له، بخلاف الذي يسأل ويبحث عن المعلومة، فهذا يدل على اهتمامه بها.

وقوله: ﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾، **واذكر يا محمد**: حين قال إخوة يوسف بعضهم لبعض: إن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وشقيقه من أمه، وهو بنيامين[3]، أحب إلى أبينا يعقوب منا، لأن

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 221).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 9).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 9).

يعقوب يعتني بهما لصغرهما، وهذا هو سبب حسدهم لهما، ونحن جماعة متفقة، نفعنا أكثر من نفع هذين[1]، فكيف يُفضلهما علينا! والعصبة من العشرة إلى الأربعين[2]، وقد كانوا عشرة!، إن تفضيله لهذين الصغيرين علينا ونحن جماعة يدل على وقوعه في الخطأ الواضح في التعامل مع أولاده حين قدم محبة أولاده الصغار على الكبار، ولا يقصدون به الضلال في الدين[3]، ووصفهم لفعل أبيهم بالضلال هو أثر من آثار حسدهم لأخويهم؛ فإن العادة والعرف تقتضي أن يعتني الأبوان بالطفل الصغير أكثر من الكبير، لحاجته إلى الرعاية والعناية والعطف، وهي مرحلة قد مر بها كل الكبار، ولو كانوا يعقلون لما أنكروا ذلك.

وفي الآية إشارة وتنبيه للآباء بتحقيق العدل بين أبنائهم في التعامل والتصرف حتى لا ينشأ بينهم الحسد والغِل بسبب تفضيل بعضهم على بعض بدون سبب، وفيها نصيحة للأبناء الكبار أن يتعقلوا ويتذكروا أيامهم وهم صغار، حتى لا يُصابوا بالغيرة مما يفعله الأب مع إخوانهم الصغار.

وقوله: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾، ثم اقترح بعضهم للتخلص من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اقتراحين: القتل المباشر له، أو التخلص منه بوضعه في أرض بعيدة تأكله السباع ولا يصل إليها أبوهم، ونُصبت الأرض بإسقاط الخافض، **أي:** اطرحوه في أرض، فإذا

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 93).

(2) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 183).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 10).

تخلصتم منه فإن أباكم سيقبل عليكم إقبالة واحدة، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم؛ لأنه كان مشغولاً عنهم بيوسف وأخيه، وهذا هو الحل للمشكلة من وجهة نظرهم، ولكنه حل قبيح وذنب عظيم، وهم يعلمون قبحه؛ ولذا نصحوا أنفسهم بأن يحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منهم، وتصلح بها حال دينهم[1]، وهذا من تزيين إبليس للناس وتشجيعهم على فعل القبائح، **وقيل**: تصلح بها أحوال دنياهم بعد ذهاب يوسف عنهم لذهاب ما كان يشغلهم عن ذلك، وهو الحسد ليوسف وتكدر خواطرهم بتأثيره عليهم[2]، **وفي الآية إشارة إلى** خطورة الحسد وأنه قد يدفع صاحبه إلى قتل من يحسده.

وقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾، والقائل كبيرهم، وهو أعقلهم، وهذه مِنحة ولطف من الله به، وقد خرجت من دائرة المؤامرة نفسها وعلى لسان واحد منهم، فالمِحن قد تشتمل على بعض المنح، فقد نهاهم عن قتله والتخلص منه ووافقهم على إبعاده بدون قتل له، فأرسل الله له هذا اللطف على لسان أحد إخوانه المتآمرين من أجل أن يبقى حياً، واقترح عليهم أن يلقوه في مكان مظلم في أسفل قاع **الجب**، **وهو** البئر الذي قُطع من الأرض قبل أن يُطوى بالحجارة[3]، **والغيابة** كل ما غيّب شيئاً وستره[4]، **والسيّارة** هم القافلة من الناس الذين يسافرون مع

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 724).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 10).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 222).

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 93).

بعض، فإذا مروا من ذلك المكان أخذوه معهم، والمقصد من هذا الاقتراح إبعاده مع الحفاظ على حياته، إن كنتم مصممين على تنفيذ فكرتكم بإبعاده عن أبيه، فوافقوا على هذا المقترح، وفكروا في حيلة لأخذ الغلام من أبيه والانفراد به في مكان بعيد.

وقوله: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾، فرجعوا إلى أبيهم وخاطبوه بتلطّف وتودد، وسألوه سؤالاً استنكارياً، **لماذا لا يأمنهم على يوسف بحيث يتركه يخرج معهم؟!**، رغم أنهم مشفقون عليه وسيقومون برعايته والعطف عليه، ثم طلبوا منه أن يسمح له بالذهاب معهم إلى البادية التي كانوا يخرجون إليها؛ ليأكل مما لذّ وطاب معهم من الأشجار والثمار، ويلهو ويلعب بالاستباق وغيره، وعلّلوا طلبه والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف لصباه من التنزه واللعب والنشاط[1]، ووعدوه بالحفظ والصيانة والرعاية له من كل مكروه.

وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾، **فاعتذر لهم عن تلبية طلبهم بسببين، الأول:** أنه يحزن لفراقه، فهو متعلق به، ويريد أن يجلس بجواره ليستأنس به، **والثاني:** أنه يخاف لو سمح له بالذهاب معهم أن ينشغلوا عنه فيأتي ذئب فيأكله وهم غير منتبهين لذلك، **فردوا عليه:** والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء أشداء إنا لمستحقون أن يُدعى علينا بالخسارة

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 224).

والهلاك[1]، والمعنى: أنهم لن يتركوه ليأكله الذئب وهم جماعة متفقة وقوية وموجودون معه، وبهذا أقنعوا والدهم، فسمح لأخيهم أن يذهب معهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن أحسن القَصص هي قصص القرآن الكريم البالغة الكمال والتمام في الحُسن.

2- استحباب كتمان النعمة حتى توجد وتظهر، خاصة إذا كان يخشى الحسد ممن حوله.

3- بيان أن الغافل لا يستفيد مما يقال له، بخلاف المنتبه الذي يسأل ويبحث عن المعلومة.

4- وجوب تحقيق العدل بين الأبناء في التعامل والتصرف حتى لا ينشأ بينهم الحسد والغِل.

5- بيان خطورة الحسد، وأنه قد يدفع صاحبه إلى قتل من يحسده.

6- بيان أن بعض المِحن قد تشتمل على بعض المنح.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 13).

تفسير المقطع الثاني من سورة يوسف

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ
هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ
﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ
ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا
غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ
مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ
أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ
ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ
رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا
بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ
أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ

شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن
كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ
إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ
كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾، فلما وافق والدهم على السماح ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالذهاب معهم، وخرجوا به إلى البادية بعيداً عن أبيه، وكانوا قد عزموا على تنفيذ خطتهم التي اتفقوا عليها سابقًا، وهي إلقاؤه في قعر بئر مظلمة لا ماء فيها، كانوا قد علموا مكانها من قبل، وكانت على طريق القوافل بين بيت المقدس ومصر، فربطوه بحبل ودلّوه فيها، وألهم الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ذلك الحال الضيّق بشيء تطمئن به نفسه، حتى لا يحزن مما هو فيه، فإن له من ذلك فرجًا ومخرجًا، وسينصره الله عليهم، ويرفع درجته، وسيخبرهم بما فعلوا معه بعد حين[1]، وهم لا يشعرون حين ينبئهم أنه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه بهذا[2]، وهذا من لطف الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ففي كل مِحنة تقع له يخرج يصحبها لطف ومِنحة من الله سبحانه له، **واللطف الذي منحه الله ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه المحنة متعدد، منها:** أن البئر

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 374).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 726).

التي ألقي فيها ليس فيها ماء، ولو كان بها ماء لغرق، **ومنها**: أن الله أوحى إليه في الحال على سبيل الإلهام ما تطمئن به نفسه ويثبت قلبه.

وقوله: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾، فرجعوا إلى رحالهم في وقت العشاء بدون يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، **وقد ظهر عليهم قرينتان تدل على عدم صدقهم**، **الأولى**: تأخرهم إلى العشاء، على خلاف ما اعتادوا عليه كل يوم، فيكون كلامهم بالظلام أجرأ لهم على الاعتذار وترويج الباطل، **والثانية**: أن بكاءهم مُصطنع غير حقيقي، بل هو تباكٍ، لا يدل على الحزن والقهر، بل هي كدموع التماسيح، لأن التمساح حينما يلتهم فريسته تخرج منه دموع بسبب فرحه بهذه الفريسة، أو بسبب كثرة تحريك فمه بها، فيظن من يراه أنه يبكي على فريسته!، فإخوة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يتباكون أمام أبيهم في الظلام حزناً على أخيهم الذي مكروا فيه وتخلصوا منه!، ففطن لحالهم واكتشف أنهم ليسوا صادقين في قولهم.!

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾، **"نستبق"، لها معنيان**[1]: **إما** من المسابقة؛ وهو الجري أيّنا يسبق الآخر، وهذا نوع من التمارين الرياضية التي تتقوى به العضلات، **وإما** من السبق، وهو الرمي بالسهام، وعلى كلا المعنيين يستقيم معنى اللفظ هنا، **والمعنى**: أننا انشغلنا وابتعدنا عن يوسف بالسبق أو المسابقة وتركناه عند أمتعتنا لأنه صغير لا يقوى على السبق ولا المسابقة، فجاء ذئب فأكله دون علمنا، وما أنت بمصدق خبرنا ولو كنا عندك

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 14).

من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف تشك بنا[1]، وهذه قرينة ثالثة تدل على كذبهم، فإن من يقول هذه الكلمة في الغالب هو الكذاب الذي يُحاول أن يُثبت أنه صادق، فزادت هذه القرينة الأب شكًا في خبرهم.

وقوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾، وكانوا قد رموه في البئر عريانًا، وأحضروا معهم قميصه الذي كان يلبسه، وقد لطخوه بدم وصف بأنه ذو كذبٍ؛ لأنه ليس دمه، بل ذبحوا حيوانًا آخر، ولطخوا الثوب بدمه، وعرضوا الثوب على والده، **وقيل:** إن الثوب كان سليمًا غير ممزق، **ولما رآه يعقوب** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **قال لهم:** متى كان هذا الذئب حكيمًا يأكل يوسف ولا يخرق القميص؟![2] فزاد الشك في قلب يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، **وقال لهم:** لم يأكله الذئب، بل زيّنت لكم أنفسكم أمراً سيّئًا خبيثًا فمكرتم به، ثم أخبر أن شأنه هو الصبر الجميل على فراقه، وهو الذي لا شكوى فيه لغير الله[3]، ثم أخبرهم بأن ما فعلوه أمر قبيح ومنكر، وأنه ابتلاء عظيم له، وأنه يستعين بالله عليه.

وقوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾، وجاءت قافلة تسير في ذلك الطريق، فمرّوا على البئر، وأرسلوا شخصًا منهم، وظيفته توفير الماء للقافلة، لكي

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 100).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 14).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 96).

يجلب لهم الماء منها، فذهب إلى البئر فأنزل فيها دلوه، وهو وعاء يُربط بحبل فيُلقى في وسط البئر، فيمتلئ بالماء فيشد بطرف الحبل من أعلى فيرتفع الدلو ممتلئًا بالماء، فلما ألقى الدلو تعلق به يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فرفعه الرجل ظنًا منه أنه قد امتلأ بالماء، فظهر له غلامٌ، **فصاح**: يا بشرى، **أي**: يا فرحتاه، لقد حصلت على غلام، وكان سن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يومئذ سبع عشرة سنة[1]، وكان قد أُعطي شطر الحسن[2]، فنصف جمال أهل الأرض معه، ففرح به فرحًا شديداً، فأخفاه هو ومن كان معه عند البئر، **وقالوا لباقي القافلة**: اشتريناه ليكون بضاعة لنا من أصحاب الماء، خوفًا أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره، **والبضاعة**: القطعة من المال يتّجر فيها[3]، وما فعلوه من حيلة على أصحابهم لا يغيب على الله، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه[4]، ومن لطف الله بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن جاءته القافلة بعد فترة قصيرة من وقوعه في البئر، ولو تأخرت كثيراً لمات في قعر البئر.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾، وباعه الذين وجدوه في البئر في السوق بسعر رخيص، وهو دراهم معدودة، كناية عن كونها قليلة؛ لأن الشيء القليل يسهل عده، وكانوا في ثمنه من الزاهدين،

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 242).

(2) ينظر: صحيح مسلم: (1/ 145)، برقم: (162).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 229).

(4) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 376).

فليس لهم رغبة فيه، بسبب قلة معرفتهم بالأسعار[1].

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾، والذي اشتراه هو عزيز مصر، **وهو ما يُسمى اليوم في تنظيم الدولة الحديثة** برئيس الوزراء، **قال لامرأته حين أوصله إليها في القصر**: اعتني بأمره، وأحسني إليه طوال مدة بقائه عندنا، بسبب ما رأى من جماله وحسن حاله وذكائه وفطنته، لعلنا أن ننتفع به ويكون لنا بمثابة الولد؛ لأنه لم يكن لهم أولاد[2]، وهذا من لطف الله بيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فحين أصابته مِحنة الرِّق، يسّر الله له سيداً يهتم به ويعتني بأمره من علية القوم، وليس له أولاد فصار يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في منزلة ولده في الرعاية والعناية والمكانة، وكما أنجيناه من إخوته حين هموا بقتله وإهلاكه، وأخرجناه من ظلمة البئر؛ مكنا له في أرض مصر بتعليم الله له تأويل الرؤيا، ومنها تأويل رؤيا الملك التي كانت سبباً في وصوله إلى تولي إدارة شؤون مصر بعد ذلك، **وعلّل ذلك كله** بأن أمر الله نافذ لا يرده راد ولا يمنعه مانع، ولكن أكثر الناس، وهم الكفار، لا يعلمون عظمة الله وقدرته، فلا يُعظمونه ولا يُؤمنون به سبحانه.!

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾، ولما كبُر وترعرع وبلغ منتهى الشباب والقوة، وهو ما بين ثماني عشرة إلى أربعين

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 244).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 61).

سنة[1]، منحه الله النبوة وعلم الوحي، فكمُلت شخصيته بذلك، فجعله حكيماً عالماً، وليس كل عالم حكيماً، فالحكيم هو العالم العامل بعلمه[2]، وكما أعطينا يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هذه النعم واللطائف والمِنح والكرامات، فكذلك نجزي كل محسن في عمله، وفي هذا إرشاد للناس إلى أن يُحسنوا العمل مع الله ومع الخلق حتى تأتيهم البركات والمِنن والكرامات.

وقوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ ثم ذكر ما حصل له من ابتلاء وفتنة في قصر سيده، فقد طلبت منه امرأة العزيز أن يمارس معها الفاحشة، **والمراودة:** تكرار الطلب برفق ولين[3]، فكانت الفتنة له عظيمة لأنها هي من دعته إلى الفاحشة وهي سيدته وهو عبد والبيت بيتها، وهي صاحبة الأمر والنهي فيه، وطلبت منه أن يمارس معها الفاحشة، وهو شاب وغريب عن أهله ودياره، وزاد الأمر خطورة أنها قد هيئت نفسها لذلك وغلقت كل الأبواب ومنعته من الخروج ودعته إلى نفسها وأخبرته أنها مستعدة له، فاستعاذ بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من فعل ذلك، وأخبرها بأنه لا يمكن أن يخون سيده الذي أكرمه واهتم به وأحسن إليه، فإن الزنا ظلم للنفس وظلم لسيده الذي أمنه على بينه، والظالم لا يفلح.

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (15/ 21).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 99).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 20).

وقولــه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾، ولقــد عزمــت علــى أن تُوقعه في الفاحشة، وكان همّها همّ عزم وإرادة وحرص على تحقيق رغبتها، وهمّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ همّ خطر في باله ولم يقبله ولم يستجب له، بسبب قوة إيمانه وعِصمة الله له، ولا يقدح هذا في عصمة الأنبياء؛ لأن الهمّ بالذنب ليس بذنب ولا نقص عليه في ذلك[1]، فإن من همّ بذنب ثم تركه الله كتب له حسنة[2]، **وقيل:** هو همٌّ مشروط لم يتحقق، **أي:** لم يحصل منه همّ بسبب رؤيته لبرهان ربه، وهو الإيمان والعصمة له، وأنكر هذا القول بعض النحاة بحجة أن العرب لا تؤخر لولا عن الفعل[3]، وأجازه آخرون[4]، وعلى كِلا القولين ففيهما تبرئة لجناب يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهناك أقوال أخرى كلها لا تليق بعصمة الأنبياء، وقد وردت فيها روايات كثيرة وأغلبها من الإسرائيليات[5]، وقد ثبتناه مثل ذلك التثبيت برؤيته للبرهان من أجل أن يصرف الله عنه به الوقوع في خيانة سيده والوقوع في الزنا، ثم علّل ما حصل له من حماية ورعاية بأنه منّة من الله عليه بسبب إخلاصه، **وقرئ:** "المخلصين" بفتح اللام، **بمعنى:** الذين أخلصهم الله

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 731).

(2) ينظر: الحديث في صحيح مسلم: (1/ 117)، برقم (205).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 229).

(4) ينظر: البحر المحيط: (5 / 295).

(5) ينظر: تفسير الطبري: (16/ 35).

لعبادته، وبكسر اللام، **بمعنى**: الذين أخلصوا عبادتهم لله[1]، **وفي الآية** إشعار بأهمية الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾، ولما رأى يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ البرهان قام مبادراً إلى الباب هارباً مما أرادت به، وتبعته المرأة مسرعة تريد حبسه والتشبث به ومنعه من الخروج، فسبقها فلم تصل إلا إلى دبر قميصه فمسكت به فانقطع، فوجدا زوجها عند الباب فجأة[2]، وكان من عادة القبط إطلاق السيد على الزوج[3]، فلما خشيت الفضيحة بادرت بالشكوى وادعت أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ اعتدى عليها وأراد الزنا بها، وذكرت عقوبة كل من فعل ذلك على العموم، وهي تقصد يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، لأنه لا يوجد في البيت معها إلا هو، **وخيّرته بإحدى عقوبتين**: السجن أو الضرب بالسياط، بناءً على أن الذنب ثابت عليه بدعواها فقط.

وقوله: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾، فرد عليها يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أمام زوجها بأنها هي التي طلبت منه أن يمارس الفاحشة، وأنه رفض ذلك، وأنه حاول الفرار منها، وأنها لحقته

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 731).
(2) ينظر: تفسير البغوي: (2/ 487).
(3) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 256).

لمنعه من الخروج، وأنها قطّعت قميصه بسبب ذلك، وحضر مع زوجها ابن عم المرأة، وكان رجلاً حكيمًا من أهلها، فصل بينهم في الدعوى من خلال النظر في الثوب المقطوع، فهو قرينة لمعرفة من المعتدي على الآخر، فقال: قد سمعنا الاشتداد والجلبة من رواء الباب، وشق القميص، فلا ندري أيكما كان قدام صاحبه[1]، فانظروا؛ فإن كان القميص قد شق من الجهة الأمامية له، فصدقت المرأة في دعواها عليه، لأنه سيكون هو المقبل عليها وهي الدافعة له عن نفسها، وإن كان الثوب قد تمزق من الجهة الخلفية له، فهو الصادق في دعواه عليها، لأنه سيكون هو المتباعد منها، وهي التابعة له[2]، **والقدّ**: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً[3].

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾، فلما رأى زوج المرأة قميص يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ممزقًا من الخلف، استبان لديه براءة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، واكتفى بلوم زوجته ووصف دعواها بأنه نوع من المكر والحيل الذي تتقنه النساء، ثم التفت العزيز إلى يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأمره بالإعراض عما رمته به، وعدم مؤاخذتها بذلك، وأن لا يكترث له، فقد بانت براءته، ولا يحدث به أحداً؛ لأنه لا يُريد الفضيحة لها، ثم أمر زوجته بالاستغفار

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 82).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 103).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 22).

لذنبها الذي وقعت فيه، ووصْفها بأنها كانت من الخاطئين يُشعر بأنها كثيرة الخطأ فيما تقدم[1]، فقد وقعت في الإثم بخيانتها لزوجها، وبمراودتها ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فلما امتنع كذبت عليه وبهتته[2]، واقتصاره على هذا القول لزوجته دون تأديب لها دليل على ضعف الغيرة لديه[3].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- من لطف الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ أن كل مِحنة وقعت له يخرج منها بمِنحة.

2- أن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ استدل بعدة قرائن على كذب أولاده فيما أخبروه به من خبر ابنه.

3- أن الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه لغير الله.

4- بيان فضل الإحسان في العمل مع الله ومع الخلق، وأثره في نزول البركات.

5- بيان أهمية الإخلاص لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأثره في النجاة من الهلاك.

---

(1) ينظر: تفسير الرازي: (18/ 447).

(2) ينظر: التفسير البسيط (12/ 85).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 258).

تفسير المقطع الثالث من سورة يوسف

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا
لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ
وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا
بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ
فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا
الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي
أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ
إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن
يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ
مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾
يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ

إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾
يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن
رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى
عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾، ولما بلغ خبر زوجة العزيز إلى بعض نسوة كبار القوم في المدينة، وهذا أمر مألوف أن كل طبقة من طبقات المجتمع تتواصل مع مثلها؛ احتقرن فعلها ذلك، وأنكرن عليها هذا التصرف باعتبار أنه لا يليق بها أن تُراود من ليس في طبقتها، فكيف يحصل من امرأة في مكانتها أن تتنازل وتُراود فتاها؟! بل كيف يتمكن حب هذا الغلام من قلبها تمكنًا كبيراً؟!، والشغاف غلاف القلب[1]، وهو جلدة رقيقة عليه، وحكمن على تصرفاتها بأنها بعيدة عن طريق الرشد والصواب ولا تليق بها، وأنها قد وقعت في خطأ واضح.

وقوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾، فلما سمعت امرأة العزيز هذا الخبر الذي دار في مجالس نسوة عِلية القوم، وأُطلق عليه مكراً؛ لأنهن أردن بهذا القول الحيلة والاستفزاز

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 105).

لها حتى تريهن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والمكر مخالفة الظاهر للباطن[1]، **وقيل**: إنها كانت قد أخبرتهن بأمرها معه، وطلبت منهن الكتمان، فمكرن بها وأفشين سرها[2]، فقابلته بمكر آخر، حيث قامت بدعوتهن للحضور إلى قصرها، وجهزت لهن مجلساً فيه وسائد ونمارق يتكئن عليها[3]، وقدمت لهن طعاماً مما يُقطع بالسكين، كالفواكه ونحوها، فلما بدأن بتقطيع الفاكهة التي بأيديهن؛ طلبت امرأة العزيز من يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يخرج من مكانه ويدخل عليهن المجلس؛ فلما نظرن إليه أعظمنه من شدة جماله، وأصبن بالدهشة والتحير؛ فانشغلن بالنظر إليه عن تقطيع الفاكهة حتى جرحن أيديهن، حتى دميت[4]، وهن يحسبن أنهن يقطعن الفاكهة، وقلن: حاشا لله، **أي**: معاذ الله[5] أن يكون هذا بشراً، بل هو ملك من الملائكة في تمام وكمال خِلقته وجمال صورته.!

وقوله: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾، فأشارت إلى يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن ينصرف، **ثم قالت لهن**: ذلك هو الفتى الذي قطعتن أيديكن بسببه، هو الذي لمتنني في حبه والشغف به وجعلتنني ضالة في هواه، ولقد طلبته وحاولت إغراءه

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 92).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 105).

(3) ينظر: مجاز القرآن: (1/ 309).

(4) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 33).

(5) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 42).

ليستجيب لي، فامتنع وطلب العصمة وتمسك بها وعصاني[1]، فأشارت إلى جماله الحسي وصورته البهية، ثم أشارت إلى جماله المعنوي وهو كمال عِفته، فالجمال نوعان: جمال الصورة، وجمال الأخلاق والأفعال، فقد يكون الشخص جميلاً في صورته، لكنه غير جميل في أخلاقه وسلوكه، ثم عزمت على محاولة الإيقاع به مرة أخرى، وتوعدته إن أبى وامتنع بالطرد من القصر وإدخاله إلى السجن صاغراً ذليلاً، وقولها هذا يدل على تسلطها على زوجها، وضعف شخصيته أمامها؛ فلو كان رجلاً قوي الإرادة والعزيمة لأدبها أول مرة، حين اكتشف أنها هي المخطئة، ولو فعل ذلك لما صدر منها هذا القول القبيح مرة أخرى.!

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾، فلما بلغ يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هذا التهديد والوعيد امتنع عن تلبية طلبها، واعتصم بالله وناداه: يا ربِّ، دخولي السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه من عمل الفاحشة،! رغم ما فيه من ذلة وألم إلا أنه أحب إليّه من لذة تتبعها ندامة ومعصية تُوقع في الهلاك، واختار عذاب الجسد على عذاب النفس والقلب، وهذا من تمام عقله، ثم دعا الله أن يصرف عنه كيد النسوة جميعًا؛ لأنهن طلبن منه أن يستجيب لسيدته، وشجعنه على ذلك[2]، ثم فوض أمره إلى الله وتوكل عليه، وطلب منه أن يصرف عنه كيدهن، فإنه إن تركه بدون حماية ورعاية له فإنه ضعيف يخشى أن يميل إلى تحقيق طلبهن ويقع في

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 241).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 266).

الفاحشة، ويكون حينها من السفهاء الجاهلين بعظمة الله، أو ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه(1).

وقولــــــه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾، فاستجاب الله له دعاءه وصرفه عن الفاحشة وعصمه من الوقوع في الحرام؛ لأنه سميع بما يقوله الخلق، عليم بأحوالهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾، ثم ظهر للعزيز ومن معه في القصر أن يسجنوه بعد أن ثبتت براءته عندهم بما شاهدوا من الأدلة، لإنهاء القيل والقال حول القضية، وستر ما شاع بين الناس من قصة امرأة العزيز معه، أو أن العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته بسبب شغفها به(2)، ولم يُحددوا فترة لسجنه؛ بل يسجن حتى تنتهي آثار المشكلة، ولأنه لا يوجد حكم قضائي بذلك، بل كان سجنه بدون ذنب ولا محاكمة، وإنما إرضاءً لسيدة القصر، وتنفذاً لتهديدها، ومن ألطاف الله به أن منحه الله الثبات والصبر والعزيمة لتجاوز هذه المحنة العظيمة، وصرفه عن الفاحشة رغم ما حصل له من إغراءات وتهديد.

وقولـه : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾، وأدخل السجن مع يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فتيان في سنه من خدم قصر ملك مصر،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 29).
(2) ينظر: المصدر السابق:(3/ 31).

هما خبازه، وساقيه، بتهمة وضع السم للملك[1]، وهذه مِنحة ولطف من الله به، فلم يُسجن وحده، بل سجن مع شابين في سنّه ليكون بينهم نوع من التوافق والتشابه في الصفات، وحصل له بهما الاستئناس، وقد رأى الشابان في يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الصلاح والاستقامة والعلم، فأرادا أن يختبراه في تفسير رؤيا اخترعاها لمعرفة ماذا سيقول يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في تعبيرها[2]، **وقيل**: أن هذه الرؤيا حقيقية وقعت لهما فعلاً[3]، **فقال الأول** الذي كان يعمل ساقيًا في قصر الملك: رأيت أني أعصر عنبًا وأسقيه الملك، وسمى العنب خمراً لأنه يصنع منه، **وقال الثاني**، وهو الخباز: رأيت أني أحمل فوق رأسي خبزاً، وأن الطير تأكل من هذا الخبز، وطلبوا تأويل تلك الرؤيا، معلّلين طلبهم له كونهم رأوه من المحسنين في تعامله معهم، فقد كان يعتني بالسجناء، فيزور المريض، ويُطعم من يحتاج إلى طعام، وينصح من يحتاج إلى نصيحة[4].

وقوله: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾، فأجابهم إلى طلبهم، وحدد لهم أن يأتيهما بالجواب قبل مجيء طعامهما المخصص لهما إلى

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 109).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (16/ 95).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 388).

(4) ينظر: تفسير البغوي: (2/ 491).

السجن، وجعل لذلك وقتًا معلومًا لهما، فليس لهما في السجن وسائل يوقتون بها[1]، وهو نوع من التطمين لهما حتى لا ينزعجا من نصحه لهما قبل ذلك، ثم بيّن لهما أن هذا التأويل ليس تنجيمًا ولا خرافة، وإنما هو علم منحه الله له بسبب توحيده وإيمانه به، وتركه للشرك وعبادة غير الله التي كان يمارسها الكنعانيون الكفار بالله واليوم الآخر، وأنه على ملة التوحيد التي كان عليها آباؤه الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وأنه لا يجوز لهم ولا لغيرهم من البشر أن يقعوا في الشرك بالله مطلقًا، وأن منحهم النبوة وهدايتهم إلى التوحيد وعدم الإشراك بالله شيئًا هو فضل من الله عليهم، حيث أمرهم به، وجعلهم دعاة إليه، وهو كذلك فضل على الناس الذين وُفّقوا إلى اتباع الرسل في ذلك، ولكن أكثر الناس وهم الكفار لا يشكرون الله على نعمة إرسال الرسل، فيصدقونهم ويتبعونهم، بل يُعرضون عنهم ويكفرون بهم.

وقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٤٠)﴾، ولما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه؛ استغل ذلك ودعاهما إلى التوحيد، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية إلى الله تعالى، لا يترك الدعوة في كل الظروف، وأن ينتهز الفرص ولا يضيعها، وناداهما بلفظ الصحبة من باب التلطف، ولأنه قد صار ملازمًا

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 270).

لهما في السجن فترة طويلة قبل أن يسألوه تأويل الرؤيا، ثم سألهم سؤالاً عقلياً لإثبات التوحيد: من صاحب الصواب؛ من يعبد آلهة متفرقة، أو من يعبد إلهاً واحداً؟! ثم وصفه بأنه واحد مقابل التشتت، ووصفه بأنه القهار المتصرف المالك المهيمن على غيره في مقابل آلهة عاجزة لا تفعل شيئاً، ثم خاطبهما مباشرة؛ لأنهما كانا من قوم مشركين، يعبدون غير الله، أصناماً اتخذوها لأنفسهم وأطلقوا عليها هم وآباؤهم اسم الإله، بدون حجة ولا برهان أنزله الله عليهم، وإنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو الذي يحكم ويفصل في الأمور، فلا حكم ولا تصرف لغيره في هذا الكون، وقد أمر الخلق جميعاً ألا يعبدوا سواه، وما أمر الله به من توحيده وعبادته وحده لا شريك هو الدين الصحيح المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولكن أكثر الناس وهم الكفار به سبحانه لا يعلمون إثم وجزاء من كفر به، ولا أجر وثواب من آمن به وعبده.

وقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾، ولما فرغ من دعوتهما، شرع في تعبير رؤياهما، فأخبر الأول الذي رأى أنه يعصر خمراً، وهو الساقي بأنه بريء من التهمة، وأنه سيعود إلى القصر ويمارس عمله السابق فيه، وهو العمل في عصر العنب وسقي الملك، وأخبر الثاني، وهو الخباز، بأن التهمة ثبتت عليه، وأنه سيُقتل ويُصلب فتأكل الطير من رأسه، فقال الخباز له: إنه لم ير شيئاً، فأعلمهما أنه سيقع بهما ما عبّره لهما، صدقا أم كذبا، وأن ذلك قد فرغ

منه، وهو واقع لا محالة[1]، **وفي الحديث**: **"الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت"**[2]، وجزمه بذلك يدل على أن تأويله بوحي من الله[3]، وليس عن اجتهاد منه، فقد يُصيب فيه، وقد يُخطئ، وسمى تأويل الرؤيا استفتاء؛ لأن فيها إخبار عن حل مشكلة، أو إرشاد إلى إزالة حيرة عن السائل[4]، ويلزم من يقوم به أن يكون لديه علم بذلك.

وقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾، **وقال يوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ **للساقي**، الذي تيقن أنه سينجو من العقوبة بسبب تفسيره لرؤياه حين جاءه خبر خروجه من السجن: إذا قابلت الملك أثناء سقيك له عصير العنب كما كنت تفعل من قبل، فأخبره أن في السجن شاباً سُجن ظلماً، وله فيه عدة سنوات، لعله ينظر في مظلمتي، فلما خرج هذا الساقي من السجن أنساه الشيطان ما طلبه منه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يخبر الملك بأمره[5]، فبقي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ذلك في السجن سبع سنوات، فالبضع من الثلاث إلى التسع[6]، **وقيل**: أنسى الشيطان

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 390).

(2) مسند أحمد: (26/ 100)، برقم: (16182)، سنن أبي داود: (4/ 305)، برقم: (50209)، وإسناده صحيح.

(3) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 121).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 278).

(5) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 391).

(6) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 112).

يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الاستغاثة بربه، وأوقع في قلبه الاستغاثة بالملك، لإخراجه من السجن؛ فعوقب بأن لبث في السجن سبع سنين[1]، وكان قد مكث خمساً قبل هذه الرؤيا، فصارت مدة سجنه اثنتي عشرة سنة[2].

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – بيان عظم مكر النساء وكيدهن بالرجال.

2 – بيان أن الجمال نوعان: جمال الصورة، وجمال الأخلاق والأفعال.

3 – بيان تسلط امرأة العزيز على زوجها، وضعف شخصيته أمامها.

4 – أن اختيار يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دخول السجن على الوقوع في الفاحشة من تمام عقله وقوة إيمانه.

5 – أن سجنه كان بدون ذنب ولا محاكمة، وإنما إرضاءً لسيدة القصر، وستراً لفضيحتها.

6 – أن من ألطاف الله بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أن منحه في السجن شباباً من سنّه يستأنس بهم.

(1) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 122).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 735).

تفسير المقطع الرابع من سورة يوسف

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ
خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ
أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم
بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ
وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ
سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ
يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ
يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ
ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ
حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ
نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ
أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي
حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن
نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾، **وقال ملك مصر** الذي كان يحكمها آنذاك، وكان من الكنعانيين، وليس من الفراعنة، **فإن مصر كانت على قسمين: مصر** السفلى ويحكمها الكنعانيون، **ومصر** العليا ويحكمها الفراعنة[1]، وكان قد رأى رؤيا كانت سبباً لخروج يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من السجن معززاً مكرماً، فقد رأى في المنام سبع بقرات ظاهر عليهن السمنة من الشبع، وسبع بقرات ضعاف هزيلات من شدة الجوع، ورأى أن السبع الهزيلات يأكلن السبع السمان، ورأى سبع سنابل خضر وسبع سنابل يابسات، فرأى أن اليابسات قد التفت على الخضر حتى غطتها، فهالته تلك الرؤيا وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فطلب من كبار حاشيته أن يُعبروها إن كانوا يستطيعون ذلك.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، فعجزوا عن ذلك وأخبروه بأن ما رآه من رؤيا هي عبارة عن أخلاط من الأحلام المتداخلة التي لا تأويل لها، ونفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له من الرؤيا، ولم يقرّوا بالجهل والعجز عن تأويل الأحلام مطلقاً[2].

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 280).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 248).

﴿خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٤٦﴾، فلما عجز الملأ عن تأويلها، أبلغهم ساقي الملك بأنه يعرف من يفسرها لهم، وهو الذي كان مسجونًا مع صاحبه الخباز مع يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ونجا من العقاب بثبوت براءته، وادّكر أصلها "اذتكر" بالذال والتاء فصعب نطقهما معًا، فأُبدلت الذال دالاً، وأُدغمت التاء في الدال لقرب مخرجها، **والمعنى**: تذكّر بعد نسيان طويل، **قيل**: سبع سنوات، بأنه كان يعرف شخصًا في السجن عنده علمٌ بتفسير الرؤيا، وقد فسر له رؤياه، فأرسلوني إلى السجن، وكلفوني بالمهمة، وأنا آتيكم بخبر التأويل منه، فأرسلوه، فلما دخل على يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في السجن، ناداه بوصف الصدّيق، وهو وصف مبالغة من الصدق، وذلك لأنه ما جرب عليه كذبًا قط، وقد صدقه في تفسير رؤياه، وطلب منه تأويل رؤيا الملك، لعله أن يرجع إلى الناس الذين أرسلوه، وهم الملك وحاشيته، لعلهم يعلمون تأويل الرؤيا، فإنهم قد عجزوا جميعًا عن تأويلها، فيظهر لهم مكانتك وفضلك عليهم.!

وقوله: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ۝٤٩﴾، **فأجابه يوسف** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بتأويل الرؤيا دون أن يُعاتبه على نسيانه ما طلبه منه عند نجاته، بأن يذكّر الملك بمظلمته، وهذا من حسن خلقه، وفسر له الرؤيا، **ففسر البقر** بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تنبت منها الزروع والثمرات وهن السنبلات الخضر[1]، **وفسر**

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 393).

السمن بالخصب، والعجاف بالقحط، والسنبلات الخضر بالطعام واليابسات بما يدخر[1]، ونصحهم أن يزرعوا أرضهم سبع سنوات متتالية بجد ونشاط، واستمرار وتتابع، فالدأب هو الملازمة للشيء والعادة[2]، وأخبرهم بأن يتركوا ما حصدوا من الثمار والحبوب في سنابلها دون دوس لها؛ حتى يبقى محفوظًا لا تأكله السوس؛ لأن الهدف تخزينه لسبع سنوات قادمة، وطلب منهم أن يكونوا مقتصدين في النفقة فيما يدوسون من الحبوب ويفكونه من سنابله، هو الشيء القليل الذي يقتاتون منه، والباقي يخزن بسنابله ويدخر للحاجة، لأنه ستأتي عليهم بعد هذه السنوات السبع التي فيها أمطار وزراعة، سبع سنوات شديدة القحط، وتكون الزراعة والثمرة فيها قليلة، وسيأكل الناس فيها كل المخزون الذي تم جمعه من السنوات السابقة، إلا قليلاً مما يحافظون عليه ويحفظونه ليكون بذوراً للزراعة، فربما من شدة الحاجة إلى الطعام إذا لم يُحصنوا البذر ويحموها فقد يضطرون لأكلها، ثم لا يجدون بذوراً يزرعون بها الأرض مرة أخرى، ثم أخبرهم عن عام آخر لم يُذكر في الرؤيا، وإنما استنبطه يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من مجموع الحالتين: فسبع سنوات زراعة وثمار خزنت فيها الأقوات، وسبع سنوات جفاف وقحط، وأُكل فيها المخزون، وستنتهي المشكلة بعام جديد يُغيث الله الناس فيه بالمطر ويعودون فيزرعون مزارعهم وتظهر ثمارها بقوة، من كثرة الخصْب والنماء، مما يجعلهم يشربون عصير الثمار الخضراء من الفواكه ونحوها، فإن اليابس لا يعصر، وبهذا الإجراء تنتهي

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 286).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 114).

المشكلة الاقتصادية التي ستصيبهم خلال السبع السنوات العجاف.!

وقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)﴾، فلما رجع الساقي إلى الملك وأخبره بتفسير الرؤيا أعجبه، وأراد أن يسمعه من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مباشرة، فطلب حاشيته أن يخرجوه من السجن ويأتوا به إلى القصر، فأرسلوا رسولاً إلى السجن ليخرجه من السجن لمقابلة الملك، فقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ له: لن أخرج حتى ينظر الملك في مظلمتي، وتثبت براءتي مما رميت به في بيت العزيز، لأن ذلك قد بلغ الملك لا محالة، فارجع إلى سيدك الملك، واطلب منه أن يسأل النسوة اللاتي اجتمعن عند امرأة العزيز وجرحن أيديهن عن حقيقة أمرهن وشأنهن معي؛ لتظهر الحقيقة، وتتضح براءتي للجميع، فإن كان الملك لا يعلم بكيدهن، فإن ربي عليم بذلك، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا من فطنة وكمال عقل ودين يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد دخل السجن ظلماً وعدواناً من العزيز وامرأته، ومكث فيه اثنتي عشرة سنة، فكيف يخرج دون أن تظهر براءته للناس؟! رغم حاجته للخروج إلا أن حرصه على براءته وسلامة سمعته عند الناس دفعه إلى هذا التصرف، وفي الحديث: **"لو لبثت في السجن ما لبث يوسف، ثم جاءني الداعي لأجبته"**[1]، ومن لطفه وأدبه وأخلاقه لم يذكر امرأة العزيز ستراً لها ولزوجها، فقد أحسنا إليه وهو في دارهما، وإنما ذكر النسوة

---

(1) مسند أحمد: (14/ 121)، برقم: (8392)، الأدب المفرد للبخاري: (ص: 312)، برقم: (605)، وإسناده صحيح.

كلهن، ومن خلالهن ستظهر براءته مما اتُهم به وسُجن بسببه.

وقولــــه: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾، فذهب الرسول إلى الملك وأخبره بخبر يوسف، وأنه رفض أن يخرج إلا بعد أن تتّضح براءته، فدعا الملك النسوة وجمعهن في مجلسه، ومنهن امرأة العزيز، **ثم سألهن بلفظ** "ما خطبكن" وهو يستخدم غالبًا للسؤال عن شيء عظيم وخطير، **والخطب**: الشأن المهم من حالة أو حادثة[1]، **والمقصود به هنا** المراودة ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد تضمن سؤال الملك التنزيه له حيث نسب المراودة إليهن، وعبّر بالجمع مع أن المراودة من واحدة لكي لا يحرجها[2]، أو لأنهن طلبن من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يوافق على طلب امرأة العزيز، فكأنهن راودنه معها، فأجابت النسوة بقولهن: معاذ الله أن نتهمه بشيء من ذلك، ونشهد أننا لا نعلم عنه سوءاً، فحصل على التزكية والبراءة من عموم النسوة، مما دفع امرأة العزيز إلى أن تعترف بما حصل منها معه، فقالت: الآن ظهر وبان الحق، ولا مجال لإخفائه، ثم اعترفت بأنها هي التي دعته إلى نفسها وألحت عليه بذلك، وأخبرت بأنه كان صادقًا في كل ما قال، وأنه بريء مما اتهمته به سابقًا، ثم علّلت اعترافها لكي يعلم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنها برأته وهو غائب عنها، فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه في مجلس الملك، كونه ما

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (12/ 290).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 46).

زال في السجن[1]، **وقيل:** إن الضمير يعود إلى زوجها، لكي يعلم أنها لم تخنه بالفاحشة وهو غائبٌ عنها، وإن الذي حصل كان مجرد مراودة لم تتم، لأن يوسف اعتصم بالله وامتنع عن ذلك[2].

ثم ختمت الآية ببيان أن الخائن لا يُكتب له التوفيق، بل يضل وينحرف عن الصواب بسبب خيانته، لأن سنة الله جرت على ذلك، فالأمانة سبب للهداية، والخيانة سبب للغواية.

وقوله: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾، **والظاهر** أن هذا من كلام امرأة العزيز، لأن الأصل اتحاد الضمائر المتتابعة، والكلام متسق مع ما سبق من اعترافها بالمراودة، **والمعنى:** وما أبرئ نفسي من محاولة الوقوع في ذلك الإثم؛ لأن النفس ضعيفة الإيمان، أمارة بالسوء، وقد أمرتني نفسي بالمراودة، و"إلا" استثناء للزمن، **أي:** أن النفس أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت رحمة الله بها، فيعصمها الله من ذلك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعًا، **أي:** ولكن رحمة ربى هي التي تصرف النفس عن الإساءة[3]، وذيّلت الآية بأن الله غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي إذا تاب وأناب، ورحيم به حيث يقبل توبته، ويوفقه للأعمال الصالحة، وقد جعل بعض المفسرين هذه الأقوال من كلام يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[4]، **والصواب** أن ذلك

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 42).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 394).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 480).

(4) ينظر: المصدر السابق: (2/ 479).

من قول امرأة العزيز[1]، **واستشكل البعض** كيف يكون هذا الكلام لامرأة العزيز، وكانت من قوم يعبدون غير الله، **والجواب:** قد يكون الأمر كذلك، ولكن عند التفكر السليم وسماع الوعظ فإن العقل يعود إلى رشده ويقول مثل هذه المعاني، ولو كان صاحبه مشركًا.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾، وبعد أن سمع الملك شهادة النسوة ببراءة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، طلب من حاشيته أن يأتوه به، ليجعله خالصًا له ومقربًا منه، **والسين والتاء في "أستخلصه"** للمبالغة، فأتوه به مكرمًا محترمًا، واستمع منه إلى تفاصيل تعبير الرؤيا من لسانه، حيث عبّرها له بأسلوبٍ حكيم وألفاظ سلسة وعباراتٍ طيبة؛ فأُعجب به الملك أكثر، وقال له الملك حينها: من الآن أنت لدينا صاحب مكانة ومُؤتمن على كل شيء نكلفك به، فأخبره يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنكم ستواجهون أزمة اقتصادية خلال السنوات القادمة، وتحتاجون إلى شخص يفهم إدارة هذه الأزمة، وأجد نفسي بما أعطاني الله من قدرات وإمكانيات قادراً على تحمل هذه المسؤولية، فطلب من الملك أن يجعله وزيراً للخزانة في مملكته في أرض مصر، وهي تشمل رعاية وإدارة الأموال والأقوات وإنفاقها، ليتوصل به إلى إقامة الحق وبسط العدل بين الناس، وليس لغرض شخصي[2]، ثم وصف نفسه بأنه قادر على حفظ الأمانة، ولديه

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 400).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 8).

العلم والخبرة والمهارة في ذلك العمل، وفي الآية إشارة إلى أنه يجوز للإنسان أن يعرض قدراته ومهاراته لتوليته عملاً عاماً إذا رأى أنه أحسن الموجودين وكان في ذلك منفعة للأمة، فالمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، وأن النهي الوارد في طلب الإمارة في الحديث(1) محمول على من يكون دافعه لذلك تحقيق حظوظ النفس.

وفي الآية إشارة إلى بيان أن الموظف الناجح هو من جمع بين الأمانة والعلم والمهارة والخبرة العملية.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾، وكما تفضلنا عليه بإخراجه من السجن؛ فقد جعلناه ذا مكانة في أرض مصر أينما نزل منها، لا يمنعه مانع؛ لأنه صار في مرتبة نائب الحاكم فيها، وذلك كله من رحمة الله به فإنه يُعطي ويمنح رحمته لمن يشاء من عباده، ومن عادة الله في خلقه أنه لا يضيع أجر المحسنين منهم في الدنيا، فإن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان من المتصفين بالإحسان في كل أحواله، ولذلك جازاه الله على إحسانه في الدنيا بالتمكين في الأرض، إضافة إلى ما ينتظره من جزاء عظيم في الآخرة، وبيّن أن أجر الآخرة خير من أجر الدنيا مهما كان عظيماً، وفي ذلك موعظة للناس أن لا ينظروا فقط إلى ما حصل عليه يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من مكانة ومنصب ووجاهة في الدنيا بعد أن كان رقيقاً مسجوناً، بل ينظروا إلى عظم الأجر الأخروي الذي

---

(1) ينظر: صحيح البخاري: (8/ 127)، برقم: (6622).

أعده الله للمتقين في الجنة، فهو خير وأبقى من كل أجور الدنيا، وهو خاص بالمؤمن المتقي، بينما أجر الدنيا ومكانتها لا علاقة لها بالإيمان والتقوى، فإن الله يُعطي الدنيا من أحب ومن لا يحب، من مؤمن وكافر.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- من ألطاف الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الآيات؛ رؤيا الملك التي كان تأويلها سبباً لخروجه من السجن، والتمكين له في الأرض.

2- بيان أهمية أن يحرص المسلم على سمعته، مهما تعرض للابتلاء، فقد رفض يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يخرج من السجن، رغم طول مدة سجنه، قبل إعلان براءته.

3- بيان أن الخائن لا يُكتب له التوفيق، بل يضل وينحرف عن الصواب بسبب خيانته.

4- جواز أن يعرض الإنسان قدراته ومهاراته لتوليته عملاً عاماً إذا رأى أنه أحسن الموجودين وكان في ذلك منفعة للأمة.

5- بيان أن الموظف الناجح هو من جمع بين الأمانة والعلم والمهارة والخبرة العملية.

6- بيان أن الأجر الذي أعده الله للمتقين في الجنة هو خير وأبقى من كل أجور الدنيا.

تفسير المقطع الخامس من سورة يوسف

۞ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم
بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن
لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾
وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ
يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا
نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ
مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ
رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا
وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا
مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن
شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ
حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ
قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ
عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾، فلما أصاب الناس القحط بعد سبع سنوات من رؤيا الملك، أخبر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أبناءه بأن في مصر ملكـًا عادلاً، وأنه يبيع للناس الأقوات، وكان يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأولاده يسكنون في الشام، فنصحهم أن يذهبوا إليه ويشتروا لهم طعامـًا منه، فذهبوا إلى مصر في السنة الثانية من القحط[1]، ودخلوا على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلما دخلوا عليه عرف بأنهم إخوانه؛ لأنهم كانوا كباراً عند فراقه لهم، والشخص الكبير قلّ أن تتغير ملامحه، وهم لم يعرفوه؛ لأنهم فارقوه صغيراً، فلما كبر تغيرت ملامحه كثيراً، وما توقعوا أن يصير في هذه المنزلة والمنصب[2]، فسألهم بعض الأسئلة، مثل: من أنتم؟ وما الذي أتى بكم؟! قالوا: نحن إخوة، وأبونا يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان عددنا اثني عشر، هلك واحد منا في البرية، وتركنا عند أبينا أخانا الصغير ليُؤنسه؛ لأنه ما زال حزينـًا على أخينا الذي هلك، وجئنا إلى

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 12).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 740).

مصر لنطلب الطعام لأهلنا[1].

وقولــــه: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾، فلما أعطاهم ما طلبوا من الطعام، **والجهاز**: ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل[2]، **اشترط عليهم** أن يأتوا بأخيهم الصغير في المرة القادمة معهم، وهو بنيامين أخو يوسف من أمه، وشجعهم على ذلك بأنه لا يبخس الناس حقوقهم، بل يمنحهم ويعطيهم فوق حقهم[3]، وأنه خير من استضاف الضيوف النازلين عليه، وكان قد أنزلهم عنده وأكرم ضيافتهم، ثم حذرهم من التساهل بتنفيذ طلبه، وأنهم سيكونون ممنوعين من دخول مصر مرة أخرى لشراء الطعام منها في حال عدم مجيئهم بأخيهم معهم، وقد كان يعطي لكل شخص يبتاع الطعام حمل بعير منه فقط، وهذا يعني أنهم سيحتاجون للطعام مرة أخرى حين ينفد ما عندهم منه.

وقولــه: ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾، **فقــالوا لــه**: سنجتهد في طلب مرافقة أخينا لنا من أبينا ونُلح ونكرر عليه الطلب، ولن نقصر في ذلك، بل سنحرص على تحقيقه.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 161).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 258).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 13).

وقولـــه: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ثم أمرهم أن يذهبوا إلى مكان إقامتهم ليرتاحوا، وأمر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عماله وغلمانه الذين يعملون معه في خزائن المال بأن يردوا بضاعتهم التي جاءوا بها ليشتروا بها الطعام ويُدخلوها في أوعيتهم مع الطعام الذي باعه لهم دون أن يشعروا بهم، وذلك لأنهم لا يعلمون برد البضاعة إليهم إلا عند تفريغ الأوعية التي جعلوا فيها الطعام، وهم لا يفرغونها إلا عند الوصول إلى أهلهم، وقد كانت بضاعتهم من النعال والجلود[1]، **والهدف من إرجاع البضاعة لإخوته** لكي يرغبهم ويشجعهم على الرجوع إليه مرة أخرى؛ حين يشعرون أنه أكرمهم ولم يأخذ منهم قيمة الطعام الذي أعطاهم، أو أنه فعل ذلك لعلمه بأن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة نفياً للغلط ولا يستحلون إمساكها[2] بدون ثمن، وسيكون هذا سبباً لعودتهم إليه مرة أخرى.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾، فلما رجع إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ديارهم؛ قصّوا على أبيهم ما حدث لهم في مصر، وأن عزيز مصر أكرمهم وأوفى لهم كيل الطعام وزادهم منه، ولكنه شرط عليهم أنه لن يبيع لهم الطعام مرة أخرى حتى يأتوا بأخيهم بنيامين معهم في رحلتهم القادمة إليه؛ ليتأكد من صدق خبرهم الذي حدثوه به حين قابلهم أول مرة، فطلبوا من أبيهم الموافقة على إرساله معهم، لكي

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 45).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (2/ 501).

يوفوا بشرط عزيز مصر ويكونوا صادقين معه من أجل أن يبيع لهم الطعام مرة أخرى، ولأنهم يعرفون أن والدهم مفزوع مما حصل منهم مع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سابقًا، فقد أكدوا له بأنهم سيحفظون أخاهم ولن يضيعوه أبداً.

وقولـــــه: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾، **فرد عليهم والدهم:** كيف آمنكم عليه، وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم من قبل؟! رغم أنكم تعهدتم لي آنذاك بالمحافظة عليه! فوعدكم بالحفظ له لا يُطمئنني، ولكني أطمئن إلى حفظ الله تعالى له، فهو خير الحافظين، وهو سبحانه أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي وحزني على ولدي.

وقولـــــه: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾، **والظاهر من القصة** أنهم تحدثوا مع أبيهم فور وصولهم، وقبل أن يفتحوا أوعية الطعام الذي جاءوا به، ولم يكونوا قد علموا بأن بضاعتهم قد أُرجعت إلى رحالهم سراً، فلما فتحوا أوعية الطعام وجدوا بضاعتهم التي ذهبوا بها من الشام ليبيعوها في مصر قد أرجعت لهم داخل أوعية الطعام، فاستغربوا من ذلك، وفرحوا بما رأوا، **وقالوا:** أي شيء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان برد البضاعة والإكرام عند القدوم إليه، وتوفير ما أردناه من الطعام[1]؟، **والاستفهام** إنكاري تعجبي!، **أي:** لنستعين بهذه البضاعة

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 47).

على الرجوع إليه مرة أخرى، ونجلب الطعام لأهلنا، ونعدك بحفظ أخانا بنيامين من أن يصيبه شر أو مكروه، ونزداد بسببه إرساله حمل بعير من الطعام زائد على ما جئنا به في المرة السابقة؛ لأن عزيز مصر كان يُعطي لكل شخص حضر إليه حمل بعير من الطعام، ثم وصفوا الحصول على الطعام بأنه لا مشقة فيه، فتعامل عزيز مصر معهم كان حسنًا، والسفر إليه سهل ميسر.!

وقوله: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾، ولما ألحوا عليه في الطلب؛ رضخ لهم ووافق على إرسال ولده معهم بشرط أن يحلفوا له يمينًا بالله جَلَّ وَعَلَا أن يرجعوا به ولا يفرطوا فيه إلا أن يحيط بهم عدو فيهلكوا جميعًا، فيكون ذلك عذراً لهم عنده[1]، **فلما حلفوا له بالله وأقسموا يمينًا** بأنهم لن يُضيعوه ولن يفرطوا فيه، **قال لهم**: الله شهيد عليكم، وهو المعاقب لمن خان العهد أو فجر في اليمين، فاحذروا من ذلك.!

وقوله: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾، فلما اتفق معهم على أن يسمح لأخيهم بالخروج معهم نصحهم أن لا يدخلوا المدينة التي يقصدونها مجتمعين من باب واحد لها، وإنما يدخلوا إليها متفرقين من عدة أبواب، وذلك حرصًا عليهم من أن تصيبهم عين حاسد فتُؤذيهم، **وفي**

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 540).

الحديث: "**العين حق**"[1]، ثم أخبرهم أن هذا من الأخذ بالأسباب، والأمر بيد الله، فإذا كتب الله عليهم شراً من عين ونحوها؛ فلن يرد قضاء الله وقدره بتدبيره هذا، بل ما قضاه الله فهو واقع لا محالة، والحكم في الكون كله لله وحده لا يشاركه فيه مشارك، ثم فوض أمره إليه وحده لا شريك له، وعليه فليتوكل جميع المتوكلين، ومنهم أولاده، فجمع لهم في نصيحته بين الأخذ بالأسباب المادية، والتوكل والاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه، فإن الأخذ بالأسباب لا يتعارض مع التوكل على الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾، ولما نفذوا وصية والدهم وتوزعوا في أبواب المدينة ودخلوا منها متفرقين، وما كان فعلهم هذا ليدفع عنهم قضاءً قد قضاه الله عليهم، والاستثناء هنا منقطع، **ومعناه**: ولكن لشفقته عليهم من العين أمرهم بذلك[2]، ومن أجل أن يذهب الحزازة عن نفسه بحيث لو أُصيبوا بشيءٍ؛ لا يندم على عدم نصحه لهم، **وهذه هي فائدة الأخذ بالأسباب عمومًا**، فأحيانًا قد نأخذ بالسبب ويأتينا القدر لا محالة؛ لأن قدر الله المبرم النافذ لا ترده الأسباب، وقد يرد الأخذ بالأسباب القدر المعلق، والعبد مأمور بفعل ما أمره الله من الأسباب

---

(1) صحيح البخاري: (7/ 132)، برقم: (5740).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 742).

وإن كان يعلم أن المقدور كائن لا محالة[1]، **والفائدة من الأخذ بالأسباب** ذهاب حسرة النفس، ويورثها الاطمئنان، **وتقول:** قدر الله وما شاء فعل[2]، ثم أثنى الله على يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه صاحب حفظ وإتقان وعمل بالعلم الذي علّمه الله[3]، فثمرة العلم العمل، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما يعلمه يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من العلم[4] وأهمية الأخذ بالأسباب مع كمال التوكل على الله.

وقوله: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾، ولما ذهبوا بأخيهم معهم إلى مصر، والتقوا بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مكان عمله؛ أكرمهم وأمر صاحب ضيافته أن يسكن كل اثنين مع بعض، فتوزعوا خمس مجموعات وبقي بنيامين وحده، فضمه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إليه، وأنزله معه[5]، واختلى به دون إخوانه، ثم أسرّ إليه بأنه أخوه يوسف، وأمره أن لا يعلمهم بذلك، ونصحه بأن لا يحزن من تعاملهم معه وأذيتهم له فيما مضى[6]؛ لأن مثل ذلك قد يقع أحيانًا بين الإخوة غير الأشقاء بسبب الغيرة الموجودة بين أمهاتهم.

---

(1) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية: (8/ 528).

(2) ينظر الحديث في: صحيح مسلم: (4/ 2052)، برقم: (2664).

(3) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 456).

(4) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 542).

(5) ينظر: تفسير القرطبي: (9/ 229).

(6) ينظر: تفسير الطبري: (16/ 170).

وقولـــه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾، فلما أعطاهم ما يريدون من الطعام ووضعوا أمتعتهم في رحالهم، لأن الغالب أن المسافرين يستعدون للسفر في الليل لينطلقوا في سفرهم مع الفجر، فلما ذهبوا للنوم وتركوا الأمتعة في مكانها، أمر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فتيانه أن يأخذوا الإناء الذي كان يشرب به الملك، وكان من فضة أو من ذهب أو غيرها من الأواني الغالية النفيسة، وكان يستخدمه للكيل به، فالسقاية والصواع اسم لإناء واحد(1)، فيضعونه في الأمتعة التي على جمل أخيه بنيامين، دون أن يعلم بذلك أحد، فأصبح القوم فتحركوا بقافلتهم راجعين إلى الشام، فلما قطعوا مسافة من الطريق؛ لحقهم بهم فتيان الملك ونادوا فيهم يا أصحاب الإبل المسافرة، توقفوا إنكم لسارقون، وسبب اتهامهم لهم بالسرقة أنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يوجد أحد غيرهم حين فقدوها، فغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها(2)، فتوقفوا منزعجين من الاتهام، وأقبلوا بوجوههم عليهم، **وقالوا لمن صاح فيهم:** ما هو الشيء الذي فُقد منكم وضاع عليكم؟، **وفي ذلك إرشادٌ** لهم إلى مراعاة حسن الأدب مع الآخرين، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة بدون دليل.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾، **ففهموا الإرشاد وأجابوهم بعبارة ألطف، فقالوا:** فُقد منا صواع الملك، وهو

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 264).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 543).

الوعاء الذي كان يشرب به أحيانـًا، ويكيل للناس الطعام به للناس، فمن وجده وأتى به أو دلّنا على مكانه من تلقاء نفسه قبل التفتيش للأمتعة؛ فسوف نُعطيه حِمل بعير من الطعام جائزة له، ثم أخبر المنادي لهم بأنه كفيل وضامن بالجائزة لمستحقها[1]، ترغيبـًا وتشجيعـًا لهم على إظهار المفقود بدون تفتيش لهم.!

وقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾، فأقسموا لهم بالله، أنهم يعلمون بأنهم أبرياء، وليس لنا نية في الفساد في أرضكم، وما نقع في السرقة من قبل، قالوا لهم ذلك؛ لأنهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم، وكانوا إذا دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم حتى لا تتناول شيئـًا من زروع الناس[2].

وقوله: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾، **فقالوا لهم:** لو فتشنا متاعكم ووجدناه مع أحدكم وتبيّن كذبكم بنفي وجوده معكم، **فما العقوبة التي يستحقها؟!**. **قالوا:** في شريعتنا أن السارق ظالم لنفسه ولصاحب المال، وجزاؤه أن يكون رقيقـًا وعبداً له لمدة عام، فوافق على ذلك، فطلبوا منهم أن يحكموا على السارق بحكمهم، لأن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان يعلم أن جزاء السارق في شريعة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تختلف عن شريعة أهل مصر، ففي شريعة أهل مصر

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 50).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 261).

أن السارق يُضرب ويُؤخذ منه ضعف قيمة ما سرق[1]، ولكنه أراد بهذه الحيلة أن يتوصل إلى أخذ أخيه وإبقائه عنده، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة[2].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان اهتمام يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بإدارة شؤون المال بعد أن تولى مسؤوليته.

2- حرصه على مجيء أخيه إليه، فجعل ذلك شرطًا لبيع إخوانه الطعام مرة أخرى.

3- بيان أن الأخذ بالأسباب لا يتعارض مع التوكل على الله سبحانه.

4- أهمية مراعاة حسن الأدب مع الآخرين، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى التهمة بدون دليل.

5- أن ما فعله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لإبقاء أخيه عنده من الكيد الجائز لما فيه من المصلحة.

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 743).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 401).

تفسير المقطع السادس من سورة يوسف

﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا
لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ
وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ
فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا
نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا
لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ
يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ
ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ
ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ
أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾
وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ
تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾
قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾، سبق في تفسير المقطع السابق أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر فتيانه أن يضعوا صُواع الملك داخل أمتعة إخوانه بعد أن ذهبوا إلى مكان راحتهم ونومهم، وهذا الفعل منه هو من الكيد، أذن الله ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ به لمصلحة عُظمى، وهي أن يُبقي أخاه الذي فرقوا بينه وبينه عنده، ولكي يلحق به أبوه وإخوانه بعد ذلك، فلما أنكروا أنهم لم يأخذوه، كان لا بد من التفتيش والبحث عنه في أمتعتهم، وذلك بعد أن اتفقوا معهم على أن يكون عقوبة من وجد الصواع في أمتعته وفقًا لشريعتهم وليس بشريعة أهل مصر، وحتى يبعد التهمة عن نفسه، ولا تكتشف الخطة، لم يبدأ بتفتيش متاع أخيه، بل بدأ بتفتيش أمتعتهم، وأشعرهم باليأس حين جاء إلى تفتيش أمتعة أخيه، فقال: ما أظن أن هذا يفعل شيئًا، فألحوا عليه أن يفتش متاعه، ففتّشه فوجد فيه الصواع، فأخرجه منه فتفاجأوا بذلك، والكاف للتشبيه، أي: ومثل ذلك الكيد ألهمنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيسرنا له هذا الفعل وهو معاقبة السارق بشريعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليتوصل بذلك إلى إبقاء أخيه لديه بإقرار منهم، وما كان له أن يفعل ذلك إلا بعد أن أذن الله له به، وما كان ليحاسبه وفقًا لشريعة وقوانين مصر، لأنها لا تسمح بتمليك السارق لصاحب المال، ولو لم يكن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عنده علم بالشرائع ولديه مهارات في حل المشكلات لما فعل ذلك، لذلك رفعه الله درجات بهذا العلم الذي منحه له، وبالعلم يرفع الله منازل مَن

يشاء في الدنيا، ثم بيّن أنه يوجد في الخلق من هو أعلم منه، وأن علم الله تعالى فوق علمهم جميعًا![1]، **وفي الآية إشارة** إلى تفاوت الناس في مراتب العلم.

وقوله: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾، فلما فُوجئ إخوة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بما رأوا لم يدافعوا عنه، بل شمتوا به وبأخيه، وبرأوا أنفسهم من تلك التهمة، وادعوا أن هذا الصفة موجودة في أخيه الذي هلك في البرية، ويقصدون يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكان هذا الكلام منهم بحضوره وفي مجلس حكمه، ولم يكونوا يعلمون أنه يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فلما سمع قولهم فيه، **قال في نفسه:** ما أنتم عليه من أخلاق سيئة وتعامل قبيح معنا أسوأ منزلة ممن رميتموه بالسرقة[2]، ولم يقل هذه العبارة صراحة في وجوههم لحسن أدبه وأخلاقه، ثم شكك في صدق قولهم هذا، فخاطبهم بأن الله أعلم بما تفترون عليه.

وقوله: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾، ثم خاطبوه بما يليق بالأكابر ليرق لهم، واستخدموا معه الأسلوب العاطفي، فأخبروه بأن أبا هذا شيخ كبير في سنه وقدره وهو مغرم به، ويحتاج إليه، فاستبدل أحدنا مكانه واتركه يرجع إلى أبيه، فقد رأيناك في كل أعمالك تُحسن إلى الناس وتُراعي ظروفهم وتعطف عليهم.!

(1) ينظر: تفسير الطبري: (16/ 192).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 546).

وقولـــــه: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾، فرد عليهم يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ برفض طلبهم، واستعاذ بالله من الظلم، فكيف يسترق شخصاً بريئاً، وكان دقيقاً في وصف الواقعة، **فعبّر بلفظ:** "وجدنا متاعنا عنده"، ولم يقل عنه أنه سرقه؛ لأنه لم يسرق في الواقع، بل وضعت السقاية في رحله من دون علمه، ثم بيّن لهم أنه لو أخذ واحداً بدلاً عنه فسيكون قد عاقب بريئاً بذنب غيره، وهذا من الظلم الذي لا يجوز له فعله.

وقوله: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾، فلما يئسوا من استجابة يوسف لطلبهم، اعتزلوا الناس وانفردوا عن غيرهم ليتشاوروا فيما بينهم سراً[1] في حل هذه المشكلة التي حصلت لهم، فتكلم كبيرهم، وهو أكبرهم سناً وأرشدهم عقلاً، وهو الذي نهاهم عن قتله سابقاً[2]، فقال: تعلمون أننا قد عاهدنا والدنا بعدم التفريط بأخينا بنيامين ولا نُضيّعه، وقد سبق أن أخذ علينا عهداً من قبل ذلك في المحافظة على أخينا يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ففرطنا فيه ولم نحافظ عليه، فلن أخرج من أرض مِصر، ولن أعود معكم إلى الشام، فارجعوا أنتم وأخبروا والدنا بما حصل، فإن أذن لي رجعت، وإن لم يأذن لي بقيت هنا حتى أموت أو يحكم الله لي ويوفقني لاستنقاذ أخي والرجوع به، فإن الله هو أعدل من حكم

(1) ينظر: غريب القرآن: (ص: 189).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 547).

وفصل بين الناس[1].

وقوله: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾، **ثم أمرهم أخوهم الكبير** بالرجوع إلى أبيهم يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في الشام لكي يبلغوه ما حصل لهم، ليكون لهم عذراً عنده، فرجعوا إلى أبيهم فأخبروه بأن ابنه بنيامين قد سرق صواع الملك، وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بعد أن تَيَقَّنَّا حصول ذلك منه، فقد فتشوا رحله وأخرجوا المكيال منه ونحن نشاهد، وما كنا نعلم الغيب حين عاهدناك على رده بأنه لن يقع منه السرقة[2]، وقد علم بسرقته الناس، فإن شئت أرسل من يسأل أهل المدينة التي كنا فيها بمصر، وأرسل من يسأل القافلة التي كانت مسافرة معنا فقد كانوا حاضرين وستعلم منهم ما وقع لابنك، وسيتضح لك من جوابهم لك أننا صادقون فيما أخبرناك به!.

وقوله: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣﴾، فلما سمع منهم يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هذا الخبر اشتد حزنه وتضاعف كمده، واتهمهم في هذه القضية، كما اتهمهم في القضية الأولى، وعاد خاطره إلى ما حصل ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من قبل، وتذكر أنهم أصحاب مكر وكذب وخيانة، **فرد عليهم بقوله:** بل زينت لكم أنفسكم

(1) ينظر: تفسير البغوي: (2/ 508).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 495).

أمراً، وهو حمل أخيكم معكم إلى مصر لطلب نفع عاجل فحصل لـه ما حصل(1)، فشأني صبر جميل، **والصبر الجميل هو** الذي لا شكوى فيه لغير الله(2)، ثم رجى من الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يُعيد له أولاده الثلاثة، فإن الله هو العليم المحيط علماً بكل شيء، والحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، فليس في أفعاله ولا تقديره خلل ولا خطأ، بل كلها لحكمة بالغة.

وقولـه: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ ﴾، وأعرض عنهم، واختلى بنفسه، وذلك أنه لما بلغه خبر بنيامين تجددت مصيبته في يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وبدأ يتذكر ما جرى له ويتأسف ويحزن لغيابه، ويبكي على فراقه حتى فقد بصره وانطمس نوره وانقلب سواد عينيه بياضاً(3) من كثرة البكاء الذي هو ثمرة لشدة حزنه عليه، حتى صار قلبه مملوءاً بالحزن وهو ممسك عليه لم يبثه، بل كان يكتمه ولا يرسله بالشكوى لأحد من الخلق(4).

وقولـه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾، **فلما سمعه من حوله يذكر يوسف ويتأسف عليه، أنكروا عليه ذلك، وقالوا له:** لا تزال تذكر يوسف، ولا تفتر عن حبه، رغم طول المدة، ونخشى عليك بسبب ذلك فساد جسمك وذهاب عقلك، والحرض الفاسد في

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 548).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 57).

(3) ينظر: المصدر السابق.

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 272).

جسمه وأخلاقه[1]، أو يصيبك الموت فتهلك، وغرضهم من هذا القول هو منعه من البكاء والحزن شفقة عليه، لأنه يذكر أمراً لا طمع في تداركه.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾، **فقال لهم يعقوب** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: أنا لا أشكو همي إليكم، وإننا أشكو إلى الله وحده، وهو قادر على إجابتي والشكوى إلى الله لا يُخرج الصبر عن أن يكون جميلاً، وإني أعلم من إحسان الله تعالى إليّ ما يوجب حسن ظني به، **وقيل**: إن العلم الذي كان يعلمه من الله بوحي هو تفسير الرؤيا التي رآها يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقصّها عليه، وأنها لا بد تتحقق، وأن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يهلك.

وفي الآية إشارة إلى أهمية التعلق بالله وشكوى الضر إليه لا إلى الخلق، واليقين التام بأن الفرج بيده، فهو مفرّج الكربات فتوكل عليه وفوض أمرك إليه، وانتظر الإجابة منه.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان جواز الحيلة التي يُتوصل بها إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل.

2- بيان جواز إعلان مكافئة معلومة موصوفة لمن وجد الضالة.

3- أن من أخلاق الكبار التغافل عما يُقال فيهم من شر.

4- عدم جواز أخذ بريء بجريرة وذنب غيره.

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 126).

5- أهمية وفضل الصبر الجميل، وهو الذي لا شكوى فيه إلا لله.

6- بيان أن الحزن الشديد يُؤثر على الحالة النفسية والصحة الجسدية للإنسان.

7- بيان أن كثرة البكاء يُسبب ضعفًا أو فساداً للنظر.

8- بيان فضيلة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وحسن ظنه بالله.

تفسير المقطع السابع من سورة يوسف

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا
يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا
ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ
هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ
قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا
لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي
بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ
أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ
وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا
ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾
وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا
رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ

ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ **ثم خاطب يعقوب** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أولاده بوصف البنوة من باب التلطف بهم، ليكون أبعث على الامتثال له، وأمرهم بالعودة إلى مصر ومحاولة البحث عن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأخيه بنيامين، والاجتهاد في التفتيش عنهما لعلكم أن تجدوهما، **والتحسس:** طلب الشيء بالحواس[1] الظاهرة، وغالباً يكون في الخير أو لدفع ضرر، بخلاف التجسس، وهو التفتيش الدقيق عن عورات الآخرين أو أسرارهم، وغالباً يكون في الشر، ونهاهم عن اليأس من رحمة الله وفرجه وتنفيسه؛ لأن اليأس من الشيء يسبب التثاقل والتباطؤ في البحث عنه، وهذا يدل على أن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عنده علم بأن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حيّ، ولم يذكر الابن الثالث؛ لأنه لم يفقد أو يُسجن، بل جلس في مصر بمحض إرادته، أو لضعف تعلقه به، ولأن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأخاه كانا أحب إليه[2]، ثم بيّن لهم أن المؤمن يجب أن تكون ثقته بربه عظيمة، وأمله بالله كبيراً، بخلاف الكافر الجاحد الذي يفقد ثقته بالله وأمله فيما عنده، فلا تتشبهوا به.

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 59).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 747).

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾، فنفذوا أمر أبيهم وذهبوا إلى مصر مرة أخرى، ودخلوا على عزيز مصر في مكان عمله، وخاطبوه بلقبه الذي يشعر بالتكريم والاحترام له، وشرحوا له حالهم، وأنه قد أصابهم الضُر وهو الجوع والفقر والحاجة بسبب الجدب الذي أصاب الناس في تلك السنوات، هم ومن يتولون أمرهم من أقاربهم، وأخبروه بأنهم قد أتوا من الشام ببضاعة رديئة وقليلة لا قيمة لها، لأنها كانت غير مرغوبة، وهي الجلود والنعال، وقلّ أن يشتريها الناس منهم، ولا تُنفق سريعًا، التزجية الشيء القليل الذي يدافع به[1]، **ثم طلبوا منه** أن يعطيهم بهذه البضاعة التي معهم كيلاً وافيًا، وأن يسامحهم ويغض طرفه عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها[2]، **وقيل**: إن ذلك تلميحٌ منهم بأن يفك أخاهم المحبوس لديه، وأخبروه بجزاء الله لعموم المتصدقين؛ ولم يخصوه مباشرة بالخطاب؛ لأنهم لم يعرفوه وكانوا يظنونه كافراً، فظنوا أنه على دين أهل مصر[3].

وقوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾، فلما سمع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلامهم واستعطافهم له؛ رقَّ لحالهم وسألهم سؤال توبيخ على ما يعلمونه محققاً من أفعالهم القبيحة مع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ،

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 127).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 60).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 747).

وتعاملهم السيء مع أخيه بنيامين، وهو استفهام يفيد تعظيم أمر هذه الأفعال منهم، فتفاجأوا بهذا السؤال، ثم اعتذر لهم أن أفعالهم القبيحة كانت بسبب جهلهم بعواقب ذلك الفعل، وكانت في حالة من السفه والطيش[1]، **وفي ذلك إشارة إلى** أنه كان قد صلُح حالُهم، وتوسّم فيهم التوبة من ذلك.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾، **فتفاجأوا بذلك وسألوه:** هل أنت يوسف؟! **فقال:** نعم، أنا يوسف، وهذا أخي بنيامين، قد منّ الله علينا، وأطلق أنواع المِنة والفضل لكثرتها، لتشمل كل خير في الدنيا والآخرة، **ثم علّل ذلك** بأنه جزاء لكل من اتقى غضب الله وسخطه وابتعد عن أسبابه، وصبر على الابتلاءات التي تصيبه، ومن فعل ذلك كان من المحسنين الذين لا يضيع جزاؤهم وثوابهم عند الله، **وفي هذا إشارة إلى** استحباب الداعية استغلال الحدث بالوعظ والإرشاد، بطريقة التلميح لا التصريح فهي مفيدة ومقبولة غالبًا؛ لأن بعض النفوس لا تقبل النصائح المباشرة.!

وقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾، فأقروا له بالتفضيل، **وأن الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قد فضّله عليهم بهذه النعم والأخلاق الفاضلة، من التقوى والصبر والإحسان ونحوها، وهو اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره، ثم اعترفوا بأنهم أخطأوا في حقه ووقعوا في الخطيئة والإثم بسبب ظلمهم وأذيتهم له.

---

(1) ينظر: تفسير النسفي (2/ 131).

وقوله: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾، **فسامحهم وعفا عنهم وقال:** اليوم لا لوم ولا تقريع ولا توبيخ على أفعالكم السابقة، ودعا الله لهم بالمغفرة، وهي محو عقوبة الذنب والسيئة التي فعلوها في حقه، فإن الله يرحم من استغفره وتاب إليه سبحانه.

وقوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾، ثم أعطاهم قميصه الذي كان يلبسه وأشار لهم إليه ليعرفوه، ليذهبوا به إلى أبيه ليكون علامة على أنه حي، وكان قد لبسه وبقيت آثار من عرقه فيه، وأمرهم أن يضعوه ملامساً لوجه أبيه بحيث يغطيه ويشم رائحته، ليعود إليه بصره، فإنه كان قد عَميَ، وعودة البصر بسبب ملامسة الثوب وشمه؛ هذه خارقة من خوارق العادات أعطاها الله ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا يُقاس عليه غيره، وإخبار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا كان بوحي من الله، فإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يعلم الغيب(1)، **ثم طلب منهم** أن ينتقل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وجميع من شمله لفظ الأهل من النساء والذراري، من الشام إلى مصر ليسكنوا فيها ويستقروا بها، وكانوا نحو سبعين شخصاً(2)، ففرحوا بهذا ورجعوا إلى الشام.

وقوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾، فلما خرجوا بالقافلة باتجاه الشام وابتعدت عن المدينة التي كانوا فيها؛ وصلت رائحة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ التي

(1) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 241).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني (3/ 63)

في قميصه إلى يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فشمهما، **وقال لهم:** لقد شممت الآن ريح يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لولا أن تسفهوني وتسخروا مني، وتزعموا أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور، وستقولون عني أنني رجلٌ قد أصابه الَخرف، وهو التخليط في الكلام[1]، **فقال الحاضرون عنده من أهله:** والله إنك لفي شقائك القديم بما تكابد من الأحزان على يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وذهابك عن الصواب بسبب إفراطك في حبه[2]، بالرغم من ضياعه منذ زمن طويل ولم تنسه.!

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦﴾، فلما وصل إليهم البشير، وهو الشخص الذي حمل القميص من مصر إلى الشام، وهو أخوه الذي أتى بقميصه حين ألقوه في الجُب، وجاء به إلى أبيه ليفجعه بهلاكه، فأصر على أن يكون هو من يحمل قميصه إليه ليبشره بحياته[3]، فألقى القميص على وجه أبيه، فلما رفع الثوب عن وجهه عاد له بصره، وعادت إليه قوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم، وسروره بعد الحزن[4]، فحمد الله يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأثنى عليه، وذكرهم بصحة ما قاله لهم، وبطلان وصفهم له بالخرف والضلال القديم، وأنه يعلم من فضل الله ورحمته وكرمه ما لا يعلمونه، من أن يوسف حي، وأن الله سيرده

(1) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 190).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 134).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 76).

(4) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 276).

إليه[1]، وأن هذا لطف الله وإحسانه به.

وقولــــه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾، ثم اعترفوا بين يدي والدهم، وطلبوا منه الاستغفار لذنوبهم وخطاياهم التي ارتكبوها في حق أبيهم وأخويهم، فوعدهم بذلك، ولكنه أخّر الدعاء والاستغفار لهم إلى وقت السحر؛ لأنه أشرف الأوقات[2]، وهو وقت الاستغفار واستجابة الدعاء، وذيّلت الآية باسمي (الغفور الرحيم) تعليلاً لطلب المغفرة منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وقولــــه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾، فاستعدوا مع أهاليهم وسافروا من الشام باتجاه مصر، وكانوا حوالي سبعين شخصاً، فلما علم بهم يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تلقاهم إلى خارج مصر، فاستقبلهم جميعاً، ثم اختص والديه بالتكريم، وضمهما إلى موكبه، ونقلهما معه إلى محل سكنه، والمراد بالأبوين عند أكثر المفسرين هما أبوه وخالته، لأن أمه ماتت في ولادتها بأخيه بنيامين[3]، وأمر الباقي أن يدخلوا مصر فيستقروا ويسكنوا في أي مكان منها، آمنين إن شاء الله فيها، لا يفزعون ولا يخافون من شيء، فلم يعودوا غرباء فيها، بل هم أهل عزيز مصر، وسيجدون من أهلها كل التقدير والاحترام.!

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 410).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 555).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (2/ 515)، فتح القدير للشوكاني: (3/ 67).

وقولـه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾، فلما وصلوا مصر والتقوا به مرة أخرى في مكان عمله وانضم إليهم أخوهم بنيامين؛ قرّب أبويه منه وأجلسهما بجواره على كرسيه، تكريماً لهما، والعرش في اللغة سرير الملك[1]، وحيّاه أبواه وإخوته الأحد عشر بالسجود له، وهو سجود تشريف لا سجود عبادة، ولم يكن السجود للمخلوقين محرماً في الأمم السابقة، فقد كانوا يحيون بعضهم بعضاً بالسجود والانحناء[2]، وإنما جاء تحريمه ومنعه في دين الإسلام[3]، فلما رآهم ساجدين له؛ أخبر والده بأن هذا الذي يحصل الآن هو تأويل الرؤيا التي رآها في صغره وأخبر والده بها آنذاك، وأن الله قد صيّرها حقيقة واقعة، **وقد كانت الرؤيا رموزاً:** شمساً وقمراً وكواكب يسجدون له، فسجد له أبواه وإخوانه حقيقة، وكان بين الرؤيا وبين تأويلها أربعون عاماً[4]، **وفي ذلك إشارة إلى أن** الرؤيا قد يتأخر تأويلها في الواقع، فمن رأى رؤيا حسنة؛ فليفرح بها وينتظر خيراً، ومن رأى رؤيا سيئة؛ فليستعيذ بالله من شرها ولا يُحدث بها أحداً فإنها لن تضره، **ثم تحدث مع أبويه وإخوانه عن نعم الله عليه، فذكر بعضها، ومنها:** إخراجه من السجن بريئاً مما اتهم به، ولم يذكر إخراجَه من

(1) ينظر: لسان العرب: (5/ 2880).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 250).

(3) ينظر الحديث في: مسند أحمد: (20/ 340)، برقم: (13044)، سنن الترمذي: (4/ 372)، برقم: (2728)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (160).

(4) ينظر: تفسير الطبري: (16/ 271).

الجُب ونجاته من الموت فيه، لئلا يجرح مشاعر إخوته الحاضرين معه، وقد سبق أن عفى عنهم وسامحهم، وهذا من كمال أدبه وأخلاقه، أو لأن إخراجه من الجُب أوقعه في بلية أُخرى، وهي الرق، بينما إخراجه من السجن كان إلى سرير الملك، فهي نعمة عظيمة[1]، **ثم ذكر نعمة أخرى، وهي** نعمة لمّ الشمل للأسرة كلها، فقد جاء الله بهم من البادية، وسُميت البادية بادية؛ لأن الناس لا بيوت لهم تسترهم، فجعل الانتقال من البادية إلى المدينة نعمة، واجتمع شملهم بعد أن كان قد فرّق بينهم الشيطان بشحن نفوسهم بالحسد والغل فاختلفوا وتفرقوا، **وختم حديثه عن النعم** بذكر لطف الله سبحانه، و"**اللطيف**" اسم من أسماء الله، ومعناه الذي يُوصل النعم إلى العبد برقة وعطف ولين دون أن يشعر بها[2]، **ومن جميل لطفه بهم** حصول الاجتماع والألفة والمحبة بينهم، وطيب العيش وفراغ البال بعد أن كان ذلك عندهم في غاية البعد[3]، وقد مر معنا مجموعة من ألطاف الله به خلال الابتلاءات التي وقعت له، ولطف الله بالخلق متعلق بكمال علمه وكمال حكمته، فلا نقص ولا خلل في تدبيره لشؤون خلقه.

وقوله: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾، **ثم ختم قصته** بالدعاء والتضرع إلى ربه سبحانه، وليس بالضرورة أن يكون الدعاء وقع منه في نفس المجلس، بل قد يكون فعل ذلك في خلوته مع الله، **فنادى ربه:**

---

(1) ينظر: تفسير ابن جزي: (1/ 396).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 405).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (18/ 514).

يا رب، قد غمرتني بنعمك العظمية، **ومنها** نعمة الملك، و"مِن" هنا تبعيضية، فقد ملّكه جزءاً من ملك مصر، وعلمتني تفسير الرؤيا، وقد كان ذلك سببًا في خروجه من السجن، **ثم نادى ربه:** يا خالق السموات والأرض ومنشأها على غير مثال سابق! أنت ناصري الذي يتولاني ويرعاني ويحميني! وكل هذا الكلام توسل بين يدي الله واعتراف منه بفضله عليه، **ثم طلب من ربه** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقه حسن الخاتمة، ويُميته على الإسلام عند حضور أجله، وأن يُلحقه بالصالحين، وهم آباؤه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء السابقين، فيلحق بهم في الجنة في المكانة والأجر والثواب(1).

وفي هذا الدعاء لفتة تربوية مهمة، فقد مر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بمجموعة من الابتلاءات، منها: إلقاؤه في الجب، وابتلاؤه بالرق، وابتلاؤه بمراودة امرأة العزيز له، وابتلاؤه بدخول السجن، ولم يذكر لنا أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعا فيها، فلما جاءته نعمة الملك ذكر لنا دعاءه وتضرعه إلى الله، **وفي هذا إشعار لنا** بأن النفس البشرية تُفتن بالنعم أكثر من فتنتها بالنقم؛ لأن النفس البشرية في وقت الفتن تشعر بالتحدي، وتكون محتاجة إلى الله مقبلة عليه، بينما في وقت النعم تصاب النفس بالغفلة والإعراض عن الله، فتصاب بالفتنة، **وفي حديث عبد الرحمن بن عوف** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: "**ابتلينا مع رسول الله** ﷺ **بالضراء فصبرنا، ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر**"(2)، فلعل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خشي على نفسه من

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 68).

(2) سنن الترمذي: (4/ 223)، برقم: (2464)، وإسناده حسن.

فتنة السراء، فدعا الله أن لا يفتنه بها؛ لأن الملك والمنصب والجاه فتنة للناس، وقد فُتن به كثير من الناس إلا من رحم الله، نسأل الله تعالى أن يثبتنا وإياكم على دينه، وأن يتوفانا مسلمين، وأن يُلحقنا بالصالحين.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – بيان أن من صفات المؤمن ثقته بربه، وعدم اليأس من رحمته وفرجه.

2 – استحباب استغلال الداعية للحدث بالوعظ والإرشاد بطريقة التلميح لا التصريح؛ لأن بعض النفوس لا تقبل النصائح المباشرة.!

3 – أن عودة بصر يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بسبب ملامسة وجهه لثوب يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ خارقة من خوارق العادات، فلا يصح أن يقاس عليه غيره.

4 – أن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان يعلم أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حي، وأن الله سيرده إليه.

5 – أن الرؤيا قد يتأخر تأويلها في الواقع.

6 – أن من جميل لطف الله بيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وإخوانه؛ حصول الاجتماع والألفة والمحبة بينهم، وطيب العيش وفراغ البال لهم بعد أن كان ذلك عندهم في غاية البعد.

7 – بيان أن النفس البشرية تُفتن بالنعم أكثر من فتنتها بالنقم.

تفسير المقطع الثامن من سورة يوسف

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾
وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا
ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ
مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ
عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾، **اسم الإشارة يعود إلى ما سبق من قصة يوسف** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونحوها من أخبار الغيب التي لا يعلمها محمد ﷺ على هذا

التفصيل الذي تم ذكره، ولا يعلمها قومُه من العرب؛ لأنه لم يطّلع عليها من قبل، ولم يكن حاضراً عند وقوعها، ولم يكن موجوداً حين أجمع إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمرهم واتفقوا وعزموا على المكر به، والاحتيال لإبعاده عن والده والتخلص منه[1]، **والمكر هو** الفعل الذي يوقع الآخرين فيما يكرهون[2]، **وفي الخطاب** إشعار بالامتنان من الله على محمد ﷺ، **ودليل على** أنه رسول يُوحَى إليه من الله بالأمور الغيبية، فيجب على قومه أن يُؤمنوا به.

وقوله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾، **ورغم ما في هذه القصص والأخبار** من أدلة وبراهين وحجج تُثبت رسالتك، إلا أن أكثر المعاصرين لك من أهل مكة لم يصدقوا بك، ولم يؤمنوا بما جئت به، **وقيل**: إن هذا وصف عام للبشرية، فأكثرهم كفار[3]، مهما بذلت من جهد، واستخدمت من وسائل وأساليب لهدايتهم وإدخالهم في الإيمان، إلا أنهم لا يُؤمنون، لما سبق من علم الله باستحقاقهم للعذاب، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ، لأن هداية التوفيق ليست بيده، وأنه مهما اجتهد في الدعوة والبلاغ فلن يُؤمن إلا من وفقه الله للإيمان.

وقوله: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾، هذا بيان لمجّانية الدعوة، وخطاب توبيخ للكفار وإقامة الحجة عليهم[4]، **وتعجب من**

(1) ينظر: تفسير الخازن: (2/ 559).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 284).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 70).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 284).

كفرهم بك وأنت حريص على هدايتهم، ولا تطلب منهم أجراً على ذلك؟! **بل الواجب في حقهم** أن يسارعوا إلى الاستجابة لك، لأن الأمر ليس فيه كُلفة ولا نفقة عليهم، ثم أخبره أن هذا القرآن ليس مخصوصاً بهم وحدهم، فإذا كفروا به حزنت وتألمت عليهم، بل هو تذكرة وموعظة للعالمين أجمعين من الجن والإنس، وسوف يُؤمن به غيرهم من الخلق، وفي ذلك تطمين وتسلية للرسول ﷺ.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، وكم من علامة وحجة دالة على توحيد الله واستحقاقه للعبودية، في السموات من شمس وقمر ونجوم تسير في أفلاكها، وفي الأرض من جبالها وأشجارها ومائها وسهولها وهضابها وبحارها، وهذه الآيات مبثوثة وتراها الأعين[1]، ولكن الكفار يعرضون عن التفكر والتأمل فيها بعقولهم، ويتجاوزونها غير معتبرين بها، وخاصة العلامات الباقية من هلاك الأمم المكذبة ففيها العِظة والعبرة لمن تفكر فيها.

ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، الخطاب في المشركين، والآية عامة، فأكثر الناس لا يُؤمنون بالله إيماناً صحيحاً[2]، فبعضهم يعترف بأنه الخالق الرازق لمالك، ولكنه يشرك في ألوهيته؛ فيعبد غيره من الأوثان والأصنام وغيرها، كحال كفار مكة، وغيرهم من المشركين[3]، ويوجد قلة من

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 418).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 476).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (16/ 286).

الناس الذين يُنكرون الخالق، وهم بقايا من فلاسفة الإغريق واليونان ويُسمون بالدهريين، **وقد ألحق بعض المفسرين**[1] في معنى الآية الشرك الأصغر، كالذي يقع من بعضهم في شرك الألفاظ، مثل الحلف بغير الله وهو مؤمن بالله موحد له، والرياء، كالمنافق الذي يعمل العمل لغير الله، ولكن السياق يدل على أن الآية في الكفار المعرضين عن الإيمان.

وقولـــــه: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾، **الخطاب للكفار** المعرضين عن الإيمان بالله بعد أن رأوا الآيات والحجج والبراهين الدالة على عظمته واستحقاقه للألوهية وحده لا شريك له، **والسؤال** تعجبي من أحوالهم، **ومعناه:** كيف يُشركون بالله ويأمنون مكر الله وهم يعلمون أن الشرك مرتبط بالعقوبة والعذاب، والغاشية هي المصيبة التي تأتي من كل جهة فتغشى الشيء وتُغطيه، و"مِن" تبعيضية، لأنها جزء من عذاب الله الدنيوي، فقد يكون زلزالاً، أو قحطاً، أو قتلاً وسبياً في الحرب ونحوها، وذلك بسبب كفرهم، أو يأتيهم العذاب الأُخروي، فتأتيهم الساعة فجأة وهم مقيمون على شركهم وكفرهم بربِّهم، سواءً كانت هذه الساعة هي ساعة الإنسان الخاصة به وهي موتُه، أو الساعة العامة التي تقوم على الخلق كلهم، وهم لا يشعرون بذلك، والواو للحال، **أي:** حال كونهم بدون استعداد لها، ولا علم لهم بموعد مجيئها.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 418).

وقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾، **ثم أمر الله نبيه محمداً** ﷺ أن يخبر كفار قريش، **والخطاب** عام للناس جميعًا، ويصلح أن يكون هذا حال كل داعية بعده، فكل من التحق بركب الدعاة فلا بد أن يقول للناس ذلك، **وسبيلي:** سنتي ومنهاجي[(1)]، وهي الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله والاستقامة على شرعه ودينه وترك البدع والخرافات والخزعبلات، وأنه داعية إلى الله لا إلى نفسه ولا حزبه ولا جماعته، بل يدعو إلى الله مخلصاً في دعوته، فما أعظم هذا الشعار؟! الذي تسقط دونه كل الشعارات الأخرى من الدعوة إلى الحزب، أو الجماعة، أو الأسرة، أو السلالة، أو الوطنية، أو سائر الشعارات الدنيوية، ويقوم مقامها شعار الدعوة إلى الله وحده!، وأن يكون الداعية على بصيرة وعلم بدعوته، والبصيرة أبلغ رتبة من العلم، ولا تطلق إلا على العلم الذي فيه حجة، والبصير: صاحب الحجة؛ لأنه صار بها بصيراً بالحقيقة[(2)]، فيكون لديه بصيرة بمكوّنات الدعوة ومحتوياتها وأدلتها وحججها، ولديه بصيرة بالمدعوين الذين يدعوهم ويوصل لهم الدعوة، ولديه بصيرة بأساليب الدعوة واستخداماتها بطريقة سليمة ومؤثرة، **والضمير في "أنا"** المقصود به محمد ﷺ، ويدخل في مدلوله كل داعية أخذ راية الدعوة بعده، فهو وصف ومدح للقائد بأنه على بصيرة، ثم مدح أصحابه الذين اتبعوه على تلك الدعوة، بأنهم مثله، فهم تلاميذه، وقد رباهم وعلّمهم

---

(1) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 284).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 65).

وأرشدهم ودرّبهم، وهذه تزكية لأصحاب رسول الله ﷺ ما بعدها تزكية!!، فما حجة من يطعن فيهم، أو يتكلم عليهم بسوء؟! فقد زكاه الله بأنه على بصيرة، وهو صاحب مِشعل الهداية والدعوة، وزكى من اتبعه بأنهم على بصيرة فيها، وأولهم أصحابه رضوان الله عليهم، ثم من سار على نهجه وهداه ممن أتى بعدهم إلى يوم القيامة، ثم نزّه الله عن كل ما لا يليق به، ونفى عن نفسه الوقوع في الشرك، صغيره وكبيره، لفظًا ومعتقداً، ظاهراً وباطنًا، فهو ﷺ مبرّأ عن الشرك وعن صفات المشركين، ويجب أن يقتدي به في ذلك كل داعية، **وفي ذلك إشارة إلى** وجوب الحرص من الدعاة وطلبة العلم على معرفة هدي النبي ﷺ وطريقته في الدعوة والعلم والعمل واتباعها ليدخلوا تحت هذه التزكية العظيمة، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾، جاءت هذه الآية رداً على كفار قريش وعموم من سبقهم من الكفار، الذين ينكرون أن يكون الرسول من البشر، فأخبرهم الله أن سنته في البشرية أنه لم يُرسل رسلاً إليهم إلا بشراً من جنسهم، ولم يرسل إليهم ملائكة، فتضمن هذا اللفظ نفي أن يكون الأنبياء والرسل من الملائكة أو النساء، وإنما كلهم رجال من البشر، وليس في ذلك هضم للمرأة، ولكن تعظيمًا لشأن الرسالة، فهي مسؤولية عظيمة، وفيها قيادة للبشرية، وتحتاج أن يقوم بها الرجال القادرون عليها، وما ذُكر من حصول الوحي إلى بعض النساء كمريم وأم موسى

فهو وحي بمفهومه اللغوي، وهو الإلهام الخاص، وهو يدل على مكانة وكرامة تلك المرأة، وليس الوحي بمفهومه الشرعي الخاص بالرسل[1]، والذي يتم بالطرق المعروفة للوحي من إرسال رسول، أو الكلام من وراء حجاب، أو برؤيا المنام وغيرها من أنواع الوحي، **والمقصود بأهل القرى هنا** أهل المدن المستقرة، فأخرج صنفين هما الأعراب والبدو، **فالأعراب هم** الذين يعيشون بعيداً عن المدن ولو كان معهم بيوت، والبدو هم الذين يتنقلون طلباً للماء والمرعى، وليس لهم بيوت يستقرون فيها؛ لأن الأعراب وأهل البادية تختلف صفاتهم وأخلاقهم عن صفات وأخلاق أهل المدينة، فمن سكن البادية يغلب عليهم القسوة والجفاء، **وفي الحديث:** **"من بدا جفا"**[2]، والرّسل يجب أن يكونوا من أفاضل الناس أخلاقاً وأحسنهم أسلوباً، فاختار أن تكون الرسالة والنبوة في أهل المدن لهذه العلة، ثم خاطب المشركين بسؤال استنكاري، لأنهم يسيرون في الأرض، ويمرون على آثار وقرى الذين أهلكهم الله من الأمم قبلهم بسبب كفرهم، فلم يعتبروا بحالهم، بل كفروا مثلهم، وفي ذلك تهديد ووعيد لهم، ثم بيّن أن الدار الحقيقية هي الدار الآخرة، والمقصود بها الجنة[3]، فهي دار النعيم المقيم، **ولفظ:** **"خير"** لا يفيد التفضيل هنا؛ لأنه لا تفاضل بين الجنة والنار، **ولكن معناه** التمام والكمال للشيء، **واللام** لام الاختصاص، فهذا الخير

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 423).

(2) مسند أبي يعلى الموصلي: (3/ 215)، برقم: (1654)، مسند أحمد: (30/ 584)، برقم: (18619)، وإسناده حسن لغيره.

(3) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 265).

وتلك الدار وهي الجنة مختصة بالمتقين الذين اتقوا ربهم في الدنيا، ثم استنكر عليهم عدم إعمال عقولهم في النظر فيما يرونه من آيات وآثار وعلامات باقية من هلاك الكفار قبلهم، فلو تفكروا في ذلك لاعتبروا منها.!

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾، حتى ابتدائية، وهي عاطفة على جملة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾، و"**إذا**" اسم زمان مضمن معنى الشرط[1]، **وفي لفظ:** "كُذِبُواْ" **قراءتان**[2]: بتخفيف الذال، **والمعنى**: لقد أرسلنا قبلك رجالاً رسلاً فدعوا أقوامهم إلى الإيمان ووعدوهم العذاب إن لم يُؤمنوا، فأعرض الكفار عن الإيمان، واستمر الرسل في دعوتهم والصبر عليهم حتى كاد من كثرة عنادهم وكفرهم أن يُصيب الرسل اليأس من إيمان أقومهم[3]، **فالضمير يعود** إلى الرسل وهم أقرب مذكور، فلما تيقن الرسل أن أقوامهم مكذبون بهم، ولا أمل في إيمانهم واشتد كرب الرسل بسبب تأخر النصر عنهم؛ جاءهم نصر الله كاملاً حاسماً، **قال عروة بن الزبير**: سألت عائشة، قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟، فقالت: كُذِّبوا، فقلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كذّبوهم فما هو بالظن؟، قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِبوا؟ قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟، قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 69).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 89).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 753).

عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسلُ ممن كذّبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كَذَّبوهم؛ جاءهم نصر الله عند ذلك"[1]، **ونزل العذابُ والهلاكُ بالمجرمين** المكذبين بهم من أقوامهم، وكانت النجاة لمن شاء الله لهم النجاة بسبب إيمانهم، وهم الرسل والمؤمنون بهم، ولا يردّ عذاب الله وبأسه عمن وقع منه الإجرام في الأرض، فكفر بالله وكذّب رسله.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾، **ختمت السورة** ببيان ثمرة قصص المرسلين مع أقوامهم، وكيف أنجى الله المؤمنين وأهلك الكفرين[2]، **وقيل:** لقد كان في خبر يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وإخوته[3] عبرة، ولا مانع من اجتماع القولين، فلا تعارض بينهما، والاعتبار التدبر والنظر في الأمر[4]، **والألباب** جمع لُب، وهو خلاصة الشيء، **والمقصود به هنا** القلب، لأنه منبع الاتعاظ والتفكر، وخص الاستفادة من هذه القصص بأصحاب العقول السليمة، لأنهم الذين يتفكرون ويتعظون، ومن لم يعتبر بمثل ذلك فليس بصاحب عقل سليم.

ثم زكى القرآن الكريم وما يحتويه من الأخبار والأحكام بأنه وحي من الله

---

(1) صحيح البخاري: (6/ 77)، برقم: (4695).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 427).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 287).

(4) ينظر: اللسان: (5/ 2783).

ليس فيه خبر مكذوب أو مختلق، بل جاء مصدقًا لما قبله من الكتب السماوية السابقة قبل تحريفها، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها، والتصديق معناه الإقرار لما فيها من أخبار وأصول الأحكام والأخلاق التي اتفقت الديانات السماوية عليها، ووصف القرآن بأن فيه تفصيل كل شيء مما يحتاج إليه الخلق، فقد ذكر فيه قواعد وأصول الأحكام[1] التي يُستنبط بها ويُقاس عليها النوازل في كل زمان، ووصف القرآن بأنه هدى ورحمة للمؤمنين، تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، لأن فيه أسباب الهداية والاستقامة، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، وخص المؤمنين به بذلك، لأن الإيمان به سبب لاستمطار الرحمات والهدايات والعلم النافع، وبه تُحفظ وتفهم القواعد العلمية الشرعية التي من خلالها يحكم على النوازل من الأحكام.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن من فضل الله على الرسل أن يمنحهم علم بعض الغيب ليكون دليلاً على صدقهم.

2 - أن الدعوة إلى الله سلعة شريفة لا تباع بالأجر الدنيوي، بل ينتظر القائم بها أجره من الله.

3 - ذم المعرضين عن التفكر في الآيات والحجج والبراهين الحسية والمعنوية الدالة على التوحيد.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 73).

4- بيان أهمية الإخلاص والبصيرة في الدعوة إلى الله ومحتواها وأساليبها وأحوال المدعوين.

5- بيان أن النصر يأتي كاملاً حاسمًا للرسل وللمؤمنين حين يشتد كربهم.

6- أن القرآن فيه قواعد وأصول الأحكام التي يُستنبط بها ويُقاس عليها النوازل في كل زمان.

7- بيان أن في قصص القرآن العظة والعبرة والتسلية للسائرين على طريق الحق إلى يوم القيامة.

تفسير سورة الرعد

تفسير المقطع الأول من سورة الرعد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤۡمِنُونَ (١) ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ (٢)
وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ
يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ
وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا
عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٤) ۞ وَإِن تَعۡجَبۡ
فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥) وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ
ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن
رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ (٧) ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ
ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ (٨) عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ

ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الرعد؛ سورة مدنية[1]، **ومن مقاصدها** الرد على منكري الوحي والبعث والنشور بذكر دلائل قدرة الله ومظاهر عظمته في مخلوقاته.

ابتدأت بقوله: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، **سبق أن الحروف المقطعة من أحرف الهجاء**، ومنها تتكوّن لغة العرب الذي نزل بها القرآن الكريم، **وفي ذلك إشارة** إلى إعجازه، و(تلك)، **أي:** هذه آيات القرآن في هذه السورة[2]، أو ما سبقها من آيات، والذي أُنزل إليك هو القرآن كله، وهو الحق الذي لا شك فيه ولا تناقض، أنزله الله على رسوله ﷺ، وأكثر الناس المقصود بهم هنا كفار مكة الذين لا يصدقون بالقرآن، **ويقولون:** إن محمداً ﷺ أتى به من تلقاء نفسه، فكذبهم الله ورد عليهم قولهم هذا.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾، **ثم**

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 428).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 3).

بدأ سبحانه يحدثنا عن مظاهر عظمة قدرته في المخلوقات العلوية، فهو الذي خلق سبع سموات ورفعها بغير عمد، جمع عمود، وهو ما يعتمد عليه في البناء من الدعائم ونحوها، والنفي لوجود الأعمدة، فنحن نشاهدها مرفوعة بغير أعمدة، **وقيل**: إن النفي يعود إلى الرؤية، وأنه توجد أعمدة خفية للسماء لا يراها الإنسان ببصره، وهذا قول ضعيف[1]، **والصحيح الأول**؛ لأنه من حيث المعنى يدل على عظمة قدرة الله، **فاليوم يتنافس المهندسون** في الإبداع الهندسي حين يصنعون قبة أو سطحًا كبيراً بأعمدة قليلة تحمله، ولا يمكن أن يصنعوا قبة كبيرة بدون عمود، فهذا مما انفرد به الخالق العظيم سبحانه، فإن السماء بمثابة القبة التي تكون فوق الأرض وسائر المجرات الكونية، فهذا من مظاهر قدرته وعظمته سبحانه، ثم أخبر الله عن استوائه على العرش استواء يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه، **والاستواء في اللغة**: القصد إلى الشيء والعلوّ عليه[2]، **والعرش**: أعظم المخلوقات، واستواؤه عليه ليس لحاجة إليه، فإن الله منفصل عن خلقه، وسخر الشمس والقمر فجعلهما تجريان بأمره في منفعة الخلق إلى وقت محدد عند الله، وهو يوم القيامة حين يفسد نظام الكون[3]، ثم وصف نفسه بأنه مصرّف أمر الكون على ما يريد، **بقسميه: الأمر الكوني وهو** الذي يجري عليه الكون من النظام البديع الذي لا خلل فيه، **والأمر الشرعي وهو** بيان الحلال والحرام في أفعال الخلق الاختيارية، وقد بيّن الآيات ووضّحها

(1) ينظر: تفسير الرازي: (18/ 526).

(2) ينظر: لسان العرب: (14/ 414).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 293).

بقسميها: الآيات الكونية، والآيات الشرعية؛ لأن في بيانها وإيضاحها من الحجج والبراهين ما يحصل به اليقين بأن يوم القيامة آتٍ لا محالة لمن تفكّر فيها، وأن الله قادر على البعث والنشور للخلق ومحاسبتهم بين يديه.!

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾، ثم ذكر مظهراً آخراً من مظاهر عظمة قدرته في المخلوقات السفلية، فهو الذي بسط الأرض طولاً وعرضاً[1]، وجعلها مستقرة بالجبال الثوابت التي تجعل الأرض ساكنة لا تضطرب ولا تتحرك، وشق فيها أنهار الماء العذب ليشرب منها الناس ويسقوا أنعامهم وزروعهم، وأنبت فيها أشجاراً متنوعة، وجعل من كل الثمرات صنفين في كلٍ من الطعم، كالحامض والحلو، وفي اللون، كالأسود والأحمر ونحوهما، أو في القدر، كالصغر والكبر، أو في الكيفية، كالحر والبرد[2]، وصيّر الليل والنهار يتبع كلٌ منهما الآخر، فيغطي الليل بظلامه النهار، ويغطى النهار بضوئه الليل، وهذا التعاقب المنتظم لهما مظهر من مظاهر عظمة قدرة الله في خلقه، وفيما سبق ذكره من الآيات العظيمة علامة وحجة كافية لمن يُعمِل فكره وعقله في تدبرها فيستدل بها على ألوهية الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

---

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 58).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 78).

﴿يَعۡقِلُونَ ٤﴾، **ومن مظاهر عظمة قدرته سبحانه في الخلق**؛ اختلاف أنواع التربة في الأرض المتلاصقة، فبعضها تكون سبِخة، وبعضها خصبة، وبعضها صلبة، وبعضها رخوة ونحوها، ويوجد في الأرض جنات تحتوي على أشجار العنب، وفيها الزروع غير العنب التي تكون تحت أشجار العنب من الحبوب والخضروات ونحوها، وفيها أشجار النخل، منها ما تكون جذورها متحدة في الأصل، ثم تتفرع إلى نخلتين وثلاث فهذا هو الصنوان[1]، **يقال**: هذا صنو هذا، إذا كان أصلهما واحداً، **ومنه الحديث**: **"إن عمّ الرجل صنو أبيه"**[2]، **ومنها غير صنوان**، وهو النخلة المنفردة في أصلها وفرعها، وجميع ما سبق من الأشجار تُسقى بماءٍ واحد، ويزرع في تربة واحدة، ومُناخها واحد، وتبرز مظاهر عظمة قدرة الله باختلاف أنواع ثمراتها[3]، وهو الذي يؤكل منها، فتكون ثمرة بعضها حامضة وبعضها حلوة، وبعضها جيد وبعضها رديء، وفيما سبق ذكره من مظاهر قدرة الله علامات وحجج لمن أعمل عقله وتفكر فيها، فالعقل هو آلة الاعتبار والقياس والنظر إلى الأشياء لمعرفة المتماثل والمختلف منها، فيتعظ ويتذكر بذلك، وفي الآية توبيخ وتقريع للكفار بسبب قلة تفكرهم في الآيات وسخافة عقولهم؛ لأنهم لم يستدلوا بهذه الأشياء على توحيد الخالق كما استدل بها أهل الإيمان.

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 138).

(2) صحيح مسلم: (2/ 676)، برقم: (983).

(3) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 193).

وقوله: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾، **الخطاب لمحمد** ﷺ، **ومعناه:** وإن تعجب يا محمد من عبادتهم الأوثان وتكذيبهم لك بعد أن كنت عندهم تُعرف بالصادق الأمين؛ فتعجّب أيضا من إنكارهم للبعث والنشور؛ فإن الأدلة السابقة لم تبق لهم عذراً في ذلك، ولأنهم يُقرون بأن الله هو الخالق لهم، ثم يُنكرون قدرته على إحيائهم وبعثهم من جديد بعد الموت، بشبهة أن أجسادهم قد تحولت إلى تراب في القبور!، **وقد تقرّر** في النفوس أن الإعادة أهون من الابتداء، فصار إنكارهم محل عجب المتعجب(1)، وهؤلاء القوم هم الذين جحدوا قدرة الله بعد أن أوجدهم من العدم، وكفروا بألوهيته سبحانه، فعبدوا غيره، ثم بيّن أن عقوبتهم في الآخرة هي أن تُغلّ أيديهم إلى أعناقهم، ثم يُقذفون مغلولين في النار، فيبقون فيها ملازمين لها لا يخرجون منها أبداً.

وقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾، كان كفار قريش يطلبون من النبي ﷺ العقوبة قبل العافية استهزاء منهم به، **كما في قوله:** ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[الأنفال:32]، **فالسيّئة هنا هي** نزول العقوبة بهم، والحسنة هي العافية وإمهال الله لهم وعدم معاقبتهم، و"**ٱلۡمَثُلَٰتُ**" جمع مُثلة،

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 5).

وهي العقوبات الشديدة[1] التي وقعت بالأقوام السابقة المكذبة، كقوم عاد وثمود وغيرهم، حيث استأصلهم الله بالعذاب، وبقي خبرهم مثالاً يتردد على الألسن من شدته، ثم بيّن أن من رحمة الله بالخلق أنه لا يُعاقبهم بمجرد وقوعهم في الكفر والمعصية، بل يُمهلهم لعلهم أن يتوبوا، فإذا تابوا غفر لهم، فهو صاحب مغفرة كثيرة لمن تاب وأناب إليه، وهو كذلك شديد العقاب لمن أعرض واستمر في كفره، فذكر هذين الوصفين لعباده معًا، من أجل أن يعظهم بالخوف من عذابه وعقوبته، والرجاء في مغفرته ورحمته.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾، **ويقول كفار قريش** هلّا أنزل الله على محمد ﷺ معجزة حسية نراها بأعيننا، كمعجزة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو كمعجزة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فردّ الله عليهم بأن محمداً ﷺ جاء منذراً لهم يبلِّغهم الرسالة، وليس معنيًا بتنفيذ مقترحاتهم، فإن مهمته هي هدايتهم إلى الله بالدعوة والإرشاد لهم كغيره ممن سبقه من الرسل الذين أرسلهم الله إلى أقوامهم يدعونهم إلى الله.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾، ثم حدثنا عن مظاهر علمه وإحاطته بالخلق، فإنه يعلم ما في رحم كل أنثى من كل الحيوانات، من ذكر أو أنثى، كامل الخلق أو ناقص الخلق، واحداً أو اثنين أو

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 59).

أكثر، علماً تفصيلياً، كما أنه يعلم النقص والزيادة في مدة بقاء الحمل في الأرحام، فيعلم من يزيد على تسعة أشهر، ويعلم من ينقص عنها، ويعلم من يسقط قبل أن يكتمل، ويعلم من يبقى حتي يكتمل[1]، وكل شيءٍ خلقه الله في هذا الكون فقد خلقه بتقديرٍ واحدٍ لا يجاوزه ولا يقصر عنه[2]، لا من حيث التقدير، ولا من حيث التوقيت، فالله يعلم مقدار كل شيء، ويعلم وقت حصول كل شيء، وهو سبحانه يعلم كل ما غاب عن النظر من الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، أو من الغيب النسبي الذي قد يغيب عن البعض ويعلمه البعض الآخر، كما يعلم كل ما هو مشاهد ويراه الخلق، وهو الكبير الذي لا أكبر منه سبحانه، في ذاته وأسمائه وصفاته، وهو المتعالي على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره[3].

وقوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾، أي: يستوي عند الله منكم الذي أسرّ بكلامه والذي جهر به، فالكل عند الله سواء؛ لأنه ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه:7]، فيستوي علمه بالسر كما يستوي علمه بالجهر، ويستوي عنده المستتر بظلمة الليل، والظاهر في طريقه في النهار، والسرب بفتح السين وسكون الراء، هو الطريق والوجهة[4]، فلا فرق بينهما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فالكل عنده سواء.

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 298).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 298).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 414)

(4) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 516).

وقولــــه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾، **الضمير في** "له" يعود للإنسان، والمُعقبات هي الملائكة تتعاقب على حفظه؛ يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً[1]، ومحيطون به، فإن لفظ: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، مستعمل في معنى الإحاطة من الجهات كلها[2]، وسمّوا بذلك؛ لأن بعضهم يعقُب الآخر ويأتي في عقبه، ومعنى من أمر الله، **أي:** بأمر الله وإذنه، ما لم يجيء القدر، فإذا جاء القدر تخلوا عنه، **وقيل:** معناه أنهم يحفظونه بما أمر الله به من الحفظ له[3]، فتخيّلوا معي هذه النعمة العظيمة أن يمنح الله الإنسان ملائكة يحرسونه ليلاً ونهاراً، وتخيّل لو كان له حرس من البشر، فكم يحتاج لهم من الأجرة والمصاريف، مع أن البشر ينامون وينسون ويُخطئون، أما الملائكة فمعصومون من ذلك كله، **ويحرسونه من أقدار الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ويحفظونه من الشياطين والعفاريت، لأنه مخلوق ضعيف بينهم، فعلينا أن نستحضر هذه النعمة، ونستحي من الله ومن هؤلاء الملائكة، فلا نقع في المعصية والمنكر.

وختم الآية ببيان أن التغير يبدأ من النفس، وهي قرينة القلب، وفيها محل اتخاذ القرار بالتغيير إلى الأفضل، من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الشرود عن الله إلى الإقبال عليه، فمن عزم على فعل الخير وأقبل

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 414).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 101).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 7).

على الله؛ غيّر الله حاله وأصلح جوارحه، ورفع عنه المصائب والعقوبات، فقد ربط الله تغيير ما في الحال بتغيير ما في الأنفس والقلوب، وفي هذا دليل على أهمية صلاح القلوب والنفوس، فإن صلاح الباطن سببٌ لصلاح الظاهر، وصلاح الأفراد سببٌ في صلاح المجتمعات، ثم بيّن أن من أصرّ على الكفر والمعصية، ولم يقبل على الإيمان والتوبة، فهذا من القوم الذين خذلهم الله، وإذا أراد الله بهم الهلاك والعذاب والعقوبة، فلا يردها عنهم أحد؛ لأن الله لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، ولا يوجد لهم أولياء يدفعون عنهم المكروه ويُنقذونهم من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- استدلال القرآن بذكر مظاهر قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الكون على قدرة الله على البعث والنشور الذي أنكره الكفار وتعجبوا منه.

2- وعظ الله للخلق بترغيبهم بمغفرته لمن تاب وأناب، وتهديدهم بشدة عذابه لمن أعرض وكفر.

3- بيان سعة علم الله وإحاطته بالخلق على وجه التفصيل والإحصاء.

4- تكريم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لبني آدم، حيث جعل الله لهم ملائكة يحفظونهم ويحرسونهم بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

5- بيان أن التغيير يبدأ من القلب والنفس، وأن القلوب إذا استقامت صلحت الجوارح والأحوال.

تفسير المقطع الثاني من سورة الرعد

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢
وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ
وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَٰلٖ ١٤ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥
قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ
قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ
كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ
فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ
مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ
فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ
لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ
سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾.

قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾، **يبيّن الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات بعض الدلائل على عظمة قدرته جَلَّ وَعَلَا في هذا الكون، **ومنها**: أن الله يُري الناس البرق بأعينهم، **فإذا رأوه؛**

فهم بين حالتين: حالة الخوف، من أن يُصيبهم الله بالصواعق؛ **وحالة** الطمع، بكونه علامة لإنزال المطر(1)، فاجتمع فيه النعمة والنقمة، والفرح به والحزن منه، ومن دلائل قدرته وعظمته أن الله يُنشئ السحاب الثقال المحملة بماء المطر ويجعلها تتحرك من مكان إلى آخر.

وقد بيّن العلم الحديث بالتفصيل كيف تنشأ السحب من خلال تكثف بخار الماء الذي يصعد من البحار والمحيطات والأنهار إلى طبقات الجو، ثم تسوقه الرياح إلى مراتب مرتفعة، فيتحول من بخار إلى ماء، ثم إذا ازدادت برودته تحول إلى ثلج.

وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾، ومن دلائل عظمة قدرته جَلَّ وَعَلَا أن الرعد، وهو ملَك يسوق السحب اسمُه الرعد، **وفي الحديث:** أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: "**ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله**". فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟. قال: "**زجرة بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر**". قالوا: صدقت"(2)، **والباء** للملابسة، فتسبيحُه متلبساً بحمده، **وهو قوله:** سبحان الله وبحمده، فينزه الله ويقدسه بالتسبيح ويثني عليه بالحمد، وكذلك

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 763).
(2) سنن الترمذي: (5/ 294)، برقم: (3117)، السنن الكبرى للنسائي: (8/ 218)، برقم: (9024)، وإسناده صحيح.

الملائكة تسبح الله وتثني عليه خوفًا منه وخشيةً له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأفرد الرعد بالذكر تشريفًا له على غيره من الملائكة[1]، **وقيل**: إن الرعد هو صوت السحاب[2]، وأنه يسبح الله حقيقية بلسان المقال وليس هذا بمستبعد، ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك، فإن قدرة الله لا يقف أمامها شيء، فكل المخلوقات تسبّح الله، **كما قال**: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء:44]، والصاعقة هي شهاب مشتعل يخرج من البرق، ولا يأتي على شيء إلا أحرقه[3]، وتأتي غالبًا مع الأمطار، يُرسلها الله على من يشاء من حيوان أو إنسان أو جماد، فتهلكه كما هو مشاهد، والواو يجوز أن يكون واو الحال، أو استئنافية[4]، **أي**: والكفار يُجادلون في ألوهية الله واستحقاقه للعبادة على سبيل المنازعة والمغالبة له، والله شديد المِحال، **وفيها قولان للمفسرين**[5]، **الأول**: بمعنى الحيلة والمكر، فتكون من صفات المقابلة، **أي**: إنه يمكر بمن يستحق المكر من الكفار، **والثاني**: بمعنى القوة، **أي**: شديد الحول والقوة في بطشه بالكفار والمعاندين.

وقوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾، إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة، **أي**: الدعوة الملابسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 9).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 314).

(3) ينظر: تاج العروس: (26/ 21).

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 143).

(5) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 763).

بوجه من الوجوه، **والمعنى**: أنها دعوة مجابة واقعة في موقعها، لا كدعوة من دونه، **وقيل**: إن المقصود بها كلمة التوحيد، لا إله إلا الله[1]، **وسُميت بدعوة الحق**؛ لأنه لا يُشاركه فيها أحد، وكل ما يعبده الكفار من الأصنام والآلهة من دون الله فهو باطل وعاجز عن منفعة غيره، **ونكّر لفظ**: "شيء" للتحقير، والمقصود به أقل ما يجاب به من الكلام[2]؛ لأنها جمادات لا تسمع ولا تُبصر ولا تنطق، فكيف تحصل منها الاستجابة؟!، ثم ضرب مثالاً لاستجابتهم لمن يدعوهم بأمر محال لا يقع، وهو استجابة الماء للعطشان الذي يقف على شرفات البئر وينظر إلى الماء في أسفله ويبسط يده له، **ويقول له**: اصعد إلى فمّي لكي أشرب!!، فهل يتحقق له طلبه؟!، **الجواب**: لا، فالأصنام لا تجيب داعيها بشيء إلا كما ينال الظمآن المشرف على بئر ماء ليس معه ما يستقي به[3]، ثم بيّن أن فعلهم هذا كله ضياع للوقت والجهد فيما لا فائدة منه، حيث يضل عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه شيئًا، ولا ينفعهم بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾، ثم بيّن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعظمه كل العقلاء من خلقه، من في السموات وهم الملائكة، ومن في الأرض وهم الجن والإنس، فالملائكة والمؤمنون من الجن والإنس يسجدون له طائعين مختارين، والكفار من الجن والإنس يسجدون له

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 87).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 109).

(3) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 61).

سجود خضوع وانقياد في جميع أحوالهم، فالكفار ينقادون له كرهـًا، والمؤمنون ينقادون له طوعـًا، **وظِلال**: جمع ظل، وهـو الـذي يحـصل عنـد وجـود الـشمس للأجساد، وهذا الظل يتحرك بتحرك الشمس في الصباح والمساء، ومكـان الظـل على الأرض، كأنه ساجد لله، فإذا كان مـن النـاس مـن يـأبى الـسجود لله أو يتركـه اشـتغالاً عنـه بالـسجود للأصـنام، فقـد جعـل الله ظلـه شـاهداً علـى اسـتحقاقه للسجود[1]، **وفي ذلك تنبيه** لكل من أعرض عن الـسجود لله اختيـاراً، فـإن ظلـه – وهو غير مكلّف – يسجد ويخضع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقولـــه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾، **ثـم أمر الله رسوله** ﷺ أن يـسأل الكفـار مـن رب الـسموات والأرض، وأن يجيبهم بأنه الله سبحانه؛ لأنهم لا يُنكرون أن الله خالق السموات والأرض، إنما يُنكـرون أن يُفرد وحده بالعبادة، وفائدة سؤالهم؛ إظهار تناقـضهم، فـإذا كـانوا يقـرّون بـأن الله هو الخالق للسموات والأرض، فلِـم لا يكـون هـو المعبـود وحـده لا شـريك له؟! **ولذا أتبعه بسؤال استنكاري** لاتخاذهم آلهة يعبـدونها مـن دون الله، وهـي لا تملك لنفسها نفعـًا ولا ضراً، فكيـف سـتنفع أو تـضر مـن يعبـدها؟!، **ثـم أمـره أن يسألهم**: هل يستوي حال الأعمى الـذي لا يبـصر، بحـال البـصير الـذي يـرى؟!، والأعمى مثَلٌ للكافر، والبصير مثَلٌ للمؤمن، فالكـافر أعمـى الله بـصيرته فلـم يـرَ

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 111).

قدرة الله وعظمته في مخلوقاته، فلم يُؤمن به، والمؤمن أنار الله بصيرته فنظر في قدرة الله وعظمته، فآمن به، وهل تستوي الظلمات والنور؟!، وهو مثَلٌ للكفر والإيمان، فالظلمات هي الكفر، والنور هو الإيمان، وجمع الظلمات؛ لأن الباطل متعدد، وأفرد النور؛ لأن الحق واحد، ثم سألهم سؤالاً استنكارياً عن سبب شركهم بالله، هل هذه الأصنام خَلقتْ شيئًا من المخلوقات يُشبه خلق الله، فاختلطت مخلوقات الأصنام بمخلوقات الله؟!، **والجواب**: ليس الأمر كذلك حتى يشتبه عليهم الأمر، فالأصنام لا تخلق، بل عُبّادها هم من صنعوها، ثم عبدوها!، ثم أمر الله رسوله أن يخبرهم أن الخالق لكل شيء هو الله وحده، وهو المستحق للعبادة دون سواه؛ لأنه المنفرد بالخلق والإيجاد والرزق والتصرف والتدبير والألوهية والربوبية والأسماء والصفات، وهو المهيمن والمسيطر على المخلوقات كلها، فالكون كله تحت سلطانه وقهره.

وقوله: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ١٧ ﴾، **ثم ضرب الله للناس مثالين**، **أحدهما**: المثال المائي، **والثاني**: المثال الناري، وفيهما تشبيه لحال المؤمن وحال الكافر مع القرآن والهدى الذي أنزله الله بالوحي.

فالمثال المائي: أن الله ينزل من السماء ماء المطر فتسيل منه الأودية، وهي الفِجاج التي تكون بين الجبال[1]، ويتجمع فيها الماء من الجبال والشعاب والتلال بحسب أحجامها المختلفة تبعًا لكمية المياه التي نزلت عليها، فإن

(1) ينظر: لسان العرب: (8/ 4803).

صغُر الوادي قلّ الماء، وإن اتسع الوادي كثر الماء[1]، فيحمل السيل أثناء عبوره في الوادي **الزبد**، وهو الغثاء الذي يتجمع من البعَر والشجر والأوساخ التي تصادف السيل في طريقه، ويطفوا هذا الغثاء على ظهر الماء لخفته، ثم يتلاشى الغثاء من ظهر الماء شيئًا فشيئًا، ويتساقط عن أطراف السيل يمينًا وشمالاً، حتى يكون السيل في نهاية الوادي ماءً نظيفًا لا زبد فيه.

ثم ذكر المثال الناري: وهو النار المشتعلة التي يوضع فيها الذهب والفضة من أجل صياغتها وصناعة الحلي منها للزينة، كالأساور والحلق التي تلبسها النساء، أو يوضع فيها الحديد والنحاس لصهره وصناعة المنافع البشرية منه، كآلات الحرب وأدوات الزراعة وأواني الطعام منه، فماذا يحصل للذهب والفضة والنحاس والحديد إذا أوقدت عليها النار؟!، سيظهر عليها الزبد، وهو شوائب تلك المعادن، ثم يتلاشى، ويبقى الخالص النقي منها، فالماء الصافي وخالص المعادن التي بقيت بعد الاحتراق هو الحق، **والغُثاء** الذي فوق السيل والشوائب التي خرجت من المعادن هو الباطل، فالماء الصافي النقي يمكث في الأرض فيشربون منه ويسقون ويزرعون به، والمعادن النقية الخالصة يُصنع منها الحلي وما ينتفع به الخلق، وزبد الماء وزبد المعادن يذهب ويتلاشى ولا يستفاد منه، فالجُفاء ما رَمى به سيل الوادي من الغثاء الطافي عليه إلى جنباته[2].

والمثلان ضربهما الله للحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، فالباطل وإن علا

(1) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 333).

(2) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 195).

في بعض الأحوال فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد والخبث[1]، **وفي الحديث:** **"مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيّة، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تُمسك ماء ولا تُنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به"**[2]، **فشبّه** الوحي والإيمان بالغيث، **وشبّه** قلوب العباد بالأرض، **وجعلها ثلاثة أصناف: أرضًا** خصبة، تشرب الماء وتنبت الكلأ، وهذه تشبه قلب المؤمن الذي يقبل الحق ويعمل به، **وأرضًا** أجادب، تُمسك الماء ولا تنبت الكلأ، وهذه تشبه قلب المنافق الذي يقبل الحق ولا يعمل به، **وأرضًا** قيعان، لا تسمك الماء ولا تنبت الكلأ، وهذه تشبه قلب الكافر الذي لا يقبل الحق ولا يعمل به، والهدف من ضرب الأمثال تقريب الشيء البعيد الغامض بذكر شيءٍ قريب واضح، للتفكر فيها وأخذ العظة والعبرة منها.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾، **ما ذكره الله في هذه الآية هو** ثمرة ونتيجة للمثال السابق الذي ضربه الله لبيان موقف المؤمن والكافر من الوحي والهدى، فالمؤمن استجاب

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (9/ 305).

(2) صحيح البخاري: (1/ 27)، برقم: (79).

لأمر الله وشرعه وعمل به في الدنيا؛ فله في الآخرة الحسنى، وهي الخصلة والصفة الحسنة، والمقصود بها هنا الجنة[1]، والكافر الذي لم يستجب لأمر الله وشرعه ولم يعمل به في الدنيا؛ فله في الآخرة النار، ولو بذل ما في الأرض جميعًا من ذهب وفضة وأشياء ثمينة ومثله معه ليخرج منها ما تقُبّل منه، ويُحاسب في المحشر حسابًا عسيراً، ثم يكون مصيره ومقر إقامته في جهنم، وبئس الفراش فراشه فيها، والْمِهادُ: ما يفترش ويلبس بالجلوس والرقاد[2]، وهذا يدل على مكانة وأهمية الإيمان والتوحيد، فإنه يوم القيامة أعظم من وزن الأرض ذهبًا.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسجد له كل المخلوقات.

2- بيان أن من أعرض عن السجود لله اختياراً؛ فإن ظله – وهو غير مكلّف – يسجد لله.

3- بيان ضلال المشركين، لأنهم يستغيثون ويدعون آلهة لا تسمع ولا تُبصر ولا تنفع نفسها.

4- أن من وسائل الدعوة ضرب الأمثلة لبيان الشيء الغامض بشيء واضح لتقريب المعلومة.

5- بيان فضيلة الإيمان والتوحيد، وأنه يوم القيامة أعظم من ملء الأرض ذهبًا.

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 151).
(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 308).

تفسير المقطع الثالث من سورة الرعد

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ
يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ
رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا
رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم
بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ
بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن
يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن
قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ
أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى

ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾، **في هذه الآيات بيّن الله** الفرق بين المؤمن والكافر، وأنه لا يستوي حالُهما في الدنيا ولا في الآخرة، **فالمؤمن** يعلم أن القرآن أنزله الله على رسوله محمد ﷺ بالحق، وأنه يحتوي على الحق، **أما الكافر** فشبّهه بالأعمى الذي لا يرى، والمقصود بالعمى هنا عمى البصيرة، لأنه لم يقبل الحق ولم يعمل به، والسؤال استنكاري على من يتوهم المماثلة بينهما(1)، فلا سواء بينهما، ثم حصر منفعة الذكرى والموعظة بأصحاب القلوب والعقول السليمة؛ لأنهم هم الذين يستفيدون منها ويتأثرون بها.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾، **ثم بدأ بذكر صفاتهم الحسنة، ومنها:** أنهم يُوفون بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم، وهي أوامره ونواهيه التي أمر بها عباده، ويدخل فيه الميثاق الذي أخذه عليهم وهم في عالم الذر، **كما في قوله:** ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[الأعراف:172]، أو فيما بينهم وبين العباد، ولا ينقضون الميثاق الذي وثقوه على أنفسهم، وأكدوه بالأيمان ونحوها، ويدخل

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 94).

في ذلك جميع العقود مع الخلق، وأصل العهد حفظ الشيء، ومراعاته حالاً بعد حال[1]، ونقض الميثاق هو نكثه، ومن صفاتهم أنهم يصلون الأرحام[2] وهي التي أمر الله بوصلها، **وفي الحديث القدسي:** "**أنا الله وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته**"[3]، **وقيل:** إنه عام في جميع الأواصر والعلائق التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها، فمنها آصرة الإيمان، ومنها آصرة القرابة وهي صلة الرحم[4]، **ومن صفاتهم** أنهم يخافون الله مع تعظيمهم له في نفوسهم، ويخافون من أن يحاسبهم الله حساباً عسيراً على ما وقع منهم من الآثام والخطايا، فخشيتُهم لله وخوفهم سوء الحساب دفعهم إلى فعل الأوامر واجتناب النواهي، والتوبة والاستعداد للقاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾، **ومن صفاتهم:** الصبر على فعل المأمورات، وترك المنهيات، والابتلاءات، طلباً لرضا الله، لا لغرض شخصي، ولا لمصلحة دنيوية، بل كان خالصاً لله لا رياء فيه ولا سمعة، **ومن صفاتهم:** المحافظة على الصلاة كما أمر الله، بتحقيق شروطها وأركانها

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 15).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (16/ 420).

(3) مسند أبي يعلى: (2/ 153)، برقم: (840)، المسند للشاشي: (1/ 272)، برقم: (239)، وإسناده صحيح.

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 127).

وواجباتها وسننها، ومن صفاتهم قيامهم بالنفقة الواجبة والمستحبة يفعلون ذلك سراً وجهراً بحسب المصلحة، والأصل في الصدقة أن تكون سراً، لأنها أكثر إخلاصًا، وأقلّ إحراجًا للفقير، ولكن يجوز إظهارها إذا كان في ذلك مصلحة، **كما قال:** ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:271]، **ومن صفاتهم:** أنهم إذا فعلوا سيّئة في حق الله أتبعوها بحسنة، وإذا أخطأوا في حق شخص أو آذوه اعتذروا منه وطلبوا منه العفو والمسامحة، والطريقة المثلى للتخلص من السيئات هو التوبة منها وفعل الطاعات بعدها **كما قال:** ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:114]، **وفي الحديث:** **"وأتبع السيئة الحسنة تمحها"**[1]، ومن أساء إليهم بقول أو فعل؛ أحسنوا إليه ولم يقابلوه بفعله، بل يعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، **وختم الله الآية** بذكر جزائهم عنده، واللام في "لهم" لام الاختصاص، وقدّم المجرور على المبتدأ للدلالة على القصر[2]، فقد خصّهم الله بالعاقبة الحسنة المحمودة في الآخرة، وقصرها عليهم.

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾، **ثم بيّن ما هي تفاصيل العاقبة الحسنة** لهم في الآخرة، فذكر أنها جنات عْدن، وهي وسط

---

(1) مسند أحمد: (35/ 284)، برقم: (21354)، سنن الدارمي: (3/ 1837)، برقم: (2833)، سنن الترمذي: (3/ 423)، برقم: (1987)، وإسناده حسن.

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 130).

الجنة[1]، **وعدْن في اللغة:** الإقامة واللزوم في المكان[2]، أي يدخلون الجنة جزاء لهم، ويلازمون البقاء فيها لا يخرجون منها، ويدخل معهم الجنة من كان صالحًا من أزواجهم وذرياتهم، ثم يلحقون بشفاعتهم بدرجاتهم في الجنة إن كانوا أقل منهم منزلة فيها، فيجمع الله شملهم في الجنة في درجة واحدة لترتاح نفوسهم، **كما قال:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾[الطور:21]، **فالذرية** تلحق بالآباء، **وهنا ذكر الآباء والأزواج والذرية** ما يدل على أن نعمة لَمّ الشمل عامة للأسرة؛ فيُرفَع الأدنى إلى الأعلى بشفاعة قريبه الذي يكون في درجة أعلى فيجتمع شملُهم جميعًا في جناتٍ عدن، وتدخل الملائكة عليهم من كل أبواب القصور والغرف التي يسكون فيها بعد أن يؤذن لهم بالدخول، فيردون عليهم التحية، وهي السلام عليكم، ويحتمل أن يكون ذلك إخباراً لهم بالسلامة من عذاب جهنم ونجاتهم منها[3] بسبب صبرهم في الدنيا على طاعة الله وترك المعصية، وصبرهم على الابتلاءات التي أصابتهم، **و(نِعم)** من ألفاظ المدح والثناء لهم، فقد انتهت أمورهم إلى عاقبة حسنة، وهي النعيم المقيم في جنات عدن.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾، **ثم ذكر الله الصنف الثاني** من الخلق، وهم الذين لم يستخدموا عقولهم في معرفة الحق والعمل به، فوقعوا

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (9/ 311).

(2) ينظر: تاج العروس: (35/ 381).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 343).

في أفعال وصفات تناقض أفعال وصفات أصحاب العقول السليمة، **ومنها**: أنهم لم يوفوا بعهد الإيمان بالله، ولا التزموا ما فرضه الله عليهم من الطاعات، وينكثون العقود مع الخلق ولا يوفون بها، ويقطعون صِلة الرحم وعلاقتهم بالناس ونحوها لأدنى سبب، ويقعون في سائر أنواع الفساد في الأرض، كالكفر بالله، وارتكاب المعاصي، والإضرار بالأنفس والأموال، ونحوها[1]، فحلّت عليهم بسبب أفعالهم تلك اللعنة، وهي الطرد من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهم في الآخرة الدار السيئة، وهي جهنم وما فيها من الأهوال والعذاب.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾﴾، **يبيّن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يُوسّع في الأرزاق على من يشاء من عباده، ويُضيّق على من يشاء، فقد يكون المُوسَّع عليه كافراً، وقد يكون مؤمنًا، وقد يكون المُضيَّق عليه مؤمنًا، وقد يكون كافراً، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وقد ذكر هذا تمهيداً وتوطئةً لما بعده، ثم شنّع على الكفار فرحهم بما أنعم الله عليهم من نِعم الحياة الدنيا التي كانت سبباً في كفرهم بالله وإعراضهم عن دينه، وهو نوع من الفرح المذموم، لما فيه من الأشَر والبطر الذي أبعدهم عن الإيمان بالله وشكر النعمة، ثم بيّن لهم حقارة الدنيا، وأنها كلها متعة وشيء حقير قليل ذاهب، ولا تساوي شيئًا أمام نعم الآخرة، **وفي الحديث**: **"ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع"**[2]،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 95).
(2) صحيح مسلم: (4/ 2193)، برقم: (2858).

وفي ذلك توبيخ للمشركين والكفار الذين انشغلوا بالدنيا الحقيرة الفانية، وتركوا الاهتمام بالآخرة العظيمة الباقية.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾، **ثم ذكر الله بعض اقتراحات الكفار على رسول الله** ﷺ، فاقترحوا أن تنزل عليه معجزة حسية، مثل معجزة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من ربه، حتى يُؤمنوا به، فأمره الله أن يرد عليهم بأن الهداية للخلق والضلال لهم بيد الله، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على نزول المعجزات، ومع ذلك فهم كاذبون في دعواهم(1)، وقد أطلق الضلال ولم يبيّن سببه هنا، وبيّن سبب الهداية، فمن أراد الهداية؛ فليكثر من التوبة والرجوع إلى الله، والتعرض للحق ومعرفته وقَبوله، ويفهم من ذلك أن سبب الضلال هو البُعد عن أسباب الهداية والإعراض عنها، **كما قال:** ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[الصف:5].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾، ثم ذكر حال من هداه الله بسبب إنابته وعودته إلى الله، بأن قلوبهم تمتلأ باليقين والسكون والراحة، وذكر الله يجوز أن يُراد به خشية الله ومراقبته بالوقوف عند أمره واجتناب نهيه، **ويجوز** أن يُراد به سماع القرآن الكريم(2)، **ويدخل في معنى الذكر** ذكر الله باللسان مع حضور القلب وامتثال الجوارح، ثم حث الجميع على الوصول إلى هذا الوصف، وقد علموا راحة بال المؤمنين واطمئنان

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 417).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 137).

قلوبهم، فماذا يمنعهم بأن يكونوا مثلهم؟!.، وذلك بالمداومة على ذكر الله.!

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾، **ثم ذكر جزاء المؤمنين** المتصفين بالعمل الصالح في الآخرة، وجمع بين هذين الوصفين، لأن الإيمان وحده لا يكفي بدون عمل صالح، **و"طُوبَى" في اللغة:** معناها فعلى من الطيب وهو العيش الطيب[1]، **وقيل:** اسم لشجرة في الجنة، ظلها مسيرة مائة سنة[2]، ولا مانع من اجتماع المعنيين، فهم في عيش طيب وراحة وسعادة، ويستظلون بظل تلك الشجرة، ولهم مرجع ومنقلب حسن في الجنة، فهي دار كرامته.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾، الكاف للتشبيه، **أي:** أرسلناك كما أرسلنا من قبلك من الرسل في أمم سبقت قبلك، وأنت خاتمهم، وقد أرسلك الله في أمتك وهم العرب، ويدخل فيهم كل من عاش بعد ولادته ﷺ من الكفار، **واللام** للتعليل، **أي:** لأجل أن تقرأ عليهم القرآن الذي أوحاه الله إليك حال كونهم يجحدون اسم الله الرحمن، فقد كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ورفضوا ذلك كما حصل منهم في صلح الحديبية[3]، ويكفرون بالله، فلا يعبدونه ويشركون به غيره، **ثم أمر الله رسوله**

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 148).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 21).

(3) ينظر الحديث بطوله في: صحيح البخاري: (3/ 193)، برقم: (2731).

ﷺ أن يخبرهم بأن هذا الذي تجحدونه هو ربي الذي خلقني ورباني، وهو إله واحد وإن تعددت أسماؤه، وقد فوضت أمري إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه(1).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾، ولو أن قرآنًا تسير به الجبال وتنزاح من مكانها إلى مكان آخر، أو يقرب به مسافات الأرض، أو يكلم به الموتى فيسمعون ويجيبون، وهذه الثلاث القضايا هي التي طلبها كفار قريش من محمد ﷺ أن يفعلها لهم لكي يؤمنوا به، **فقد قالوا له**: إن مكة تُحيط بها الجبال من كل جهة فأزح عنا الجبال حتى تتوسع أرضنا، وبلادنا بعيدة عن البلدان الأخرى فقرب لنا المسافة، وأحيي لنا آباءنا الميتين نتكلم معهم، وجواب لو محذوف، **تقديره قولان للمفسرين**(2)، **الأول**: لكان هذا القرآن، **والثاني**: لو فعلت لهم ذلك لما آمنوا، ويمكن أن يجمع بين القولين، **ويكون المعنى**: كيف يطلبون آية ومعجزة غير القرآن،؟!، **وقد جاءهم هذا القرآن** الذي لو أراد الله أن يُقرأ على الجبال لأُزيحت، وعلى الأرض لقُطعت، وعلى الموتى لتكلموا، ولو حصل ذلك ما آمنوا، أخبر أن أمر نزول المعجزات التي يطلبونها منه ليس إليه، بل هي إلى الله، إن شاء أتى بها،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 460).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 772).

وإن شاء لم يأتِ بها، فأمر تدبير الكون كله إليه وحده لا شريك له.

ثم أخبر عن موقف المؤمنين من ضلال الكفار، والسؤال للتقرير، **واليأس له معنيان عند المفسرين**[1]، **الأول**: أنه على ظاهره، **والمعنى**: أن المؤمنين ما زالوا لم ييأسوا من إيمان الكفار رغم عنادهم، **والمعنى الثاني**: أن اليأس هنا بمعنى العلم، وهي لغة نخع، **وقيل**: هوازن[2]، **والمعنى**: أفلم يعلم الذين آمنوا أن الهداية والضلال بيد الله، ولو شاء لهدى الناس جميعاً بدون معجزات، لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات طمعاً في إيمان الكفار، ثم بيّن أن الكفار سيبقون مستمرين على الكفر حتى يصيبهم الله بصنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم، بسبب كفرهم، أو تحل المصيبة قريباً منهم فيتطاير إليهم شررها، ويتعدى إليهم شرورها؛ فيفزعون ويضطربون منها[3]، **والمعنى**: **أن الله خوّفهم بأحد أمرين**: **إما** أن تجيئهم مصيبة في ديارهم وأنفسهم فتهلكهم، **وإما** أن تنزل قريباً منهم فيرونها فيتعظون ويعتبرون بها، حتى يأتي وعد الله وهو وقت موتهم، أو موعد قيام الساعة عليهم، فإن الله إذا وعد وعداً فإنه لا يُخلفه، بل يتحقق في موعده المحدد، وفي ذلك تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 113).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (9/ 320).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 531).

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أهمية الترغيب في الاتصاف بمجموعة من فضائل الأخلاق التي تُورث أصحابها الجنة.

2 - بيان أن في التوسعة والتضييق في الرزق للعبد ابتلاء لا علاقة له بالإيمان أو الكفر.

3 - أن من الفرح المذموم؛ الفرح بالدنيا والانشغال بها عن الآخرة.

4 - بيان أن ذكر الله سبب لاطمئنان القلوب وسعادتها وراحتها.

5 - بيان عظمة القرآن، وأنه المعجزة الخالدة لهذه الأمة.

6 - تخويف الله للكفار إن استمروا على الكفر بنزول المصائب بهم أو قريبًا منهم.

تفسير المقطع الرابع من سورة الرعد

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ
بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ
وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ
ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا
دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ
وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ
أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا
مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ
كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ
بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي
ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدۡ
مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى
ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي
وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾، **الخطاب لنبيّنا محمد** ﷺ، لأن كفار قريش كانوا يستهزئون به وبدعوته، فأخبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هذه سنة الله في أنبيائه ورسله الذين سبقوه، فقد استهزأ بهم أقوامُهم وكذبوهم، وفي ذلك تسلية وحث له على الصبر عليهم، ثم أخبره عن سنته فيهم، وهي سنة الإمهال للكفار، لا لأنهم على الحق، وإنما ليزدادوا كفراً وظلماً حتى يأتي وقت هلاكهم فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، كما فعل بقوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط وغيرهم، ثم سألهم كيف كان عقابي لهم؟! **والجواب:** لقد كان عقاباً شديداً وعذاباً أليما، فليحذر كفار قريش أن يفعل الله بهم كما فعل بأولئك، فقد كانوا يمرون على آثارهم، ويطّلعون على أخبارهم.

وقولـه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾، **ثم انتقل الحديث للمقارنة بين صفات الإله الحق** الذي يجب أن يُعبَد وحدَه لا شريك له، وبين الآلهة المزعومة التي يعبدها الكفار، فالله هو الذي يتولى أمور كل الأنفس إيجاداً وتدبيراً لشؤونها، ورقيب حفيظ يُحصي عليها ما تعمل، ولا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، وقد أعدَّ لكل نفس جزاءها، والجواب عن السؤال محذوف، **تقديره:** كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تملك من الأمر شيئًا، فإن هذه الأصنام والآلهة التي جعلتموها مشاركة لله في الألوهية ليست كذلك، فهاتوا لها

أسماءً مُشتقة من أفعالها، هل تخلق فتسمى بالخالق؟ وهل ترزق فتسمى بالرازق؟، **ثم سألهم سؤالاً توبيخيًا لهم**: هل تتخذون أصنامًا وآلهة تنفع وتضر والله لا يعلم بها؟ فهذا خلاف إحاطة علمه وقيامه على كل الخلق، فأين هذه الآلهة التي لا يعلم أنها بهذا الوصف؟!، أم تسمونهم شركاء وهم لا يستحقون ذلك بظنٍ باطلٍ فاسد لا حقيقة له؟!، وبسبب فرط جهلكم وسخافة عقولكم، وهم لم يشاركوا الله بشيءٍ من الخلق والتدبير، فهذا هو ظاهر القول المخالف لحقيقته، مثل أن يسمي الشخص بسعيد، وهو غير سعيد، فهو مجرد لفظ لا معنى له في الواقع، بخلاف التسمية الصادقة التي يتطابق فيها الاسم مع الواقع، **وفي الحديث**: "**أصدق الأسماء حارث وهمام**"[(1)]؛ لأن كل منهما يُطابق الواقع، فكل شخص لديه هم عمل، ثم أضرب عن قولهم وأنكره عليهم، وبيّن أن ما اتخذوه من آلهة مزعومة هو من تزيين الشيطان الباطل لهم، فزيّن لهم الشرك وجعله حسنًا، وسمى فعلهم مكراً؛ لأن فيه خديعة لأنفسهم وللآخرين، وقد حُرموا الهداية وحصلت لهم الغواية بسبب إعراضهم عن الحق وتدبره، ومن حقّت عليه الضلالة وخذله الله، فلن يوفق للهدى ولو سمعه وأُرشد إليه.

وقولــــه: ﴿ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤ ﴾، وتوعّد هؤلاء الكفار بعذاب في الحياة الدنيا، وهو ما يصيبهم من المصائب كالقحط والأسر والقتل ونحوها، عقوبةً لهم على كفرهم بالله واستهزائهم

(1) مسند أحمد: (29/ 147)، برقم: (17606)، سنن أبي داود: (7/ 306)، برقم: (4951)، وإسناده حسن.

برسوله ﷺ، ولهم في الآخرة عذاب أغلظ منه وأشد وأكثر إيلامًا، فلا مقارنة بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، **وفي الحديث**: **"ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرّها"**[1]، **ويمكن** أن يقاس عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة بهذه النسبة، وليس لهم من يمنع وقوع العذاب بهم أو يدفعه عنهم.

وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾، **ثم بيّن وصف الجنة** التي وعد الله المتقين دخولها، **والمتقون هم** المؤمنون الذين اتقوا سخط الله وعذابه بالإيمان به والعمل الصالح، بأنها جنة مليئة بالبساتين والثمار، وأن الأنهار تجري من تحت أشجارها وقصورها، فيكون في ذلك المتعة الحسية والمعنوية لأهلها، ووصف نعيمها وثمار أشجارها بأنه دائم لا ينقطع، فثمارها لا تنقطع، والنعمة فيها دائمة، والمتنعّم بها لا يموت، وظلّها لا ينقطع ولا يزول، ولا تنسخه الشمس، وفي حديث ابن مسعود –وهو موقوف عليه، لكن له حكم الرفع–، **قال**: **"الجنة سجسجٌ، لا حرّ ولا قرّ"**[2]، **والسجسج**: المعتدل[3]، وهو وقت ما بعد طلوع الفجر إلى قبل شروق الشمس، وهو وقت لطيف لا يوجد فيه حرارة ولا برودة، فهذا معنى الظل الدائم، **والعقبى**: بمعنى العاقبة التي يصير

(1) صحيح البخاري: (4/ 121)، برقم: (3265).

(2) مصنف ابن أبي شيبة: (7/ 30)، برقم: (33970)، حديث أبي الفضل الزهري: (ص: 83)، برقم: (2).

(3) ينظر النهاية في غريب الحديث: (2/ 3439).

إليها حالهم في الأخير، وهو نعيم الجنة الدائم، وعاقبة الكافرين ومصيرهم إلى النار وبئس القرار.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾، **والمؤمنون بمحمد ﷺ من أهل الكتاب**[1] يفرحون بما أُنزل إليه من القرآن الكريم، لأنه وحي يتوافق مع ما أُنزل إليهم في التوراة والإنجيل قبل التحريف، والأحزاب هم الذين تحزبوا ضد الإسلام من اليهود والنصارى[2]، **فمنهم** من ينكر بعض ما أنزل الله من القرآن، لأنه يخالف أهوائهم، **فأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم:** أنا مأمور بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئًا، ولست مأموراً بموافقة أهوائكم، وإدخال التعديلات على الوحي، من أجل أن تُؤمنوا به، ومأمور بأن أدعو الخلق إلى توحيده وإفراده بالعبادة، وإلى الله مرجعي ومصيري.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾، **الكاف** للتشبيه، **أي:** كما أنزلنا الكتب السماوية على الرسل قبلك بلغتهم لكي يُخاطبوا أقوامهم بها، أنزلنا القرآن الكريم بلغتك من أجل أن تُخاطب به قومَك فيفهمونه، ووصف القرآن بالحُكم لما فيه من الأحكام، أو لكونه حكمة عربية[3]، وهو محكم متقن، وهو حكم

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 157).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 467).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 105).

لأن به يفصل بين الحق والباطل، وهو حاكم على ما سبق من الكتب ومُهيمن عليها، وناسخ لها، والخطاب لرسول الله ﷺ، وهو بالمعنى يتناول المؤمنين إلى يوم القيامة(1)، فنهاه عن مخالفة القرآن واتباع أهواء الكفار من بعد ما جاءه علم بواسطة الوحي، ولو حصل منه ذلك؛ فإن الله يتخلى عنه فلا ينصره ولا ينقذه من العذاب الشديد!، وفي الآية وعيد لأهل العلم وتحذير لهم عن اتباع سُبل أهل الضلال والبدعة بعدما عرفوا الحق والسنة النبوية(2).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾، **في هذه الآية** جوابٌ على ما صدر من كفار قريش لمحمد ﷺ من تشكيك في صدق رسالته، بسبب أنه من البشر، ومعه زوجات وأولاد مثلهم، ولماذا لم يأتهم بمعجزة حسية، مثل من سبقه من الرسل؟ فبيّن الله لهم أن سنته في إرسال الرسل إلى أقوامهم أن يكونوا من جنسهم، يأكلون ويتزوجون، ولهم أولاد مثلهم، وأن الفارق بينهم وبين أقوامهم أنهم يُوحَى إليهم، وأن محمداً ﷺ مثلهم لا يختلف في ذلك عنهم، ثم رد طلبهم الآخر المتعلق بنزول المعجزات، بأن أمْر إنزالها ليس من شأن الرسول، بل مردها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي يأذن إن شاء بنزولها، ولكل أمر قضاه الله في هذا الكون وقت محدد يقع فيه، فلا يتقدم عنه ولا يتأخر.

وقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾، **في معنى**

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 316).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 467).

الآية عدة أقوال[1]، **قيل**: يُزيل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ما يشاء إزالته من خير أو شر، أو سعادة أو شقاء، أو غير ذلك، أو يُثبِته، فالأمر كله إليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، **وقيل**: إن هذه الآية في الأحكام الشرعية، فينسخ الله حكمـًا، ويُثبِت حكمـًا آخر، كما حصل في نسخ القبلة وآيات العِدة وغيرها، **وقيل**: هو في الآجال والأرزاق، **وقيل**: إنه مخصوص بما يُكتَب من أعمال العباد يمحوه الله ويُثبته؛ لأن الملائكة يُقيدون كل شيءٍ على العبد ما فيه حسنة، وما فيه سيئة، وما ليس فيه حسنة ولا سيئة، فيُرفَع هذا التقييد إلى ملائكة آخرين فيجرون له المراجعة، فما كان سيئة ولم يتب منها كتبوها له، وما كان من حسنة كتبوها، وما كان سيئة تاب منها محوها، وما كان لا أجر فيه ولا وزر أسقطوه، والراجح الأول لعمومه، والأقدار كلها مكتوبة في اللوح المحفوظ، وهو أمّ الكتاب[2]، وكل من المحو والإثبات مما جف به القلم، وسبق به القدر، فلا يمحو شيئـًا ولا يثبت شيئـًا إلا ما سبق به علمه في الأزل، وعليه يترتب القضاء والقدر[3].

وقوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾، **الخطاب لرسول الله** ﷺ، فقد وعده الله بعقوبة من كفر به من قومه، وأخبره أن عقوبته قد تنزل بهم وهو حي فيراها وتقر بها عينه، وقد تتأخر فتنزل بهم بعد وفاته، فما كُتب عليهم سينالونه في حال حياته أو في حال وفاته،

---

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 118).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 776).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 24).

ولن يتخلف عنهم، وبيّن له أن مهمته فيهم هي البلاغ، وليس مسؤولاً عن إدخال الهدى إلى قلوبهم أو محاسبتهم على كفرهم، فذلك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي ذلك تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ، وإخبار له بأنه قد فعل ما أمره الله به، وليس عليه غيره[1].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾، **الخطاب لكفار مكة، المقصود بالأرض** جزيرة العرب التي يعيشون فيها، ونقصها بدخول الناس في الإسلام من حولهم، وفتح البلدان والقرى والمناطق المحيطة بها، فأرض الكفر تنقص، وأرض الإيمان تزداد، والخناق يشتد عليهم شيئًا فشيئًا حتى ينتهي أمرهم، وتُفتح مكة بالإسلام، وفي ذلك تخويف وتهديد لهم، **وقيل:** إن المقصود بأطراف الأرض أشرافها، وهم العلماء والعقلاء الذين يُنيرون الطريق ويُضيئون الدرب لمن فيها، فإذا مات عالمٌ كأنه نقص شيءٌ مما يحتاجُه أهل الأرض، والراجح الأول للسياق[2]، والله يحكم بين العباد، وحكمه نافذ فيهم، وخاليًا من المدافع والمعارض والمنازع، فلا يتعقبه أحد بتغيير ولا نقض، والمُعقّب هو الذي يُعقب غيره بالرد والإبطال[3]، **ويدخل في حكمه:** الشرعي، والقدري، والجزائي، وكلها في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، لأنها مبنية

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 108).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 473).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 25).

على القسط والعدل والحكمة، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافق[1]، وأن وعده واقع بهم وإن تأخر وطال، فهو سريع باعتبار تحقق وقوعه[2]، فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت فهو قريب.

وقولـــه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾، **في هذه الآية تسلية لرسول الله** ﷺ، فجميع مكذّبي الرسل من الأمم السابقة قد مكروا برسلهم، وتعاملوا معهم بالخديعة والتخطيط الخفي لأذيتهم، والتكذيب بهم، والصد عن دعوتهم، وأن مردّ تنفيذ مكرهم إلى الله، فإنه لا يصير شيء في الكون إلا بإذنه، كما أنه المحاسِب للماكرين والمعاقب لهم؛ فهو يعلم كل ما اكتسبته الأنفس من الإثم، فلا يفوته شيء من ذلك، وحين يظهر للكافرين جزاء ما عملوه من الشر والمكر برسله يتضح لهم لمن تكون العاقبة الحسنة وهي دخول الجنة، لهم، أم للمؤمنين بالله ورسله؟!، وفي الآية تعريض ووعيد بالكفار.

وقولــه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾، **يخبر الله عن قول الكفار لرسولنا محمد** ﷺ، ويدخل في هذا القول اليهود والنصارى ومشركو العرب، فكلهم ينكرون رسالته ﷺ، فأمره الله بأن يجيبهم جواب الواثق بصدقه، المستشهد على ذلك بشهادة الله تعالى له بما أظهر من الآيات، وأبان من الدلالة على صحة

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 420).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 173).

نبوته، وشهادة كل العالِمين بالكتب والشرائع السماوية[1]، ويدخل في ذلك مؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين آمنوا برسلهم، وآمنوا بمحمد ﷺ، والمؤمنون من هذه الأمة، وجبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ فالوصف يشملهم جميعًا.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن سنّة الاستهزاء بالرسل سنّة مُطّردة لدى كل المكذبين بهم، وستبقى هذه السنّة موجودة مع كل من يدعو إلى دعوة الرسل إلى قيام الساعة.

2- أن من أساليب الدعوة: الترهيب بالنار وعقوبتها وذكر ما فيها، والترغيب بالجنة وذكر صفاتها.

3- بيان خطورة اتباع الهوى، فهو سبب للانحراف عن الحق.

4- بيان أن سنّة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في إرسال الرسل إلى أقوامهم أن يكونوا من جنسهم.

5- البشارة للإسلام وأهله؛ بأن أرض الكفر تتناقص شيئًا فشيئًا، حتى يعمّ الإسلام الأرض كلها.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 175).

تفسير سورة إبراهيم

تفسير المقطع الأول من سورة إبراهيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ
وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى
ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ
أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي
مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ
أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ
عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ
أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾
وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا

ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ
أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ
شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ
ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة إبراهيم؛ سورةٌ مكية[1]، **ومن مقاصد السورة العامة:** بيان أن الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ قد قاموا بالبلاغ المبين فيما أُرسلوا به من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وذكر التهديد والوعيد لأقوامهم المكذبة بالحجج والبينات التي أرسلوا بها.

وابتدأت بقوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾﴾، **هي من السور التي ابتدأت بالحروف المقطّعة، والراجح في معناها** أنها من حروف الهجاء التي يتكوّن منها القرآن، وتدل على إعجازه، **والمقصود بالكتاب** القرآن الكريم الذي أنزله الله على محمد ﷺ، بواسطة جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، مُفرّقًا لمدة ثلاثٍ وعشرين سنة، وهو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم، **واللام** لبيان الحكمة والغاية من إنزاله، وهو إخراج الناس من ظلمات الكفر والشرك والضلال إلى نور الإيمان والتوحيد

---

(1) تفسير ابن كثير: (4/ 476).

والهدى، وأسند الإخراج إلى النبي ﷺ تشريفًا له[1]، **وعبّر عن الظلمات** بالجمع لكثرة أنواعها وتعددها، وأفرد النور لأن الحق واحد لا يتعدد، **وبيّن** أن خروجهم من الظلمات إلى النور يحصل بأمر الله، وهو إرساله للرسول إليهم[2]، **وفيه إشارة** إلى أن مهمة الرسل هي الإرشاد والتوجيه، **وأما إدخال الهداية** إلى القلوب فيكون بتوفيق الله، **والصراط المستقيم هو** الطريق الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده، ونسبه إلى العزيز الحميد، وهما اسمان من أسماء الله؛ لأن تشريع الأحكام يقتضي العزة والقوة والسلطة والتمكن، **والحميد** اسمٌ يدل على أن فعله وشرعه محمود ليس فيه ما يُذَم، وأنه محمود من الخلق لنعمه عليهم.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾، **وفي لفظ الجلالة قراءتان**[3]: **الرفع** على أنه مبتدأ، **والجر** على أنه بدل من العزيز، فإن صراط العزيز الحميد، هو صراط الله الموصوف بأفعاله، فهو المالك لما في السموات وما في الأرض، المتصرف فيها، والواو لعطف جملة على جملة، **فالسياق يتحدث عن صنفين: صنف** آمن بالرسل، فأُخرج من الظلمات إلى النور، **وصنف** كفر بهم، فله الويل من عذاب شديد، هو عذاب جهنم المُعد لهم في الآخرة.

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 321).
(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 778).
(3) ينظر: تفسير الطبري: (16/ 512).

وقولـــه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾، **وصفهم** بأنهم يبالغون في حب الدنيا حباً شديداً، ويُقدمونها على حب الآخرة، ويمنعون أنفسهم عن الإيمان بالله والتفكر والتأمل بالحجج والبراهين الدالة على توحيده، ويمنعون غيرهم بكفرهم أو بالنهي لهم عن الإيمان، ويطلبون التشويه لطريق الحق لتظهر مُعوجة[1] فينفر عنها الخلق فلا يُقبلون عليها، فجمعوا بين منع الناس من قبول الحق والتشويه له، ثم وصفهم الله بأنهم بفعلهم هذا وقعوا في ضَلال بعيد عن الحق والاستقامة، فلا يعرفون طريقها، بل قد ابتعدوا عنها مسافة كبيرة، وفيه إشارة إلى صعوبة عودتهم وتوبتهم ورجوعهم إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وقولـــه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾، هذا أسلوب حصر وقصر، وهو بيان لسنة الله في إرسال الرسل، وهي أن يكون الرسول من جنس قومه ويتكلم بلغتهم، **واللسان في اللغة له ثلاثة معانٍ**[2]: الجارحة، والفصاحة، واللغة، **والمقصود بها** اللغة، **واللام** للتعليل، فالهدف من اتحاد لغة الرسول مع المُرسَل إليهم تحقق البيان لهم؛ لأنه لو كان بلغة غير لغتهم لما حصل لهم البيان، بل يحتاجون إلى من يترجم لهم كلامه، وتكون لهم حجة في التكذيب بأنهم لم يفهموا قوله، **ثم أكد** أن مقصود الرسالة وهدفها بلوغ الحجة إلى الخلق، **أما**

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 28).

(2) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (6/ 2195).

التوفيق للهداية فهو بيد الله، فهو الذي يُضل من يشاء ويهدي من يشاء، **وذيّل ذلك باسمين هما: (العزيز)**، الذي فيه معنى القوة والسلطة والأمر والنهي، و**(الحكيم)**، الذي فيه معنى الحكمة وعدم الخلل والنقص في أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾، **ثم بيّن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه قد أرسل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى فرعون، وأيّده بمجموعة من المعجزات، وأمره أن يُخرج قومه من ظلمات الشرك والكفر إلى نور الإيمان والتوحيد، **وعبّر في رسالة محمد** ﷺ بإخراج الناس عامة؛ لأن رسالته عامة، وخص الإخراج هنا بقومه فقط؛ لأن رسالته خاصة، وأمره أن يذكّرهم بوقائع الله فيهم من نقمته بالكافرين ونعمه على المؤمنين[1]، **وعبّر** بالأيام عن الوقائع والنِّعم والنقم؛ لأن هذه كلها تقع فيها، **أي**: عظهم بالترغيب بالنعم وبالترهيب من النقم، **ولفظ (الأيام)** يعمّ المعنيين، لأن التذكير يقع بالوجهين جميعًا[2]، **وبيّن** أن الاتعاظ والعبرة لا يستفيد منها إلا كل صبّار شكور، وهما صيغة مبالغة من الصبر والشكر، وهما حالان للعبد المؤمن مع النعم والنقم، فيكثر من الصبر على النقم، ويكثر من الشكر على النعم، **وعبّر عنه بالوصفين** المذكورين؛ لأنهما ملاك الإيمان، وقدّم الصبار على الشكور؛ لكون الشكر

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 113).

(2) تفسير ابن عطية: (3/ 324).

عاقبة الصبر[1].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾، واذكر لهم يا محمد حين قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: اذكروا بقلوبكم وألسنتكم نعم الله العظيمة عليكم، ثم ذكّرهم ببعض هذه النعم، ومنها إنجاؤهم من فرعون وجماعته وحزبه الذين كانوا يُعذبون بني إسرائيل ويُذيقونهم العذاب السيء، وهو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة، والسوم: أن تريد بإنسان مشقة أو سوءاً أو ظلماً[2]، وأتى هنا بواو العطف مما يدل على أن سوء العذاب شيء، والتذبيح لأبنائهم شيء آخر، لأن العطف يقتضي المغايرة، وفي آية أخرى بدون واو، كما في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾[البقرة:49]، فجعل ذبح الأبناء أحد مفردات سوء العذاب، وقد كان آل فرعون يقتلون كل مولود ذكر يُولَد في بني إسرائيل، ويحرصون على إحياء المولود إن كان من النساء لاستخدامهن في الخدمة والتمتع بهن، وفي ما سبق ذكره من الإنجاء لهم، وفعل آل فرعون بهم، ابتلاء واختبار عظيم لهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لأن الابتلاء يكون بالنعمة والمحنة جميعاً[3].

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 113).

(2) ينظر: تاج العروس: (32/ 431).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 29).

وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾، واذكر يا محمد حين قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: إن ربكم قد أعلمكم ووعدكم بزيادتكم من نعمه إن شكرتم الله عليها، و"تأذَّن" من آذن، بمعنى: أعلم[1]، وأعظم الشكر في حق الله هو تحقيق التوحيد له وإفرادُه بالعبودية، واستخدام نعمه في طاعة الله، ومن الكفر بنِعم الله جحد حق الله في الألوهية والوقوع في الشرك، أو استخدام النعمة في معصية الله، فمن كفر بالنعمة فهو متوعد بسلب النعم ونزول النقم به في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨ ﴾، بيّن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه إن كفروا نعمته هم وجميع الخلق ولم يشكروها؛ فإن الله سبحانه غني عن شكرهم، ولا يحتاج إليه، ولا يلحقه بذلك نقص، بل هو مستوجب للحمد بذاته، وكثرة إنعامه على الخلق[2]، وأن أجر الشكر لهم، وعقوبة الكفر عليهم.

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ﴾، الكلام ما زال متصلاً بخطاب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه[3]، ويحتمل أن يكون من الله سبحانه لقوم

---

(1) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 150).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 115).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (16/ 529).

محمد ﷺ تحذيراً لهم عن مخالفته[1]، **والاستفهام** إنكاريٌ، لأنهم قد بلغتهم أخبارهم، فأما قوم نوحٍ فقد تواتر خبرهم بين الأمم بسبب خبر الطوفان، وأما عاد وثمود فهم من العرب، ومساكنهم في بلادهم، وهم يمرون عليها، ويُخبر بعضهم بعضًا بها، والذين من بعدهم يشمل أهل مدين وأصحاب الرس وقوم تبع وغيرهم من أممٍ انقرضوا وذهبت أخبارهم، فلا يعلمهم إلا الله، وهذا يعني أن عدد الأمم التي أهلكها الله كثيرة، ومهما حاول المؤرخون أن يُحصوها فلن يستطيعوا، وجميع الأمم السابقة قد جاءتهم رسلهم بالحجج والبراهين، ودعتهم إلى التوحيد والإيمان، فكفروا وأعرضوا عن قبول الحق، وكانوا يضعون أيديهم في أفواههم ليُغطوها من كثرة الضحك استهزاء وتكذيبًا برسلهم[2]، وأعلنوا بألسنتهم الكفر بالرسل وبما جاءوا به، وأخبروهم بأنهم يشكون في صدقهم وأنهم في ريب مما يدعونهم إليه من الإيمان والتوحيد، ووصفوا الشك بالريب مبالغة منهم في عدم تصديقهم.

وقوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾، **قالت الرسل لأقوامها:** أفي وحدانية الله شك؟! وهي في غاية الوضوح والجلاء، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، فكيف تشكّون في وحدانية الله، وهو الذي أوجد السموات

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني (3/ 115).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 196).

والأرض وخلقها على غير مثال سابق، وهو يدعوكم بواسطة رسله إلى الإيمان به وتوحيده ليغفر لكم من ذنوبكم؛ لأن المغفرة لا تكون إلا بعد الإيمان والتوحيد، **كما قال:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾[النساء:48]، ويُمتعكم بالنعم في الدنيا، ولا يعاجلكم بالعذاب حتى يأتي موعد أجلكم[1]، **فأجاب الكفار رسلهم بقولهم:** أنتم بشر مثلنا في الهيئة والصورة، تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستم ملائكة[2]، ولا فرق بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلِم تخصّون بالنبوة دوننا؟! ثم شككوا في مهمة الرسل وأنهم يهدفون من وراء ذلك إلى إبعادهم عن عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤهم، ثم طلبوا من الرسل أن يأتوا بحجة واضحة، ومرادهم بيّنة يقترحونها هم، وإلا فقد تقدّم أن رسلهم جاءتهم بالبينات الدالة على صدقهم[3].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الهدف من إنزال القرآن هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فعلّموا الناس القرآن وادعوهم إليه، ففيه هدايتهم في كل الأزمان.

2- من سنن الله تعالى في الخلق أن يرسل الرسول بلغة قومه ليكون البيان منه واضحًا لهم.

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 30).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (9/ 347).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 422).

3 – أن مهمة الرسل هي الإرشاد والدلالة إلى الحق، أما التوفيق فبيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

4 – أن من سنن الله تعالى في الخلق أن من شكر النعمة زاده الله منها، ومن كفر بها سلبها منه.

5 – أن منفعة الإيمان لصاحبه، ومضرة الكفر على صاحبه، والله غنيٌ عن العالمين.

6 – أن وحدانية الله في غاية الوضوح والجلاء، ولا يشك بها عاقل.

7 – أن المغفرة للعبد لا تكون إلا بعد الإيمان بالله.

تفسير المقطع الثاني من سورة إبراهيم

﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ
عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ
ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم
مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣
وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤
وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ
١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ
وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ
بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ
سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾.

قول الله تعالى: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾، **سبق معنا** أن الكفار امتنعوا عن الإيمان بالرسل وبما جاءت به، بشبهة أن الرسل بشر مثلهم، فردّ عليهم رسلهم هذه الشبهة، **بقولهم**: نحن بشر مثلكم، ولكن الله يتفضل على من يشاء من عباده بالنبوة والرسالة[1]، ويصطفيهم لحَمل هذه الأمانة، فهذا هو الفارق بيننا وبينكم، وبه أوجب الله عليكم الطاعة لنا، وليس الأمر إلينا ولا بمقدورنا أن نأتيكم بمعجزة وحجة على حسب طلبكم، إلا أن يأذن الله بها ويمنحنا ذلك، ويظهر أن الأقوام هددوا رسلهم بالبطش لو استمروا بدعوتهم[2]، **ولذا** تواصوا بتفويض أمورهم إلى الله، فإن التوكل على الله من لوازم الإيمان بالله، وخليق بكل مؤمن أن يتوكل على الله ويُفوض أمره إليه، فإنه من توكل على الله كفاه.

وقولــه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾، ثم حثّوا أنفسهم على التوكل على الله، **قائلين**: ما الذي يحول بيننا وبين التوكل على الله، وقد أرشدنا إلى الحق وإلى الطريق الصحيح الموصل إلى الجنة، **وفي الآية إشارة إلى** تلازم التوكل على الله مع الهداية إلى الحق، فمن توكل على الله وفقه الله للحق وهداه إليه، وأن من كان على الحق والهدى لزمه تمام التوكل على الله[3]، ثم أخبروا قومهم بأنهم

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 117).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (19/ 75).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 423).

صابرون على إيذائهم لهم، سواءً كان الإيذاء بالتكذيب وهو أذية معنوية، أو الإيذاء الحسي لهم بالضرب والطرد ونحوها، ثم بيّن أن الله هو من يفوض الأمر إليه وحده دون سواه، ولا يوجد تكرار في الأمر بالتوكل في الآيتين، بل في الأولى فيه إشارة إلى استحداث التوكل، **وفي الثانية إشارة إلى** السعي في تثبيته[1]، وأيضًا بيّن في الآية الأولى أن الإيمان أحد ركائز التوكل، فلا يتوكل على الله حق التوكل إلا مؤمن قوي الإيمان، وفي الآية الثانية بيّن أن التوكل لا يكون إلا على الله وحده، فلا يجوز التوكل على غيره.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾، **هذا القول صدر عن أكثر أقوام الرسل** المكذبين بهم، فقد هددوا رسلهم بالطرد والإخراج من بلدهم إن لم يصيروا كفاراً مثلهم، وصار هذا الأمر سنّة متّبعة للطغاة حتى اليوم مع الدعاة والعلماء المصلحين، فقد أخرجوا ونفوا عدداً كبيراً من علماء المسلمين من بلادهم لهذا السبب وأصبحوا مطاردين في الأرض، **والعجيب** أن بعض علماء المسلمين ودعاتهم طُردوا من بلدان المسلمين واستقروا في بلاد الكفار!!، **ومن حماقة الكفار** أنهم نسبوا الأرض إلى أنفسهم فقط، وكأنهم هم مُلّاكها وحدهم، ولا حقَّ للمؤمنين والصالحين فيها!، وهذا من أعظم الظلم، ثم خيّروا المؤمنين بين أمرين، وهما: الطرد من أرضهم وديارهم، أو الصيرورة إلى الكفر وترك الإيمان بالله[2]، لأن

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 31).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 119).

الرسل لم يكونوا كفاراً من قبل حتى يعودوا في الكفر، بل بقوا على الفطرة والتوحيد، وعصمهم الله من الكفر والشرك قبل تكليفهم بالرسالة، والمِلة هي السنة والطريقة المتبعة، سواءً كانت صحيحَة أو باطلَة[1]، فأوحى الله إلى الرسل حينئذ بالصبر على ابتلاء أقوامهم لهم وعدم اليأس من النصر عليهم، فالعاقبة للمتقين، وبيّن لهم أن الهلاك للظالمين واقع بهم لا محالة، وليس بالضرورة أن يكون الهلاك في الحال، بل هو مرتبط بسنّة الإمهال لهم، فإذا انتهت جاءتهم سنّة الإهلاك.

ثم قال الله: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾، **هذا من تمام وعد الله للرسل والمؤمنين** بهم وذريتهم بأن أرض الكفر ستُفتح لهم ويهلك الله أعداءهم؛ فيعيش فيها المؤمنون، وتكون تحت إِمرتهم وتصرفهم بعد هلاك الظالمين، وضمير الإشارة يعود إلى ما سبق من التمكين في الأرض للرسل وأتباعهم من المؤمنين، وإهلاك الظالمين المكذبين[2]، وهو ثمرة لخوفهم من الله في الدنيا، وخوفهم من الوقوف بين يديه يوم القيامة، وخوفهم من وعيده، وهو العقوبة والعذاب لمن خالف أمره[3].

وقوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾، **في عودة الضمير قولان للمفسرين**[4]: للرسل، ولأقوام الرسل المكذبين بهم، ولا مانع من عودته على

---

(1) ينظر: تاج العروس: (30/ 421).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 119).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 166).

(4) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 507).

الفريقين[1]، فكلٌ من الفريقين طلب الفتح والنصر على الآخر، **فالرسل قالوا:** ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[الأعراف:89]، **وطلب أقوام الرسل المكذبون** الفتحَ على أنفسهم، أو على الرسل، ظنـًا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل[2]، وكان نتيجة ذلك هو الخيبة والهزيمة والهلاك لكل جبار، وهو المتعاظم في نفسه، الذي لا يرى لأحد عليه حقـًا، والعنيد هو المخالف للحق المعرض عنه بعد أن اتضح له[3]، **والمقصود بهم هنا** المكذبون من أقوام الرسل الذين اتضح لهم الحق، فعاندوا الرسل ولم يتبعوهم، فأهلكهم الله.

وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾، الضمير يعود على من كان جباراً وعنيداً عن قبول الحق في الدنيا، فتوعده الله بجهنم أمامه وبين يديه تنتظر وصوله إليها!؛ لأن "وراء" من الأضداد، فتكون بمعنى الأمام، وتكون بمعنى الخلف، أو تكون بمعنى ما توارى عنك[4]، فكل ما غاب عنك فهو وراءك، ولا مانع من المعنيين هنا، فجهنم أمامه تنتظره، وهي مخفية عنه لا يراها إلا حين يموت، فإذا دخلها واستقر فيها صار سقاؤه ماء الصديد، وهو عصارة جلود وأجساد أهل النار من القيح والدم[5]، بسبب ما

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 484).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 167).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 330).

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 157).

(5) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 341).

ينالهم من العذاب، نسأل الله السلامة، ولا يشربه برغبة منه، بل غصباً عنه، والتجرّع هو التحسي، **أي**: يحتسيه قليلاً، مرة بعد مرة، ولا يستطيع أن يشربه مرة واحدة لشدة مرارته وحرارته[1]، ولا يكون سائغًا في حلقه، فالطعام السائغ هو الذي ينزل من الحلق بدون غصة، فلا يستطيع أن يشرب هذا الصديد باستساغة، بل بمشقة وألم، ويأتيه ألم الموت وهي أوجاعُه من كل الجهات التي حوله، ومن كل شعرة وخلية وعظم وعرق وعصب في جسده حتى يظن أنه سيموت، ولكنه لا يموت، بل يظل حيـًا حياة تعيسة في النار[2]، **كما قال**: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[طه:74]، وينتظره عذابٌ أشد غلظة من هذا العذاب، وهو الخلود في النار، **والغِلظة** من صفات الأجساد أو الأشياء المحسوسة، مثل ثوبٌ غليظ، **أي**: خشن صفيق، والمقصود به هنا القوة والشدة[3]، **وفيه إشارة إلى** تعدد وتنوّع عذاب الكفار في جهنم، لتعدّد ذنوبهم ومعاصيهم وتنوعها في الدنيا!.

وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾، **المثل هنا** بمعنى الصفة، **والمقصود بها** وصف حال ثواب أعمال الخير للكافرين يوم القيامة التي كانوا يعملونها في الدنيا من إطعام الطعام والصدقات ونحوها من أفعال الخير، بأنها تكون في الآخرة على هيئة الرماد، وهو بقايا ما يُحرق في النار من الأجسام

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 121).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 486).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 211).

فيصبح خفيفاً مسحوقاً متجمعاً في أسفل المكان، ثم يتعرّض لريح شديدة الهيجان تعصف به فيتطاير في الهواء ولا يبقى منه ذرة في مكانها، فهكذا يُصبح حال ثواب أعمال الخير من الكفار؛ لأنهم لم يُؤمنوا بالله واليوم الآخر، فلا يُكتب لهم أجرها في الآخرة، ولا ينتفعون بشيءٍ منها، لأنهم قد أخذوا أجورهم عليها في الدنيا، و"ذلك" يعود على حال عمل الكفار الذي لم يسبقه إيمان، ولو كان خيراً فإنه لا ثمرة فيه في الآخرة، بل هو انحرافٌ بعيدٌ عن طريق الحق والصواب.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾، **الاستفهام** للتقرير، والرؤية بصرية، **ويجوز أن تكون** رؤية قلبية بمعنى العلم، فكلاهما ممكن هنا، والخطاب موجّه لكل من يرى من الخلق[1]، وقد خلقها الله بالحق، **والباء** للمصاحبة، أو الملامسة، **أي:** خلقها الله مصحوبة بالحق، ولم تُخلق عبثاً، بل خُلقت لغاية وحكمة، وهذه العبارة تمهيد وتوطئة لما بعدها، فمن تفكر في خلق السموات والأرض فإنه سيتضح له عظمة قدرة الله، وأنه قادر على أن يُميت الخلق ويهلكهم ويأتي بخلق جديد غيرهم، مؤمن به ومستسلم لأمره، وليس مثلهم في الكفر والإعراض والمعصية، وهذه هي الحكمة من التبديل لهم، إذ لا فائدة من التبديل لهم بخلق كافر ومعاند مثلهم[2]، **وضمير الإشارة يعود إلى** إهلاكهم والمجيء بخلق جديد غيرهم أطوع لله منهم، فليس ذلك بممتنع على الله ولا بمعجزٍ له، فإن

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 214).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (9/ 354).

الله على كل شيء قدير، ولا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

وقولــه: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ ﴾، **ثـم أخبـر عـن حـال الخلـق يـوم القيامـة**، حـين يظهرون لله جميعـاً من قبورهم التي كـانوا مخفيين فيهـا فترة الحيـاة البرزخيـة، ويحُشرون جميعـاً مـن آدم إلـى آخـر ذريتـه في أرض المحـشر، فيحاسـبهم الله جميعـاً، ثـم يـأمر بالكـافرين إلـى النـار، فـاجتمع التـابع والمتبـوع فيهـا، فبـدأت الخصومة بين الطرفين بعد دخولهم إليها[1]، **فقال الضعفاء والأتباع** للذين غلبوا على أمرهم في الدنيا: نحن كنا نتبعكم ونسير وراءكم ونطيع أمركم في الـدنيا، فهل ستدفعون عنّا من عذاب الله اليوم ولـو شيئـاً قليلاً منه، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟!، و"مِن" الأولى بيانية، والثانيـة تبعيـضية[2]، **فقـال الكُبـراء**: لـو وفقنـا الله إلـى طريـق الحـق والإيمـان لـدعوناكم إليـه، أو لـو نجانـا الله مـن العـذاب لنجيناكم منه[3]، **وهذا اعتراف منهم** أنهم كانوا على ضلال ويدعون غيرهم إلـى الضلال، ثم أقروا بأن العذاب قد حقّ عليهم لكفرهم وإعراضهم، ولـن يُرفـع عنهم لجزعهم منه، ولا لصبرهم عليه، فلا مهرب ولا مَنجا من العذاب الـذي حكم الله به عليهم.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 488).

(2) ينظر: تفسير ابن جزي: (1/ 411).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 123).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الرسالة والنبوة اصطفاء ومِنّة من الله وفضل لمن يشاء من عباده.

2- بيان أهمية التوكل على الله للداعي إلى الله، والصبر على ما يأتيه من الأذى، فإن طريق الدعوة محفوف بالابتلاءات.

3- بيان أن الرسل وأتباعهم الصادقين موعودون بالاستخلاف في الأرض، سواءٌ قرُب الزمان أو بعُد، فالعاقبة للمتقين.

4- بيان أن الكافر لا ينتفع في الآخرة من أعمال البر لعدم إيمانه بالله.

5- بيان سوء عاقبة التقليد، وعدم الاتباع للآخرين دون دليل.

6- أن الكافر لا يجد مهربـًا ولا مفراً من عذاب الله في الآخرة.

تفسير المقطع الثالث من سورة إبراهيم

۞ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ
فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي
وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ
أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا
سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ
وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن
فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى
ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن
قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾، يخبر الله عن ما يحصل بين الشيطان وأتباعه من الجدال والخصومة بعد دخولهم جميعًا النار، والواو حرف عطف من باب عطف قصة على قصة، لأنه سبقها قصة جدال المستضعفين مع المستكبرين، والشيطان هو إبليس كبير الشياطين وقائدُهم الذي رفض السجود لآدم، حيث قام خطيبًا بين أتباعه في النار حين قُضي الأمر، وفُصِل الحساب بين الناس بالعدل والقسط، فصار أهل الجنة إلى الجنة، وصار أهل النار إلى النار، ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم وغبنًا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم(1)، فكان مما قاله لهم: إن الله قد أرسل إليكم في الدنيا الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ووعدكم عن طريق رسله إن آمنتم بدخول الجنة، وإن كفرتم بدخول النار، وقد جاءكم الرسل بالحجج والبراهين العقلية والنقلية على ذلك؛ فكفرتم بها وأعرضتم

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 489).

عنها، فهذا وعد الله لكم، وهو وعدٌ حق لا كذب فيه ولا يتخلف، ووعدتكم بخلاف وعد الرسل لكم بأنه لا جنة ولا نار، ولا بعث ولا حساب، وكنت كاذبًا فيما وعدتكم به، فصرتم إلى ما أنتم فيه، ولم يكن عندي لكم من حجة ولا برهان، ولا قهرتكم على الكفر والمعاصي، بل دعوتكم إلى الكفر بالكذب والخداع والمكر، فاستجبتم لي دون تفكر ولا نظر فيما دعوتكم إليه، و"إلا" أداة استثناء منقطع، وتكون بمعنى لكن، لأن دعوته لهم ليست من جنس السلطان المنفي[1]، **والتعبير بفاء التعقيب** يدل على سرعة استجابتهم له، والسير في طاعته فيما دعاهم إليه من الكفر والشرك بالله ونحوه من المنكرات، ثم نهاهم عن اللوم له، وهذا يدل على أن الخطبة كانت بعد حصول التلاوم والنزاع بينه وبينهم، وأمرهم أن يلوموا أنفسهم فهي الأحق باللوم؛ لأنها سارعت إلى الاستجابة للشيطان بدون تأمل ولا تفكر فيما قاله لهم، ثم أخبرهم بعجزه عن إغاثتهم وإنقاذهم من النار، وعجزهم من إغاثته وإنقاذه من النار، والمصرخ المُغيث، والصارخ المستغيث، والصراخ الصوت الشديد المرتفع، لطلب الإغاثة[2]، فلا داعي للصراخ والاستغاثة مني ولا منكم، فلا حول لنا ولا قوة للخروج من النار، ثم تبرّأ من إشراكهم له مع الله بالعبادة والطاعة في الدنيا وجحده لذلك، **فإن "ما" هنا** مصدرية عند جمهور المفسرين، وليس صادقًا في هذا القول، وإنما هو نوع من الخِداع لأتباعه في النار، ويجوز أن تكون "ما"

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 550).

(2) ينظر: لسان العرب: (3/ 33).

موصولة، **والمعنى**: إني كفرت بالذي أشركتموني معه، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أن أمره بالسجود لآدم[1]، ثم عقّب الله على خطبة الشيطان واعترافه بأن كل الظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك متوعدون بالعذاب الأليم في جهنم، والمقصود من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس الناس ليأخذوا حذرهم منه في الدنيا[2].

وقولــــه: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾، لما ذكر الله أحوال أهل النار أتبعها بذكر أحوال أهل الجنة، فأخبرنا أن أصحابها وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يدخلون جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار المتنوعة يتنعمون فيها بالنعم ولا يخرجون منها، وذكر إذن الله هنا لبيان التشريف والتكريم لهم حيث وفقهم إلى لإيمان به وأدخلهم الجنة بسببه، وتُلقى عليهم التحية، وهي السلام عليكم، **قيل**: من الله جَلَّجَلَالُهُ، **وقيل**: من الملائكة، **وقيل**: من بعضهم على بعض[3]، ولا مانع من اجتماع ذلك كله، وفي ذلك إشارة إلى إظهار التفاوت بين أحوال أهل الجنة وأهل النار، فأهل الجنة بعيدون عن المنازعة والمجادلة والخصومة فيما بينهم، بل هم في سلامة ودعة[4]، **وهنا أُسدل الستار** على قصة

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 125).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 221).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 346).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 222).

أهل النار وأهل الجنة بإيجاز حتى يتعظ بذلك العباد وينظروا في أحوالهم من أي صنف هم، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة.

وقولــــه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾، ثم بيّن مكانة التوحيد والإيمان الصحيح، ومكانة الشرك والكفر بالله، من خلال ضرب المثل لهما، وهو أسلوب من أساليب القرآن، فالهمزة للاستفهام التقريري التعجبي، والرؤية هنا قلبية؛ لأنها تحتاج إلى التأمل والتفكر، وضرب المثل هو إيضاح شيء بذكر شبيه له، فمثل الكلمة الطيبة، وهي كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، التي ينطقها المؤمن ويعمل بمقتضاها، كمثل الشجرة الطيبة، وهي النخلة الراسخة الآمنة من الانقلاع بسبب تمكنها من الأرض بعروقها، المرتفع ساقها في السماء، وفرع الشيء أعلاه[1]، تُعطي ثمرتها من الرطب والتمر في كل وقت، من ليل أو نهار، من غير فرقٍ بين شتاء وصيف، فالحين في اللغة وقت غير محدود، وقد تقترن به قرينة تحده[2]، وكلمة التوحيد أَصْلُها ثابِتٌ في قلوب المؤمنين، وأغصانها هو ما يصدر عنها من الأفعال الزكيّة والحسنة التي تصعد إلى السماء من قبل العبد، وثمارها هو الأجر والثواب الذي يأتي به الله للعبد بإذنه ومشيئته حين يطيعه ويذكره[3]،

(1) ينظر: تاج العروس: (21/ 480).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 788).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 335).

والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة: أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، **وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء:** تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح[1]، **والمقصود بالمثل هو** المؤمن، والنخلة مشبهة به، وهو مشبّه بها، **وفي الحديث:** "**إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم**"[2]، ويضرب الله الأمثال للناس وهذا أحدُها؛ ليتذكروا بها ويتعظوا منها.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾، **ومثل الكلمة الخبيثة**، وهي كلمة الكفر والشرك بالله كشجرة خبيثة، هي شجرة الحنظل عند أكثر المفسرين، ورجّح ابن عطية: أنها كل شجرة خبيثة[3]، وأن الحنظل مثال لها، وقد يكون خبثها بسبب رائحتها، أو لونها، أو هيئتها، أو طعمها، أو مضارها، استؤصلت من فوق الأرض، وما لها من ثبوت؛ لأنه لا أصل راسخ لها ولا عروق متمكنة من الأرض، والاجتثاث: قطع الشيء كله[4]؛ لأن الناس لا يتركونها تلتف على الأشجار فتقتلها[5].

وقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾، **ثم ذكر الفائدة من المثال**

(1) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 37).

(2) صحيح البخاري: (1/ 22)، برقم: (61).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 336).

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 161).

(5) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 225).

المضروب، فكما ثبّت الله الشجرة القوية بعروقها وجعل لها قراراً في الأرض؛ ثبّت الله المؤمنين بقول كلمة التوحيد في الدنيا والعمل بمقتضاها، وثبتهم بنطقها عند الموت؛ لأن بعض الناس قد لا يُوفق لقول كلمة التوحيد في تلك اللحظة بسبب ضعف إيمانه، فيموت دون أن ينطقها عند الموت، وثبتهم بقولها في القبر، وهو أول منازل الآخرة، **وقد ثبت تفسير ذلك في الحديث:** **"المسلم إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله:** ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾"[1]، وذلك حين يأتيه الملكان فيسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ، وديني الإسلام، ويحصل الضلال للظالمين المكذبين عن قول كلمة التوحيد في الدنيا والاستقامة عليها، ويضلهم الله في القبر عن إجابة الملكين، **فيقول الكافر:** ها، ها، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته[2]، وعقّب الله على ما سبق؛ بأن الله يفعل ما يشاء بالخلق من التثبيت والخذلان، لا راد لحكمه، ولا يسأل عن فعله[3]، **كما قال:** ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ [لأنبياء:23]، فهو الذي يهدي من يشاء بفضله، ويُضل من يشاء بعدله.

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾، **الاستفهام** تعجبي تقريري، **والرؤية** قلبية بمعنى العلم، والمخاطب رسول الله ﷺ، **والمبدّلون للنعمة صحّ عن ابن عباس** أنهم

(1) صحيح البخاري: (6/ 80)، برقم: (4699).
(2) ينظر: الحديث بطوله في مسند أحمد: (30/ 576)، برقم: (18614) وإسناده حسن لغيره.
(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 129).

كفار مكة[1]، ولكن المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس أجمعين، فمن قَبِل نعمة الإسلام وعمل بها وشكر الله عليها دخل الجنة، ومن ردها وكفر بها دخل النار[2]، **والمقصود بقومهم هنا** أتباعهم، فالقادة والكُبراء والسادة إذا كفروا؛ كفر أتباعهم تقليداً لهم وخوفًا منهم، والبوار في اللغة هو الهلاك[3]، **أي:** يدخلون هم وأتباعهم دار البوار، وهي جهنم، لأن كل من دخلها هلك فيها فلا ينجو منها، بل يحترقون بنارها ولا يخرجون منها، وبئس المكان مكانهم الذي يستقرون فيه.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾، وسبب دخولهم جنهم؛ لأنهم صيّروا لله أشباهًا ونُظراء من الأصنام والأوثان، وعبدوهم مع الله، والند هو المساوي والمشابه والمنافس لغيره[4]، فهؤلاء الكفار جعلوا هذه الأصنام والأوثان مساوية ومنافسة لله تعالى ليضلوا بفعلهم هذا الناس عن طريق الدين الصحيح وهو الإسلام، واللام لام العاقبة، وهي في الغالب ناتجة عن لام التعليل، فإنهم أرادوا باتخاذ الأصنام آلهة؛ إبعاد الناس عن سبيل الله، وهو التوحيد والإيمان به، فقل لهم يا محمد: استمروا في كفركم، وكلوا واشربوا من نعم الله في هذه الدنيا فترةً محددة حتى تهلكوا، وتكون نهايتكم ومصيركم إلى النار وبئس القرار.

---

(1) ينظر: صحيح البخاري: (5/ 76)، برقم: (3977).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 508).

(3) ينظر: تاج العروس: (10/ 253).

(4) ينظر: تاج العروس: (9/ 217).

وقوله: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾، **وقل يا محمد:** لعبادي الذين آمنوا، ونسبهم إلى ذاته نسبة تشريف لهم، وحُذف النون في "يقيموا" بسبب لام الأمر[1] المحذوفة، **والمعنى:** أقيموا الصلاة، وإقامة الصلاة هو أداؤها بأركانها وشروطها وواجباتها في أوقاتها كما أمر الله، وأمرهم بالنفقة، وغالباً تكون من المال، ويدخل فيها غيرها من الأمور التي يمكن بذلها لوجه الله، كالشفاعة والجاه والعلم وغيرها، وعليهم أن يفعلوا ذلك في السر والعلن، فكلاهما جائز بحسب المصلحة، **كما قال:** ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[البقرة:271]، وأن يسارعوا إلى فعل تلك الطاعات في الدنيا من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي ينتهي فيه موعد العمل ويأتي فيه موعد الحساب والجزاء، ولا يوجد فيه فداء ولا عوض ولا صداقة، **والخِلال:** جمع خُلة، وهي الصداقة[2]، فلا يغني خليل عن خليله، بل لا يغني قريب عن قريبه، **كما قال:** ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾[عبس:34-37]، وفي يوم القيامة تتعدد أحوال الناس، وعلى ضوء ذلك تُفسر الآيات التي ظاهرها التعارض، **مثل قوله:** ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:67]، بأن بعضها يكون في حال، والأخرى تكون في حال آخر.

---

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 77).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 163).

وقولـه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾، ثـم أخبرنـا عـن عظمـة قدرتـه في الخلـق والإيجـاد والتـسخير والتـذليل للمخلوقـات في منفعـة العبـاد، فهـو الـذي خلـق الـسموات بمـا فيهـا، والأرض بما فيها، وهو الذي أنزل ماء المطر من السماء فأنبت به الأشجار ذات الثمرات التي يقتات الخلق منها، **والـلام في "لكـم"** للامتنـان بهـا علـى الخلـق، وهيَّأ وذلّل السفن وجعلها تطفوا على سطح الماء، وتسير مسرعة بتسيير الرياح بـأمر الله الكـوني لهـا، ووفـق تقـديره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلّـل ويـسّر الأنهـار وجعلهـا عذبة صالحة للشرب، والـسقي للـزرع، وهيّـأ وذلّـل الـشمس والقمـر وجعلهـما يجريان باستمرار دون انقطاع بطريقة مُتقنَة ينتفـع منهـا الخلـق، وهيّـأ لهـم الليل بظلامه وهدوئه من أجل أن يناموا ويرتاحوا فيه، وهيّأ لهم النهار بضوئه من أجل العمل وابتغاء الأرزاق فيه، وأعطاهم ومنحهم مـن كـل شـيء سـألوه مـن الـنعم، وأعطاهم نعمـًا غيرهـا لـم يسألوه إياها[1]، والغالب في النعم المذكورة في الآيـات السابقة؛ أنها مما لم يسألها الخلقُ من الله، فقد خلقها وسخرها لهم قبل سـؤالهم لها منه، ثم عقّب على ذكر ما سبق من نعمه بأنها كثيرة ولا تطيقـوا عـدها وبلـوغ آخرهـا، هـذا إذا أرادوا أن يعـدوها علـى الإجمـال، يـستطيع العبـاد عـدها علـى الإجمال، وأما على التفصيل فلا يعلمها إلا الله[2]، **والفرق بين العَد والإحـصاء:**

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 132).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 175).

أن الإحصاء أبلغ من العد، فالعد معرفة العدد إجمالاً، والإحصاء معرفة تفاصيل وصفات المعدود، ثم بيّن أن من طبع الإنسان المشرك[1] أنه كثير الظلم لنفسه، كثير الجحود لنعم الله، أما الإنسان المؤمن فقد هذّبه الله بالإيمان ورفع عنه هذه الصفات بالتقوى والتوبة، ومع ذلك أمهل الله الخلق ولم يُعاقبهم على ظلمهم لأنفسهم وجحودهم لنعم الله التي يعيشون فيها ليل نهار، لعلهم أن يتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان اعتراف إبليس بخداع الخلق بعد دخوله النار، وأنه كان كاذبًا فيما يعِدُهم به.

2- بيان فضل كلمة التوحيد، وأن مثلها كالشجرة الطيبة والثمرة الحسنة.

3- بيان نعمة الله على المؤمنين بتثبيتهم على كلمة التوحيد في الدنيا وفي الآخرة.

4- بيان أهمية فريضة الصلاة وفريضة الزكاة، وأنهما من أعظم شعائر هذا الدين بعد التوحيد.

5- أن تعداد النعم والتعرّف عليها يدفع العبد إلى شكر ربه عليها.

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 39).

تفسير المقطع الرابع من سورة إبراهيم

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ
إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ
أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا
نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ
لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن
ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا
تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾
مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ
ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ
تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدۡ
مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا
تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾

سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ
ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾﴾، **يُخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين دعا ربه بأن يُصيِّر مكة بلداً آمنًا، والمقصود بذلك أهلها[1]، **واسم الإشارة** للتعريف، وهو يدل على أن الدعاء صدر من إبراهيم في مكة، فقد أشار إليها إشارة القريب منها، فقد خرج بزوجته هاجر مع ولده إسماعيل من الشام بعد أن غارت منها زوجتُه سارة، وأمره الله تعالى أن يُسكنها وولدها في مكة، فأتى بهما إليها، ثم دعا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، **فقال:** ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾[البقرة:126]، ثم لما بنى البيت دعا بهذا الدعاء مرة أخرى، تأكيداً ورغبة إلى الله[2]، وقدّم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن عن العبد لم يفرغ لشيء آخر من أمور الدين والدنيا[3]، كما طلب من ربه أن يباعده ويباعد أبناءه الذين من صلبه عن عبادة الأصنام، وأن يثبتهم على اجتناب عبادتها[4]، فقد كانوا غير عابدين لها من قبل، والصنم كل ما صوُّر على شكل مخلوق، وما ليس بمصوّرٍ فهو وثن[5].

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 39).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 513).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 134).

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 164).

(5) ينظر: تفسير الرازي: (19/ 102).

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، ثم بيّن ضرر عبادة الأصنام على الخلق، فقد وقع الضلال لكثير من المشركين بسبب الافتتان بعبادتها من دون الله[1]، فظنوا أنها تضر وتنفع من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم بيّن علاقته بمن حوله من الخلق، فمن تبعه منهم على توحيد الله والعمل الصالح وسار على طريقته ومنهجه في ذلك؛ فإنه من أوليائه، ومن خالف ما هو عليه من التوحيد والعمل الصالح فأوكل أمره إلى الله، والله غفور رحيم بمن تاب ورجع عن الشرك من الخلق، لأن النصوص الشرعية القاطعة تدل على أن من أشرك بالله لا يُغفر له، أو أن يكون معنى العصيان ما دون الشرك، فيكون طلب لهم المغفرة والرحمة من الله لمعاصيهم تلك[2]، وهذا من رحمته وشفقته بالخلق، ويشبهه بهذه الصفة نبينا محمد ﷺ، فإنه لم يدعُ على من خالفه من قومه، بل ترك أمرهم إلى الله، لعل الله أن يهديهم ويتوبوا فيغفر لهم.

وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، ونادى ربه بضمير الجمع من باب تنويع الخطاب والتلطف بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مبينًا لربه، وهو أعلم منه، بأنه قد أسكن زوجته هاجر وولده إسماعيل في وادٍ، وهو المسيل بين جبلين من جبال مكة، ووصفه بأنه لا زرع فيه، لأنه صحراء لا

(1) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 355).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 175).

مياه فيها، بجوار البيت الحرام، وهو الكعبة، الذي بناه إبراهيم بمساعدة ابنه إسماعيل عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، ووُصف البيت بالمُحرم؛ لأنه يحرم فيه ما يستباح في غيره من الأماكن كالقتال ونحوه[1]، **ثم بيّن علّة إسكانهم بهذا المكان**، وهي إقامة الصلاة، وطلب من ربه أن يصيّر قلوب المسلمين من الخلق تحِن وتتشوق إلى الذهاب إلى مكة، وقد استجاب الله دعوته، فما من مسلم اليوم إلا وقلبه يحِن وينزِع إلى البيت الحرام، ويتمنى ويدعو الله بذلك، وطلب من ربه أن يرزق كل من سكن في مكة من أجناس الثمرات المتنوعة والمتعددة، وقد استجاب الله لخليله إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ الدعوة، ولذلك توجد في مكة في كل الأوقات أنواع شتى من الفواكه والثمرات قلّ أن توجد في مكان آخر، ليس لأنها تُزرع فيها وإنما لأنها تُستورد إليه، أو يجلبها الحجاج والمعتمرون معهم، **كما في قوله**: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[القصص:57]، **وبيّن أن العلّة** من إكرامهم بهذه النعم هي أن يُوحدوه ويعبدونه سبحانه.

وقولـــه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾، **ثم أثنى على الله بذكرِ علم الله المطلق**، وتوسل إليه به، فإنه يعلم ما نسر ونخفي في نفوسنا عن الخلق، وما نعلنه ونظهره للخلق، فكما لا يخفى على الله شيء من أمرنا؛ فإنه لا يخفى عليه شيء من أمر الكون كله، فقد أحاط علمه بكل شيء، وذكر الأرض والسماء هنا كناية عن الكون كله.

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 135).

وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾، ثم حمد الله على نعمة خاصة، وهي منحه الولد بعد كبر سنه، فإن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مكث عمراً طويلاً حتى بلغ الثمانين، وليس له ولد، فدعا الله أن يرزقه الولد، فاستجاب الله له، ووهبه المولود الأول وهو إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، من زوجته الثانية هاجر القبطية، وقد بلغ من العمر ستاً وثمانين سنة، ثم وهبه المولود الثاني، وهو إسحاق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، من زوجته الأولى سارة، وقد بلغ من العمر مائة سنة[1].

وقوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾، ثم طلب من ربه أن يمنحه الثبات هو وذريته على إقام الصلاة وأدائها على أكمل وجه، و"مِن" هنا بيانية؛ لأن الدعاء عام لجميع الأبناء، كما طلب من ربه أن يقبل عبادته كلها، والدعاء منها، **وفي الحديث**: **"الدعاء هو العبادة"**[2]، ثم دعا الله أن يغفر له ولأبيه ولأمه، أما أبوه فقد ظهر له منه الشرك فتبرأ منه، وكان هذا الدعاء من إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قبل أن ينهاه الله عن الدعاء لوالده المشرك[3]، **كما قال**: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾[التوبة:114]، وأما أمه

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 243).

(2) مسند أحمد: (30/ 297)، برقم: (18352)، سنن أبي داود: (2/ 76)، برقم: (1479)، وإسناده صحيح.

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 793).

فلم يُذكر أنه نُهي عن الدعاء لها، فلعلها توفيت قبل نبوته[1]، أو أنها كانت من المؤمنين به[2]، ثم دعا لعموم المؤمنين به ولمن آمَن بالرسل بعده، وأشار إلى موعد المغفرة الحقيقي، وهو يوم القيامة حين يقف الناس للحساب بين يدي الله، فهناك تظهر ثمرة المغفرة، فينجو العبد من الحساب.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾، **الخطاب لرسول الله** ﷺ، **والمقصود** به أمته، والحسبان هو الظن[3]، **والمعنى:** لا تظنوا أن الله حين يُمهل المشركين والمجرمين أنه غافلٌ عنهم، ولكنه يُمهلهم، فالإمهال سنّة كونية يُعطيها الله للكفار والعصاة لعلهم أن يتوبوا، ثم بيّن الحكمة من إمهالهم، وهي تأخير عقوبتهم إلى يوم القيامة، وهو يوم شديد الأهوال، تُفتَح فيه الأعين ولا تغمض من شدة الفزع والخوف فيه، وهم يسيرون مسرعين إلى المحشر، رافعين رؤوسهم إلى السماء بأبصار شاخصة، لا يرجع إليهم بصرهم فينظروا إلى أنفسهم[4]، وتكون قلوبهم خاوية قد خرجت من مكانها من شدة الفزع، **كما قال:** ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾[غافر:18]، وعقولهم فارغة تائهة لا تدري ماذا تفعل من شدة أهوال يوم القيامة[5]، وفي الآية تسلية للمظلوم وتهديد للظالم.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (13/ 245).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 358).

(3) ينظر: لسان العرب: (1/ 314).

(4) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 178).

(5) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 517).

وقولــه: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ ﴾، **الخطاب لمحمد** ﷺ، حيث أمره بأن يخوّف الكفار من أهل مكة وغيرهم بيوم القيامة، حين يرون العذاب فيطلبون من الله أن يردهم إلى الدنيا، وأن يمنحهم فيها وقتًا قصيراً من الزمن لكي يؤمنوا بالله، ويتبعوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم، وهو طلب لن يتحقق، فلا يمكن للإنسان بعد الموت أن يرجع إلى الدنيا، ثم ذكّرهم بما كانوا يعتقدون في الدنيا من إنكارهم للبعث والنشور والجنة والنار، وأنهم كانوا يحلفون الأيمان من قبل أن يروا العذاب بأنهم لن ينتقلوا من الدنيا إلى الآخرة[1]؛ لأنه لا يوجد بعث ولا نشور ولا حساب، **كما في قوله:** ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[النحل: 38].

وقولــه: ﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾، وقد سكنتم في الدنيا مساكنَ من قبلكم من الأمم التي كفرت بالله، كقوم عاد وثمود وغيرهم، وظهر لكم من خلال أخبارهم وآثارهم كيف أهلكهم الله بالعقوبات والعذاب الشديد بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم برسله، وقد ضرب الله لكم أمثالاً كثيرة في كتبه وعلى لسان رسله، بيّن فيها عاقبة المكذبين، ولم يحصل منكم الاتعاظ والعبرة بتلك الأمثال، فلا فائدة من عودتكم إلى الدنيا مرة أخرى، فقد كنتم فيها من قبل ولم يحصل منكم الإيمان رغم وجود الحجج والبراهين الموجبة لحصوله.

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 178).

وقولــــه: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾، وقد استفرغ الكفار جهدهم في التكذيب بالرسل والمؤمنين بهم وأذيتهم، ورد الحق والصد عنه بأساليب كثيرة ومتنوعة، وما حصل لرسولنا محمد ﷺ وأصحابه نموذج لذلك، فالسيرة النبوية مليئة بأفعالهم القبيحة ضدهم، ولكن الله كان يعلم ما يفعلونه من المكر ومُطلع عليه، فلا يخفى عليه شيء، وجزاء مكرِهم عند الله، فلن يفلتوا من عذابه وعقوبته بالماكرين، ثم بيّن حال مكرهم مع الحق، **وفي معناه قولان للمفسرين**[1]، **القول الأول:** أن تكون "إن" هي المخففة من الثقيلة، و"كان" تكون بمعنى كاد، واللام في "لِتزول" لام التوكيد، **فيكون المعنى:** وإن كاد مكرُهم من شدته وقوته لتزول منه الجبال مع قوتها، ولكن الله ثبَّت المؤمنين على دينهم، **والقول الثاني:** أن تكون "إن" بمعنى ما النافية، واللام في "لِتزول" لام الجحود، **والمعنى:** وما كان مكرُهم لتزول منه الجبال لضعفه، فشبّه ما جاءت به الرسل من الحق في قوته ورسوخه بالجبال الراسية فمهما مكروا به فمكرهم ضعيف لا يؤثر فيه، والسياق يرجح القول الأول، وما زال هذا المكر مستمراً بالإسلام والدعوة إليه من أعداء الإسلام حتى اليوم، ودين الإسلام لا يزال ثابتًا ثبوت الجبال الراسية.

وقولـه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾، **والخطاب وإن كان خاصّاً بالنبي** ﷺ، فهو موجَّه لعموم الأمة، فإن الله لا يخلف الرسل ما وعدهم به من النصر والتمكين وهلاك المكذبين بهم، وقدّم

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 795).

"وعده" على "رسله"؛ لعمومه، فالله لا يُخلف وعده مطلقًا، فكيف يخلف وعده لرسله، وهم صفوة خلقه؟![1]، والله عزيز لا يقف أمام قوته شيء، وهو ذو انتقام بمن يستحق الانتقام من أعدائه، وهذه من صفة المقابلة التي لا تُطلق على الله إلا مقيدة بمن يستحق، كالمكر والخداع ونحوها.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾، واذكر لهم يوم القيامة الذي تبدّل فيه الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات، **وفي معنى التبديل قولان**[2]، **الأول:** أن يكون تبديل صفات، فتغيّر هيئة الأرض المعروفة بهيئة أخرى، فتكون بلا جبال ولا أودية، وتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وتغيّر هيئة السموات فتنُزع منها الكواكب ويغيّر شكلها وتصير كالمهل، **والثاني:** أن يكون تبديل ذات، فتغيّر الأرض بأخرى، والسموات بأخرى يخلقها الله، **والراجح الثاني** لموافقته لظاهر الآية، **ويعضده الحديث:** **"يُحْشرُ الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عَفْراءَ كَقُرْصَةِ النَّقيّ ليس فيها معلم لأحد"**[3]، وهو مذهب أكثر المفسرين[4]، وفي ذلك اليوم يظهر الخلق ويخرجون من قبورهم التي كانوا مخفيين فيها، ويقفون في أرض المحشر بين يدي الله الواحد، المنفرد بالألوهية والملك والسلطان، فالخلق كلهم تحت قهره وسلطته.

---

(1) ينظر: تفسير الرازي: (19/ 111).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 143).

(3) صحيح البخاري: (8/ 109)، برقم: (6521).

(4) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 517).

وقولــه: ﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠ ﴾، **والخطـاب للنبـي** ﷺ، والكـل يـرى المجـرمين في سـاحة المحـشر، **وفي معنـى مقـرّنين عـدة أقـوال**[1]: مقيـدين بـأغلال الحديـد الشديدة، قد جمعت اليدان مع الرجلين وغُلت إلى الرقبة، أو يقيّد كل شخص مع قرينه من الشياطين، أو يقيّد كل إنسان مع من يشبهه من المجرمين، ولا مانع من اجتماع هذه المعاني كلها لعدم تعارضها، وتكون ثيابُهم التي يلبسونها في النار مـن القطـران، وهـو الزيـت الأسـود الـذي تُـدهن بـه الجمـال المـصابة بـالجرب، وخص القطـران بالـذكر لأنـه سريع الاشـتعال بالنـار مع نـتن رائحتـه[2]، فيـزداد بـذلك عـذابهم وتـشتعل بهـم النـار وتحـرق وجـوههم الكالحـة وتُغطيهـا بلهبهـا الشديد من جميـع الجهـات، وخـص الوجـوه بالـذكر لأنهـا أشرف مـا في البـدن، وفيهـا الحـواس المدركـة التـي لـم يـستفيدوا منهـا في معرفـة الحـق في الـدنيا، فـإذا عُذبت وأُحرقت الوجوه فغيرها من باب أولى وأحرى[3].

وقولــه: ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١ ﴾، **الـلام** لام العاقبة، **أي**: أن الله يبعث الخلق يوم القيامة ويحاسبهم مـن أجـل أن يجـازي كل نفس بما تستحقه على كسبها في الدنيا مـن إيمـان وطاعـة، فيثيبهـا بالـجنـة، أو

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 521).
(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 142).
(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 428).

من كفر ومعصية، فيعاقبها بالنار، والله سريع المحاسبة للخلق، فيحاسبهم كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، لأنه يعلم كل شيء عنهم، ولا يخفى عليه منهم خافية[1].

وقوله: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢ ﴾، **اسم الإشارة** يعود إلى القرآن الكريم كله[2]، **والبلاغ** اسم يقوم مقام التبليغ، **أي:** إنزال القرآن وما فيه من المواعظ لِيُبَلَّغ به الناس[3]، وفيه كفاية في التذكير والموعظة[4]، **واللام** لام كي، **أي:** لكي ينذروا بما سمعوا من القرآن، **والإنذار هو** التخويف، فالقرآن وسيلة كافية للإنذار والتخويف للكفار المعرضين عن الإيمان، ولكي يستدلوا بما جاء فيه من البراهين والحجج على أن الله هو المستحق وحده للألوهية ولا إله يعبد بحق سواه، ولكي يتعظ به العظة التامة أصحاب العقول والقلوب السليمة التي تسمعه وتفهمه فتعمل به وتتعظ بمواعظه.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 523).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 57).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 524).

(4) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 568).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان مكانة مكة المكرمة، وأن الله شرفها، واستجاب دعاء إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لأهلها.

2- بيان خوف الرسل والأنبياء من الوقوع في الشرك، ودعاء الله أن يثبتهم على التوحيد.

3- بيان استحباب الثناء على الله قبل الدعاء.

4- بيان أهمية الدعاء بصلاح الأبناء والذرّية، وأنه من وسائل التربية الصحيحة.

5- بيان أحوال الظالمين وعقوبتهم يوم القيامة للتحذير من مشابهتهم.

6- بيان شدة مكر الكفار بالمؤمنين، واستمرارهم في محاربة الإسلام وأهله، وأن الله لهم بالمرصاد.

7- بيان أن القرآن وسيلة كافية للبلاغ المبين، وموعظة لذوي القلوب السليمة.

تفسير جزء الحِجر

(14)

تفسير سورة الحِجْر

تفسير المقطع الأول من سورة الحِجْر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ
مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ
أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾
وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا
ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ
يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ
بُرُوجٗا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ
ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ
شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا

عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الحِجر؛ سورةٌ مكية[1]، **والمقصد العام لها** بيان عُقوبة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للمستهزئين بالقرآن الكريم.

وابتدأت بقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾﴾، وهي من السور التي افتتحت بالأحرف المقطّعة، وهي من أحرف الهجاء للغة العرب، **والقرآن الكريم مكوّن** من هذه الأحرف، **وأن العرب** لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، وهم أهل البلاغة والفصاحة، **وفي ذلك إشارة** إلى إعجاز القرآن، **و"تلك"** إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، **ثم وصف الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ القرآن** بأنه كتاب وقرآن مبين، فهو **كتاب** لأنه مكتوبٌ، **وقرآن** لأنه مقروء، **ومبين** لأنه واضح بيّن الأحكام والتشريعات، **وتنكير** القرآن للتفخيم، **والمعنى:** تلك آيات الكتاب الكامل الجامع للكمال والغرابة في البيان[2].

وقوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾﴾، **"ربَّما" فيها**

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 524).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 569).

قراءتان: بالتشديد، وبالتخفيف[1]، وتفيد التقليل، وقد دخلت على فعلٍ مضارعٍ يُراد به الاستقبال، **والمعنى:** سيندم الذين كفروا على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا من المسلمين، **وقد اختلف المفسرون**[2] **في الوقت الذي يتم فيه هذا التمني، فقيل:** عند الموت، **وقيل:** في المحشر إذا رأوا كرامة المؤمنين وذلّ الكافرين، **وقيل:** إذا دخل المؤمن الجنة والكافر النار، **وقيل:** حين يخرج عُصاة المؤمنين بشفاعة الشافعين، ولا مانع أن يتكرر منه هذا التمني في هذه المواقف كلها من شدة ما يرى، **وهذا يُشير إلى بطلان ما عليه الكفار اليوم**، فلا يجوز للمسلم أن يغتر بما هم عليه من النعم، فلو كان ما هم عليه خيراً؛ لما تمنوا أن يكونوا مسلمين في الآخرة.

وقوله: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ ﴾، **ثم أمر الله رسوله محمداً** ﷺ أن يتركهم يأكلوا من رزق الله ويتمتعوا به، ويشغلهم الأمل الباطل عن الإيمان حتى يفجأهم الموت وهم باقون على كفرهم، وحينئذ سوف يعلمون إلى أين مصيرهم، ويرون بأعينهم عقوبة كفرهم وإعراضهم، وفي الآية تهديد ووعيد شديد لهم.

وقوله: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥ ﴾، **يخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه لا يُعذّب أهل قرية كافرة بالله إلا بعد أن يُرسل إليهم الرسل، ويُنزل إليهم الكتب، ويستفرغوا وقتهم ومهلتهم

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 59).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 523).

التي أعطاها الله لهم، وأن هلاكهم يكون بأجل محدد معلوم عند الله، فلا يتقدم ولا يتأخر هلاك أمة عن وقتها المحدد لها والمكتوب في اللوح المحفوظ، وهكذا كل إنسان قد كُتب له أجلُه المحدد، فلا يُمكن أن يتقدم عنه ولا يتأخر، بل يموت في وقته المحدد، **ومن أمثلة ذلك:** أن أحد العمال سقط من عمارة مرتفعة أثناء العمل إلى الأرض، وقام سليمًا معافىً لم يُصب بشيء، فأدخله زملاؤه على مكتب المقاول ليُبشروه بسلامته، فأمره أن يذهب ليشتري عصيراً من بقالة في الشارع المقابل لهم، ويوزعه على زملائه بهذه المناسبة؛ فخرج مسرعًا وقطع الشارع فجاءت سيارة فصدمته فمات!، سبحان الله! سلّمه الله من الموت بسبب السقوط من أعلى؛ لأن وقت أجله لم يحن، وبقي له منه دقائق معدودة، ولأن السبب المقدّر لموته ليس السقوط، بل سبب آخر.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ مَّا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾، **وقال كفار قريش لمحمدٍ ﷺ:** يا أيها المدّعي أنه نزل عليه ذكرٌ في زعمه، وهو القرآن، وخاطبوه بالوصف ولم يخاطبوه باسمه، احتقاراً له واستخفافًا به، وما أنت في نظرنا إلا مجنون؛ لأنه لا يدّعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندنا من كان عاقلاً!، ثم طلبوا منه على سبيل التعنّت برهانًا على صدق دعواه، وهو أن يأتيهم بالملائكة تشهد له عندهم أنه رسول من الله حقًا، وأنه من الصادقين في دعواه، **و"لوما"** بمعنى لولا، **أي:** هلّا، ويستعملان في الخبر والاستفهام(1).

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 84).

وقوله: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾، ردّ الله على طلبهم هذا: بأنه لا يُنزّل الملائكة بناءً على طلب الكفار ولا على اقتراحهم، وإنما يكون تنزيلها مُتلبساً بالحق والحكمة التي جرت عليها السنن الإلهية(1)، وهو العذاب لمن استحقه من الكفار، ولو تنزّلت الملائكة بإهلاكهم لما أمهلوا ولا قُبلت لهم توبة(2)، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلاً بهلاك أنفسهم.

وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾، أخبر سبحانه أنه تكفّل بإنزال القرآن الكريم وحفظه في حال إنزاله وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حفظه من استراق كل شيطانٍ رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله ﷺ، ثم في قلوب أمته من بعده، وحفظ الله ألفاظه من التغيير والزيادة والنقص فيها، وحفظ معانيه من التبديل والتحريف، فلا يحرّف محرّف معنىً من معانيه إلا وقيّض الله له من يبيّن الحق المبين(3)، فتحقّق وعد الله على مرّ الأزمان بحفظه، بينما التوراة والإنجيل حرّفها أصحابُها وبدّلوا وغيّروا فيها؛ بسبب أن الله أوكل إليهم حفظها، كما قال: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[المائدة:44]، فأمرهم الله أن يحفظوها، ففرّطوا في ذلك، بل حرّفوها واشتروا بها ثمناً قليلاً، أما القرآن الكريم فسيبقى محفوظاً بحفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له إلى قيام الساعة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 147).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 4).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 429).

﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾، **خاطب الله رسوله محمداً** ﷺ، تسلية له مما وصفه به الكفار من الجنون استهزاءً به، بأنه قد سبقك رسلٌ كثير أرسلهم الله في الأمم السابقة، وما أتى أمة من الأمم قبلك من رسول إلا كفرت واستهزأت به، وفعلت به كما فعل بك قومك، فلا تحزن لذلك، فهذه هي عادة الكفار من قديم الزمان مع أنبيائهم ورسلهم. **والشيع:** هي الجماعات المترابطة المتفقة كلمتهم[1] التي يناصر بعضهم بعضاً.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾، **الكاف** للتشبيه، والمُشبّه هو تكذيب قريش لك، **والمُشبَّه به هو** تكذيب الأمم السابقة، فكما كذّبت الأمم السابقة بما أُنزل إليهم من كتب، فقد كذّبت قريش بالقرآن الكريم، **والضمير في "نسلكه"**، عائد على التكذيب والشرك[2]، فكما أدخل الله التكذيب في قلوب الأمم السابقة؛ أدخل التكذيب والشرك في قلوب كفار قريش، فلا يؤمنون بالقرآن الكريم؛ بسبب إعراضهم وعنادهم له، وهذا من خذلان الله لهم، وليس في هذه الآية حجة للجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على فعله، وإنما من سار في طريق الضلال؛ أضله الله، **كما قال:** ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:5]، ومن سار في طريق الهداية؛ هداه الله، **كما قال:** ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾[محمد:17]، **وعلى هذا الأمر** مضت وجرت السنّة في الأولين، وهي سنّة الهلاك للمكذّبين بالرسل من

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 49).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 527).

الأمم السابقة، كقوم عاد وثمود غيرهم من الأمم[1]، وفي ذلك تهديد ووعيد لكفار مكة بأن يُنزل بهم من العذاب مثل ما نزل بالأمم السابقة المكذبة للرسل.

وقولــه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾، ولـو اسـتجبنا لطلبـاتهم واقتراحـاتهم في إنـزال الآيات والمعجزات؛ ففتحنا عليهم بابـاً إلـى الـسماء، وأمرنـاهم بالـصعود إليهـا من خلاله؛ فصعدوا منه إلى السماء، ونظروا فيها إلى الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله لما آمنوا؛ لعنادهم وكفرهم، **ولقالوا:** إن أبصارهم قد حارت، ووقع بها من فساد النظر، مثل ما يقع للرجل السكران من تغيير العقل، وفساد النظـر، وأن محمداً قد سحرهم، وأثّر فيهم سحره[2]، **وفي هذا بيان** لعنادهم واستكبارهم عن معرفة الحق مع وضوح أدلته لهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾، **ذكــر بعــضاً مــن مظاهر قدرته وعظمته** في خلقه البديع، ليستدل بذلك على وحدانيته، والبروج جمع بُـرج، **وهـي** القـصور والمنـازل، والمـراد بهـا هنـا منـازل الـشمس والقمـر والنجـوم الـسيّارة التـي زيّـن الله بهـا الـسماء الـدنيا، وسـمّيت بروجـاً لظهورهـا وارتفاعهـا[3]، وجعلها مضيئة في الليل فتُعطي جمالاً للسماء بضوئها، ويرى هذا الجمال كـل نـاظر

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 71).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 50).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 150).

إليها ببصره، أو متفكر فيها بعقله، وقد حفظ الله أخبار السماء من استراق الشياطين للسمع بالنجوم المُعدّة لرجمهم بها لو اقتربوا منها، **و"إلا" هنا** استثناء منقطع[1]، **والمعنى:** لكن من حاول أن يسترق السمع من الشياطين يُرمى بشهاب، والشهاب في اللغة النار الساطعة[2]، فيلحقه أحياناً فيقتله قبل أن يُلقي الكلمة إلى الكاهن، وأحياناً يقتله بعد أن يُلقيها له، **وفي الحديث:** **"إن الملائكة تتحدّث في العنان، أي: الغمام، بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتقرّها في أذن الكاهن كما تقرّ القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة"**[3].

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ١٩﴾، ومن مظاهر قدرته وعظمته أنه خلق الأرض وجعلها ممدودة، والمد هو مد الطول مع العرض، **أي:** بسطها[4] ووسعها سعة تكفي سكانها من الناس والحيوانات، وجعلها مكاناً هادئاً مستقراً للحياة، وثبّتها بالجبال الرواسي حتى لا تضطرب، وجعل تربتها صالحة للإنبات عند نزول الأمطار عليها، وجعلها تنبت أنواع الحبوب والثمرات والزروع النافعة بالمقدار الذي يحتاج إليه الناس والحيوان، وبالقدر الذي يكفي أهل الأرض وينتفعون به، وحين يتدخّل الإنسان في تغيير هذا المقدار فإنه يُفسد ميزان الله في الخلق والإيجاد، وبسبب ذلك تحصل الكوارث والمجاعات.

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 10).

(2) ينظر: شمس العلوم، لنشوان الحميري: (6/ 3564).

(3) صحيح البخاري: (4/ 125)، برقم: (3288).

(4) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 52).

وقولــــه: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾، وجعلنـــا في الأرض أسباب المعيشة من المياه، والمناخ المناسب، والاستقرار، والتربة، ووسائل البناء والراحة، وما تنتفعون به من الخدَم، والحشم، والحيوان، ومن أنواع المكاسب والحرف ونحوها، بخلاف غيرها من الكواكب، كالمرّيخ ونحوه الذي يصعدون إليها اليوم فلا يوجدون فيها وسائل للحياة، فلا يقدرون على العيش فيها، أما الأرض ففيها وسائل المعيشة كلها، وقد أنعم الله على البشر بعبيدٍ، وإماءٍ، وأنعامٍ فيها منافعهم ومصالحهم، وليس عليهم رزقها[1].

وقولــه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾، ومــن كل شيء خلقه الله فعنده خزائنه، ويشمل ذلك كل النعم من الصحة، والمال، والجاه، والمطر ونحوها، **وقيل:** هو المطر، واللفظ أعمّ[2]، فيدخل ضمن تلك النعم، وما ينزل الله من تلك النعم إلى أهل الأرض ينزله بقدر معلوم عنده بما تقتضي حكمته في ذلك التقدير ووفق ما ينفعهم ويصلح به حالهم، فلا يزيد على ما قدره الله ولا ينقص منه.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢﴾، **ومن مظاهر قدرة الله وعظمته**؛ أنه يرسل الرياح لواقح، جمعُ لاقحة، **ولها تلقيحان**[3]، **الأول:** تُلقح النبات بحيث تحمل ذرّات اللقاح من

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 430).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 804).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 38).

شجرة إلى شجرة، وبسبب ذلك يحصل الثمر، **والثاني**: تُلقح السحب برياح رطبة فيتكثف السحب بسببها وينزل منه ماء المطر، فجعله عذبًا صالحًا للشرب، يشرب فيشربون منه، ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم، وليس لهم قدرة على الاحتفاظ به مطلقًا، بل إن الله هو الذي حفظه لهم في باطن الأرض في الآبار والعيون والأنهار، فيشربون منها على مرّ السنين[1].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾، ومن مظاهر قدرة الله وعظمته؛ الإحياء والإماتة، فإنه يُحيي الأموات كلهم، ويُميت الأحياء كلهم، فإذا أمات كل الخلق؛ فلا يبقى في الأرض أحد إلا الله سبحانه، فيكون هو الوارث لجميع خلقه؛ **لأن الورث هو**: تَمَلَّك ما كان يملكه الميت قبله، وأملاك الخلائق تبطل وتزول بموتهم، ويبقى المُلك خالصًا لله وحده[2].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾، **ومن مظاهر قدرته**؛ إحاطة علمه بالخلق عامة، فقد علم بالأمم البائدة، وعلم بالأمم الحاضرة، وعلم المتقدم منهم إيمانًا وهجرةً، وعبادةً وطاعةً، وولادةً وموتًا، ونحوها من أحوالهم، وعلم المتأخر في ذلك، **وقد وردت أقوال للمفسرين**[3] في نوع التقدم والتأخر، **والراجح** العموم، وما ذكروه فهو من باب التفسير بالمثال، **ثم بيّن** أن الذي أوجد الحياة الأولى للخلق

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 531).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 586).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 156).

قادر على إيجاد الحياة الثانية لهم من باب أولى، وقادر على بعثهم وحشرهم بين يديه يوم القيامة، وعلّل ذلك كله بأنه حكيم عليم، حكيمٌ في أفعاله يضع الأشياء في مواضعها، وينزلها منازلها، وعليمٌ بأحوال الخلق، فلا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم، فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لأن الجزاء هو المقصود من حشرهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان انشغال الكفار في الدنيا بالماديات حتى يفجأهم الموت وهم على ذلك.

2- بيان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُهلك أمةً إلا في موعدها المحدد لها، فلا تتقدم ولا تتأخر عنه.

3- بيان أن الله تكفّل بحفظ القرآن الكريم عند تنزيله وبعده، من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص.

4- أهمية التأمل والتدبر في مظاهر قدرة الله في مخلوقاته في الكون، وأثر ذلك في زيادة الإيمان.

5- بيان أن الأرزاق مُقدرة عند الله لكل الخلق، وتكفّل الله بأن يكفيهم منها.

6- بيان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هيّأ الأرض وبسطها وأوجد فيها ما يجعلها صالحة للمعيشة، بخلاف غيرها من النجوم والكواكب.

7- بيان إحاطة علمه بالخلق كلهم، فهو عليم بأحوال الأمم البائدة، وأحوال الأمم الحاضرة، فلا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم، فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

تفسير المقطع الثاني من سورة الحِجْر

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ (٢٦) وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ
ٱلسَّمُومِ (٢٧) وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ
مَّسۡنُونٖ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣١) قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا
تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ
مَّسۡنُونٖ (٣٣) قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ
رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ (٣٨)
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ
ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ
سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ
لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ (٤٤) إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ
ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمۡ
فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ
عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ (٥٠)﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾﴾، **يُخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه خلق الإنسان، **والمقصود به هنا** آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقد خلقه من ترابٍ خُلط بالماء حتى صار طيناً، ثم تُرك فترة من الوقت حتى أسودّ وتغيّرت رائحته، ثم تركه فيبس فصار له صوت حين يُقرَع، فهذه مراحل خلق آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فالتراب لما بلّ صار طيناً، فلما أنتن صار حمأً مسنوناً، فلما يبس صار صلصالاً، **وأصل الصلصال:** هو الحمأ المسنون، ولهذا وصف بهما معاً[1]، **وفي الحديث:** **"إن الله** عَزَّوَجَلَّ **خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك"**[2]، **ولذا** كان بنو آدم متجانسين مع الأرض كلها، يعيشون في السهل وفي الجبل، وفي حرها وبردها، وتوجد فيهم الشدة والسهولة بحسب نوع التراب الذي تحوّل بعد ذلك إلى جينات وصفات في الإنسان.

وقوله: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾، **والجَان المقصود به هنا** أبو الجن، وهو قول عامة المفسرين، وسُمِّي جاناً لتواريه عن الأعين[3]، وخلقه الله قبل آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[4]، ونار السموم هي التي لا دخان فيها من شدة حرارتها

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 156).

(2) مسند أحمد: (32/ 353)، برقم: (19582)، سنن أبي داود: (4/ 222)، برقم: (4693)، وإسناده صحيح.

(3) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 598).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 359).

واشتعالها[1]، **وسُميت سمومًا** لدخولها بلطف في مسام البدن، وهي الخروق الخفية التي تكون في جلد الإنسان[2]، **وفي الحديث: "أن الله خلق الملائكة من نور، والجانّ من مارج من نار، وآدم مما وُصف لكم"**[3].

وقولـه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي خَـٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٢٩﴾، **وأخبرهم يا محمد حين قال الله للملائكة:** إنه خالق بشراً، والمقصود به آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإذا صوّرتُه وأكملت خِلقته على الصورة السويّة التي عليها بنو آدم الآن، **نفخ الله** سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فيه الروح، وهي جسم رقيق يحيا به البدن، وهي روح مخلوقة، ونُسبت إلى الله للتشريف والملك[4]، ثم أمرهم أن يخرّوا له سجوداً، تحية وتشريفاً وتكريماً لمكانته، لا سجود عبادة، وهذا السجود من الملائكة لآدم، أو من إخوة يوسف له، ونحوه مما كان في الأمم السابقة قد نُسخ جوازه في شريعتنا، فيحرُم في شريعتنا السجود لبشر مطلقاً، سواء كان سجود تحية، أو سجود عبادة.

وقولـه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣١﴾، فاستجاب الملائكة لأمر الله وأطاعوه، **وقد أكّد استجابتهم بلفظ:** "كلهم"، ليشمل كل الملائكة، فلم يمتنع أحد منهم، **وبلفظ:** "أجمعون"، لبيان أن السجود

---

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 576).

(2) ينظر: تهذيب اللغة: (2/ 1762).

(3) صحيح مسلم: (4/ 2294)، برقم: (2996).

(4) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 601).

حصل منهم جميعًا في آنٍ واحد، لم يتخلف أحد منهم[1]، و"إلا" أداة استثناء منقطع؛ لأن إبليس ليس من جنس الملائكة، فتكون بمعنى لكن، والمعنى: لكن إبليس أبى أن يسجد مع الملائكة المطيعين الخاضعين لأمر الله المُنقادين له، وإذا كان ليس من الملائكة؛ فلماذا دخل في الأمر معهم؟! **الجواب:** أنه كان لديه هداية وصلاح ظاهر فصار مع الملائكة، فخوطب معهم، ولكن لفساد باطنه وكِبره وحسده لآدم عصى أمر ربه، وصار من الكافرين.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾، **فخاطبه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ** وسأله عن سبب امتناعه عن السجود، ليُقيم عليه الحُجة، ويزيل عنه الشُبهة، فيحكم عليه بعد أن تثبت في حقه الشروط وتنتفي الموانع، وفي ذلك تعليم للخلق أن لا يحكموا على المخالف لهم دون معرفة سبب فعله، فأجاب إبليس ربه بكبر وغرور وإعجاب بنفسه، فقال: لا أسجد لبشر حقير ذميم لا يستحق السجود، فأنا أفضل منه في أصل الخلقة، فهو مخلوق من طين، وأنا مخلوق من النار، والنار أفضل من الطين، فاقتصر على النظر في أصل الخِلقة دون صفات المخلوق، وأمر الخالق له بالسجود، فإبليس استخدم القياس الفاسد المبني على الغرور والعُجب، وعارض به النص، وأغفل أن الله كرّم آدم بالعلم، وأنه أمر الملائكة أن يسجدوا له تشريفًا لعلمه، لا لذاته وأصله، وقد تابع إبليس في هذا الأمر كثير من الناس اليوم، ممن يفاضلون بين الناس بسبب اللون، أو الجنس، أو السلالة،

---

(1) ينظر: تهذيب اللغة: (4/ 3178).

مع أن أصل خلقتهم واحدة، فكلهم لآدم، وإنما الرفعة والمكانة بالتقوى، **كما في قوله:** ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[الحجرات:13]، **وفي الحديث: "لا فضل لعربيٍ على عجميٍ، ولا لعجميٍ على عربيٍ، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى"**[1].

وقوله: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾، فلما سمع الله منه هذه الحجة الباطلة؛ حكم عليه فأخرجه من الجنة التي في السماء[2]، وجعله مطروداً من رحمة الله، وأتبعه لعنةً لا تزال متصلة به، ولاحقة له، ومتواترة عليه إلى يوم القيامة[3]، فلا يُذكر من المؤمنين إلا ملعونـًا!، وليس معنى ذلك أن اللعنة عليه تنتهي يوم القيامة ويخلفها ضدها، بل المعنى أن اللعنة عليه تستمر في الدنيا إلى أن يلاقي جزاء عمله يوم القيامة وما هو أشد من اللعنة في الدنيا[4].

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾، فلما سمع هذا الحكم الشديد عليه؛ طلب من ربه أن يمهله ويؤخر موته، ويجعله حيّـًا إلى يوم القيامة؛ ليتمكن من إغواء بني آدم بنفسه وبتراكم خبراته في ذلك، ومن ذكائه وخبثه أن طلب من ربه البقاء حياً إلى

(1) مسند أحمد: (38/ 474)، برقم: (23489)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 381).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 534).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 47).

يوم البعث حتى لا يذوق مرارة الموت[1]، فلم يستجب له ذلك، لأنه طلب شيئًا مستحيلاً، فإن الله قد كتب الموت والفناء على جميع الخلق، **كما قال:** ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[الرحمن:26]، بل ردّ الله عليه بأنه قد أمهله وأخّره إلى وقت معلوم، وهو وقت النفخة الأولى في الصور[2]، حين يُصعق الخلق ويموتون أجمعين، فيموت معهم، ثم يُبعَث معهم للحساب والجزاء، **والحكمة في استجابة الله لطلب إبليس أمران، الأول:** ليزداد إثمًا بعدد من أغواهم من آدم إلى يوم القيامة، **والثاني:** ليزداد الخلق به بلاءً وفتنةً نظراً لخبرته وقدرته على إغوائهم.

وقولـه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، ثم نادى ربه، **والباء في "بِمَآ" لها معنيان عند المفسرين(3): إما** باء السببية، **أي:** بسبب إغوائك لي، أو باء القسَم، **أي:** بقدرتك على إغوائي لأضلنهم عن طريق الهدى، وأوقعهم في طريق الغواية، ولأُحَسّنَنّ لهم الكفر والمعاصي والذنوب والمُنكرات ما داموا في الدنيا؛ لأن إبليس من طبيعته أنه لا يُزيّن للناس الطاعات، بل يبغضها إلى نفوسهم ويبعدهم عنها، واستثنى الشيطان من الإغواء عباد الله "المُخلِصين" بقراءة الكسر، وهم الذين أخلصوا عبادتهم لله، أو "المُخلَصين" بقراءة الفتح، وهم الذين خلّصهم الله من شر الشيطان وتسلّطه[4].

(1) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 381).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 56).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 158).

(4) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 103).

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١﴾، **القائل:** هو الله سبحانه، وفي هذا إشارة إلى نجاة المخلصين من إبليس، وأنه لا يقدر عليهم[1]، **و"عليّ" فيها قراءتان**[2]: بفتح اللام وإضافة ياء المتكلم، **والمعنى:** أن طريق المخلَصين هو الصراط المستقيم المعتدل المُوصل إلى الله وإلى دار كرامته وهي الجنة، وبكسر اللام وضم الياء المشددة من العُلو، **والمعنى:** أن طريق المخلَصين هو الصراط المستقيم الموصوف بعلو الشأن والمكانة، ولا تعارض بين المعنيين فكلاهما يُوصل إلى مقصود واحد، وهو مدح طريق الاستقامة، وبيان جزاء من سلكه.

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝٤٢﴾، **ثم أكّد الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نجاة المخلصين من عباد الله من تسلّط الشيطان عليهم، وعدم قدرته على غوايتهم وإبعادهم عن طريق الحق والاستقامة على دين الله وشرعه، وحصر تسلّط الشيطان وإغوائه على من تابعه وصدَّقه وسار في طريقه من الغاوين، والغاوي ضد الراشد، وهو الذي عرف الحق وتركه[3].

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾، **ثم بيّن جزاء الغاوين** الذين اتبعوا الشيطان بأن مصيرهم جميعًا إلى جهنم، ولا يتخلف منهم أحد، فقد أعدها الله لهم، وجعل لها سبعة أبواب، وهي أبواب حقيقية متصلة بطبقات ودركات في النار، ومرتّبة ترتيبًا تنازليًا من

---

(1) ينظر: تفسير ابن جزي: (1/ 418).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 104).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 431).

حيث شدة عذابها، فالباب الأعلى يوصل إلى دركٍ أخف عذاباً من الذي تحته، وهكذا، حتى يكون آخرها الباب الذي يوصل إلى الدرك الأسفل من النار، وهو مقر المنافقين[1]، وجعل لكل بابٍ ودركٍ منها نصيباً معيّناً من الكفار والمجرمين بحسب ذنوبهم وأعمالهم السيّئة، وهذا من عدل الله، فمقدار العذاب في جهنم يكون على مقدار الذنب، وأن أعلى الدركات هو أخفها عذاباً، وهو خاص بالعصاة الموحدين من أمة محمد ﷺ[2]، يُعذبون فيها، ثم يخرجون منها بشفاعة الشافعين.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾، **فلما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** حال الكفار في النار؛ انتقل إلى الحديث إلى حال المؤمنين في الجنة، وهذا من طرائق القرآن وأساليبه في العظة والعبرة تخويفاً من النار، وترغيباً في الجنة، وجمعاً بين الخوف والرجاء، والمتقون هم الذين اتقوا سخط الله وعذابه، ففعلوا ما أمرهم به، واجتنبوا ما نهاهم عنه، فجزاؤهم عند الله في الآخرة أن يُدخلهم جنات متعددة، وفيها عيون مستمرة من الأنهار المتنوعة التي لا تنضب ولا تنقطع.

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾، **وتقول الملائكة للمتقين:** ادخلوا الجنة بسلامةٍ تحفّكم، لا يُصيبكم فيها آفة ولا مرض ولا حزن ولا شيءٌ مما كان يُصيبكم في الدنيا، وأنتم في أمن دائم من الموت أو الخوف، والفرق بين السلامة والأمن، أن السلامة هي التخلص من الأذية والمنغصات، والأمن من

---

(1) ينظر: تفسير الرازي: (19/ 146).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 30).

زوال النعم، وبقاء النفس مطمئنة منشرحة لا قلق فيها ولا اضطراب.

وقوله: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾، ثم بيّن حال أهل الجنة في الجنة، وأنه سبحانه قد أخرج ما في صدورهم من حقد وعداوة كانت وقعت بينهم في الدنيا، وذلك قبل أن يدخلوا الجنة، ففي الحديث: **"إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة"**(1)، فأهل الجنة ممن ليس في قلبه غِلٌّ على أخيه المؤمن يدخل الجنة مباشرة، ويُحبس دونها أصحاب الأغلال تأديبًا لهم؛ لأنهم ماتوا قبل أن يتسامحوا فيما بينهم، حتى ينزع ما في قلوبهم من غِلٍ ثم يدخلون الجنة، ويجلسون على الأسرّة، يُقابل كل واحد منهم الآخر بوجهه، فلا يوجد مكان في الجنة للتدابر والإعراض عن الآخرين، وهذا يدل على أن أسرّة أهل الجنة قد جُهّزت بهيئة تدور مع من جلس عليها إذا دار حتى لا يرى قفا صاحبه، وهذا من كمال الأُنس والمحبة، وفي الآية بيان لأهمية سلامة الصدور للمؤمنين، وترك الغِل والحقد عليهم، فعلى المسلم أن يملأ قلبه بالحب والمودة والإخاء لإخوانه، ويكون شعاره دائمًا: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[الحشر:10].

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾، لا يمسّ أهل الجنة فيها النصب، وهو التعب الذي كانوا يجدونه في الدنيا؛ لأنها دار ابتلاء لهم، وطهّر الله الجنة من كل ما لا يليق بها، فلا يوجد فيها تعب، ولا مرض، ولا

(1) صحيح البخاري: (3/ 128)، برقم: (2440).

بول، ولا غائط، ولا مخاط، ولا شيء من الأذى، ومن دخلها يُنعَّمُ فيها ولا يخرج منها أبداً، بل يبقى فيها خالداً مخلداً، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها.

وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾، أمر الله نبيّه أن يُخبر الناس بأن ربهم غفورٌ رحيم بهم، فهو يغفر ويرحم من تاب وآمن ورجع إليه، ويخبرهم بأن عذابه أليمٌ مُوجع لمن كفر به وأعرض عنه، وفي ذلك موعظة كافية لمن تدبرها.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان مكانة وفضل آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن إبليس حسده على ذلك.

2- بيان خطورة معارضة الوحي بالقياس الفاسد، والاعتداد بالأصل واللون، وترك الطاعة والتقوى.

3- بيان أن تأخير الله لإبليس إلى زمنٍ معلومٍ؛ من أجل أن يبتلي الله به الخلق.

4- خطورة حمل الغلّ على المؤمنين، وأنه سبب للتأخر عن دخول الجنة.

5- بيان أن الجنة لا تعب فيها ولا نصب، بل هي نعيم مطلق.

6- أن العبودية لله والإخلاص له فيهما سببان مانعان من إغواء وتسلّط الشيطان على العبد.

7- أن الخوف والرجاء أصلان من أصول العبادة.

تفسير المقطع الثالث من سورة الحِجْر

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ
تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن
رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ
قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ
جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ
إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾
قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾، **وأخبر قومك يا محمد!** عن قصة ضيوف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهم مجموعة من الملائكة أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، ولكنهم مرّوا على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لإبلاغه بمهمتهم، وقد جاءوا إليه في صورة بشر، فدخلوا عليه المكان الذي كان فيه، وحيّوه بالسلام، فردّ السلام عليهم، ثم خرج مسرعاً لضيافتهم، وأتى بعجل سمين حنيذ وقدّمه إليهم، فلما لم يأكلوا؛ حصل منه التوجس والخوف منهم؛ لأن مما تعارف عليه الناس أن من لم يأكل من طعامك فلعله يُخبّئ لك شراً[1]، فأخبرهم بذلك، فقالوا له: لا تخف، فنحن ملائكة أرسلنا الله إليك لنُبشرك بغلام يُولد لك من زوجتك سارة، وهو إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فوصفوه بأنه غلامٌ في صغره، عليمٌ في كبره[2]، وصار العلم من صفات ذريته الذين تناسلوا من ولده يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **وقد سبق** أن بُشّر بالولد الأول، وهو إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، من زوجته هاجر، **كما في قوله:** ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴾[الصافات:101]، فوصف إسماعيل بالحليم؛ فصار الحِلم من صفات العرب؛ لأن إسماعيل عاش بينهم وتزوج منهم، وصار أباً لهم.

وقوله: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾،

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 365).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 58).

فقال لهم على سبيل التعجب[1]: بأي وجهٍ تُبشروني بالولد وقد انقطعت أسبابُه، من كبر سنّه وعقم زوجته؟!، **و"على" هنا** بمعنى مع[2]، فقد حصلت منهم البشارة له بالولد مع دخوله في مرحلة الكِبَر، وهو العمر المتقدم، وكان عمره حينئذ مائة عام، **فردت عليه الملائكة**: أن البشارة له حق لا باطل فيها، والباء للملابسة، فالحق ملابس لها في كل أحوالها لا ينفك عنها، وفهموا من سؤاله أنه قد يئس وقنط من حصوله على الولد، **فرد عليهم**: بأن سؤاله لهم سؤال متعجب من البشارة بالولد بعد انقطاع أسبابه، وليس بقانط، **والقنوط**: اليأس[3]، وأن الذي ييأس من رحمة الله، هو المكذّب البعيد عن طريق الهداية، الجاهل بقدرة الله التي لا يقف أمامها شيء.

وقوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾، فلما انتهى الحوار بخصوص بشارتهم له بالولد، والتي كانت عبارة عن توطئة لأمر عظيم جاءوا لأجله، **سألهم**: ما الأمر الخطير الذي جئتم لأجله؟! **فالخطب هو**: الأمر الخطير والشأن العظيم[4]، وناداهم بوصف المرسلين، لأنه قد علم أنهم ملائكة أرسلهم الله لمهمة معيّنة، **فأجابوه**: بأن الله أرسلهم لإهلاك قومٍ مجرمين، وهم

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 541).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 581).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 181).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 162).

قوم لوط، و"إلا" الأولى بمعنى لكن، والاستثناء منقطع[1]، والمعنى: لكن آل لوط المؤمنين لن نهلكهم وسننجيهم أجمعين؛ لأنهم ليسوا مجرمين، ثم استثنى من آله امرأته؛ لأنها ليست مؤمنة، بل كانت كافرة، أو كانت منافقة تُظهر الإسلام وتبطن الكفر، وأخبر بأنه قضى وحكم فيها بعلمه الأزلي أنها ستتخلف وتبقى مع قومها وتهلك بهلاكهم. والغابر هو الباقي[2].

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾، كان حوار الملائكة مع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في فلسطين، فودعوه وانطلقوا باتجاه قرية قوم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي قرية سدوم التي تُعرف اليوم بالبحر الميت، فلما وصلوا إليها وقابلهم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ أدخلهم إلى بيته وسألهم: من يكونون؟! فإنه لا يعرفهم، وقد جاءوا على هيئة شباب مرد حسان الوجوه جميلة صورهم[3]، مما شجّع المجرمين من قوم لوط على اللحاق بهم ومحاولة إيذائهم، فأخبرت الملائكة لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنهم ملائكة، وأنهم أتوا لإهلاك قومه المكذبين به، والتعبير بلفظ: "بل" يفيد الإضراب عن كلام سبق ذكره، وهو عن مجيئهم بما ينكره مما خطر بباله من المكروه، وإبطالاً لما ظنه من كونهم من البشر، بل جاءوا بما فيه سروره، وهو هلاك قومه بالعذاب[4] الذي أنذرهم به من قبل

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 61).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 182).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 624).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 163).

وكان قومه يشكّون في وقوعه، والباء للملابسة[1]، **أي**: وما جئنا به من العذاب لهم هو حق لا شك فيه، ونحن صادقون فيما نُخبرك به الآن، فإن العذاب واقع بهم لا محالة.

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ثم أمرت الملائكةُ لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن يغادر القرية سرّاً مع أهله حين يمضي جزء من أول الليل، بعد أن ينتشر الظلام، وتهدأ حركة الناس، فيخرج دون أن يشعر به قومُه، وأمروه أن يمشي خلف أهله وهم أمامه حتى لا يتشاغلوا أو يتأخروا، فيكون كالذي يسوقهم ويستعجلهم بالسير، ونهوا جميعًا عن الالتفات الحسي إلى الخلف بالجوارح لكي لا ينظروا الذي يحصل للقوم من الهلاك[2]، ويدخل فيه النهي عن الالتفات المعنوي بالقلب، وهو كثرة التفكير بحالهم، **والمعنى**: وكونوا جادين في سفركم، بعيدين عن التشاغُل بغيركم حسًا ومعنى، واستمروا في السير إلى المكان الذي أمرتكم الملائكة بالذهاب إليه، كي تبتعدوا عن مكان الهلاك وتكونوا في مأمن منه، وفي الآية إشارة إلى ضرورة الانضباط التام بالتوجيهات التي تصدر من الجهات المختصة في وقت الأزمات والحروب، وترك الفوضى والتحرّك العشوائي.

وقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾، وأوحى الله إلى لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأخبره بأمر هلاك قومه جميعًا، وأنه سيستأصلهم

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 63).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 625).

بالعذاب جميعًا، ولن يترك منهم أحداً، ولن يبقى لهم نسل بعدهم، وأن هلاكهم سيكون في صباح تلك الليلة التي غادر فيها لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع أهله القرية، **كما في قوله:** ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾[هود:81].

وقوله: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾﴾، **الواو** لا تقتضي الترتيب، وإنما تفيد مطلق العطف، فإن مجيء أهل المدينة إلى لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان قبل أن تُخبره الملائكة بأنهم ملائكة أرسلوا لهلاك قومه، **والمعنى:** أن الفجار من رجال المدينة لما علموا بمجيء الضيوف ورأوهم في صورة شباب لم تنبت لحاهم؛ لحقوا بهم إلى دار لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهم فرحين مستبشرين بحضورهم ليفعلوا بهم الفاحشة، فلما وصلوا إلى لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، منعهم من التعرّض لضيوفه بشرٍّ، **وقال لهم:** لا يمكن أن أسمح لكم بأذيتهم، فهم ضيوفي، ومن واجبي حمايتهم، فلا تقعوا في عمل يسبّب لي الفضيحة بين الناس، ثم وعظهم بتقوى الله والبعد عن سخطه، ونهاهم عن أذيّة الضيوف وفعل القبيح فيهم، فإن في هذا خزي ومذلة له لأنهم ضيوف عنده.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾، ولكن القوم مجرمون، لا يقبلون النصيحة، ولا تؤثر فيهم الموعظة، وليس فيهم ذرة خوف من الله حتى يتقوا سخطه، لذا ردوا عليه بالاستنكار لقوله وتحذيره من الدفاع عن أي شخص من الناس نتعرّض له، وأنهم قد نهوه مِراراً من ضيافة أحد من العالمين، فاتركنا وشأننا معهم، فلم يستسلم لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقولهم، بل استمر

في جدالهم وإقناعهم بترك التعرّض لضيوفه، وعرض عليهم أن يتزوجوا من بناته وبنات قومه بالحلال، إذا كان هدفُهم هو قضاء الشهوة، فإن الشهوة تُقضى بذلك، وعبّر عن نساء قومه ببناته؛ لأن النبي في مقام الأب لكل أفراد قومه(1).

وقوله: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾، هذه جملة اعتراضية، حيث انتقل الخطاب من بيان الحدث وملابساته إلى محمد ﷺ، وأقسم الله بحياته تشريفًا له(2)، فإن الله لم يُقسم بحياة نبيٍ غيره، مبينًا له حال قوم لوط المجرمين، وأنهم لم يستجيبوا لنصائح لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ولا التفتوا إليها، بل استمروا في انحرافهم وفسادهم حتى بلغ بهم السفه في إفراغ الشهوة في الحرام مرحلة السكرة التي أصابت عقولهم فغابت عن وعيها وفقدوا التحكّم بها، فهم في غوايتهم يتحيّرون(3).

وقوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾، فنزل بهم العذاب. والصيحة صوت شديد مُهلِك، صاح بهم جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حتى انقطعت نِياط قلوبهم فماتوا(4)، فكان نزول أول العذاب بهم عند الصبح وامتد إلى شروق الشمس، فكان تمام الهلاك عند ذلك(5)، حيث رفعت الملائكة بيوتهم إلى السماء وقلبت عاليها سافلها وأسقطتها إلى الأرض،

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 60).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 542).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 166).

(4) ينظر: التفسير البسيط: (12/ 636).

(5) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 42).

ثم أرسلت عليهم حجارة من الطين المتصلب المطبوخ بالنار[1]، فرمتهم بها، احتقاراً لهم واستكمالاً لهلاكهم، فلم يبقَ منهم أحد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦﴾، عقَّب الله تعالى على ما جرى لقوم لوط من الهلاك بسبب كفرهم وفعلهم للفاحشة القبيحة التي ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين، بأن في ذلك علامة يستدل بها المُتأمل في حالهم فيتعظ ويعتبر بها، فآثار هذه النقمة ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك، فقد سُمي مكان قريتهم بالبحر الميت الذي لا يعيش فيه حيوان، **والمُتوسمون في اللغة:** هم النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء[2]، وهي علامته، وصح عن مجاهد أن فسّر المتوسمين بالمتفرّسين[3]، فيحذروا من أن يقعوا فيما وقع فيه قوم لوط حتى لا يُصيبُهم ما أصابهم، ثم بيّن أن مكان قرية قوم لوط في طريق واضح ثابت يسلكه الناس والقوافل التي تأتي من الحجاز إلى الشام عند الذهاب والإياب، وفي ذلك تنبيهٌ لكفار قريش وغيرهم ممن يشاهدون آثارها للعِظة والعبرة منها.

ثم ختم الله القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾، خصّ العظة والعبرة بالمؤمنين، لأنهم المنتفعون منها أكثر من غيرهم، فيزدادوا إيمانًا.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 543).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 184).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 120).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أهمية إكرام الضيف، وأنه خلق قديم، وقد أمر به الإسلام وحثّ عليه.

2- من آداب اللقاء رد التحية، وهي السلام.

3- أن المؤمن مهما بلغ به الحال فإنه لا ييأس من رحمة الله، بل يظل أمله وثقته بالله عظيمة.

4- بيان أهمية الانضباط على المنهج السوي والسير عليه وعدم التراجع عنه.

5- ضرورة الانضباط التام بالتوجيهات التي تصدر من الجهات المختصة في وقت الأزمات والحروب، وترك الفوضى والتحرّك العشوائي.

6- بيان شناعة فاحشة قوم لوط، ولذلك عاقبهم الله بهذا العقاب الشديد.

7- بيان فضيلة التفرّس وإعمال الفكر والتدرب على ذلك للاستفادة منه في النظر في الأحوال.

8- أن آثار النقمة ظاهرة على بلد قوم لوط لمن تأمل ذلك، فقد سُمي مكان قريتهم بالبحر الميت الذي لا يعيش فيه حيوان.

تفسير المقطع الرابع من سورة الحِجْر

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ
كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ
ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ
ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾
وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ
عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ
ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾، **يذكر الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية شيئًا من قصة قوم شعيب، وهم أصحاب الأيكة، والأيكة جمعُ أيك، وهو الشجر المُلتف

الكثيف[1]، **وهل هم أصحاب مدين أم غيرهم؟ قولان للعلماء، الأول**[2]: أنهما شيء واحد، **والثاني**[3]: أن مدين هي المدينة، وأصحاب الأيكة باديتها، وقد أُرسل شعيب إليهما معـًا، وقد كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فانتقم الله منهم وأهلكهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة[4]، وضمير التثنية يعود إما على قوم شعيب وقوم لوط فقد كانوا متقاربين في الزمان والمكان قريبـًا، أو يعود إلى قوم شعيب بقسميهم: أهل مدين وأصحاب الأيكة[5]، ومكانهم جميعـًا على طريق القوافل من الحجاز إلى الشام، والإمام هنا الطريق، وسُمي الطريق إمامًا لأنه يقود السائر عليه ويدله إلى مبتغاه[6]؛ لأنه واضح، ويُطلق عليه المحجة البيضاء، **وفي الحديث**: **"تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها"**[7]، **والمحجة البيضاء هي** الطريق الواضحة من كثرة المشي عليها، المتميزة عما حولها.

(1) ينظر: تاج العروس: (27/ 55).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 168).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 168).

(4) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 544).

(5) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 540).

(6) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 61).

(7) سنن ابن ماجه: (1/ 5)، برقم: (5)، السنة لابن أبي عاصم: (1/ 26)، برقم: (47)، وإسناده حسن.

وقولــــه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾، ثم ذكر لنا طرفًا من قصة أصحاب الحِجر، وهو مشتق من الحجارة، لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم في صخر الجبل نحتًا محكمًا[1]، وهم قومُ صالح، ويُطلق عليهم قوم ثمود، وكانوا يسكنون المدائن، وهي منطقة بين المدينة وتبوك، وتُسمى اليوم بمدينة العُلا، وذكر أنهم كذّبوا المرسلين كلهم، مع أن المُرسَل إليهم رسول واحد، لأن **القاعدة العقدية تقول:** إن من كذّب برسول واحد فقد كذّب بسائر الرسل، وكان تكذيبهم لرسولهم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن جاءهم بالحجج والبراهين التي تدل على صدقه، وهي معجزة الناقة[2]، فقد احتوت على عدة آيات؛ مثل دُنُوِّ نِتَاجِها عند خروجها، وعِظَم خلقها؛ حتى لم تشبهها ناقة أخرى، وكثرة لبنها؛ حتى كان يكفيهم جميعًا، إلى غير ذلك مما فيها من الآيات، ولكنهم لم يقبلوا بها، وأعرضوا عن الإيمان بالله، وكذّبوا رسولهم مع وضوح حجته، وقد منحهم الله القوة والقدرة، فكانوا ينقرون صخر الجبال ويصنعون منه البيوت التي يسكنون فيها آمنين من أن تسقط عليهم لمتانتها وقوتها، أو أنها ستحفظهم من حوادث الزمان ومن كل نازلة تنزل بهم لاغترارهم بطول الأعمار، أو أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة[3]، ولا مانع من ذلك كله لعموم اللفظ.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 73).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 389).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 372).

وقولـــه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾، أهلكهم الله تعالى بالصيحة، حيث صاح بهم جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حتى انقطعت نياط قلوبهم فهلكوا في وقت الصباح من اليوم الرابع، بعد أن أمهلهم رسولهم ثلاثة أيام، فما منعهم من العذاب ما حصلوه من الأسباب المادية من المال والقوة والأولاد والمساكن الضخمة، فإن عذاب الله إذا نزل بقوم لا يدفعه ولا يقف أمامه شيءٌ، وما زالت آثار مساكنهم موجودة هناك إلى اليوم.

وقولـه: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦﴾، **أخبر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ** عن الحكمة من خلق السموات والأرض وما بينهما، والمقصود بذلك الكون كله، فقد خلقه مُلتبسًا ومُلتصقًا بالحق وهو العدل، أو ما فيهما من الفوائد والمصالح، **والبـاء:** للملابسة، أو بمعنى اللام، **أي:** لإحقاق الحق وإقامته ومحاسبة المخالف لأمر الله وشرعه، وإثابة الموافق الطائع له(1)، وأن موعد ذلك الجزاء عند قيام الساعة، وأنها آتية في موعدها لا تتخلف، وفي ذلك تهديد ووعيد لمن يُنكرها، **ثم أمر الله نبيه محمداً** ﷺ أن يصفح عن المشركين، وأن يُعرض عنهم، والمقصود به المتارَكة لهم، وعدم الدخول معهم في جدال ونقاش يُؤدي إلى حزنه وألمه عليهم بسبب كفرهم وعنادهم واستهزائهم به، ووصف الصفح بالجميل، وقد جاء هذا الوصف في القرآن لثلاثة مصطلحات، هي: الصفح الجميل، والصبر الجميل، والهجر الجميل، **فالصفح الجميل:** هو

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 168).

الذي يكون بلا عتاب، والهجر الجميل: هو الذي يكون بلا أذيّة، والصبر الجميل: هو الذي يكون بلا شكوى إلى الخلق، وهذه الآية وأمثالُها التي فيها الإعراض والصفح والهجر للمشركين والتي نزلت بمكة أثناء فترة استضعاف المؤمنين؛ **للعلماء فيها قولان، القول الأول**: أنها منسوخة بآية السيف وتشريع الجهاد، **والقول الثاني**: أنها مُحكمة، والراجح أنها مُحكمة، وأنها مرحلية، فآية السيف محكمة في وقت القوة، وآية الصفح والعفو مُحكمة في وقت الضعف، فحين يكون المؤمنون ضُعفاء خائفين من عدوهم فليعملوا بآيات الصفح والإعراض، وحين يكونون أقوياء قادرين على المواجهة فليعملوا بآيات القتال والسيف، **و"الخلّاق"** صيغة مبالغة من الخلق، **و"العليم"** صيغة مبالغة من العلم، وقرن بينهما لأن من لوازم الخلق العلم، فهو الذي خلق الخلق وأوجدهم، وهو العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض، وهو القادر على بعثهم، والعليم بتفاصيل أحوالهم وأعمالهم، فيُجازيهم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، فقد امتنّ الله عليه بمنحه السبع المثاني والقرآن العظيم، **وقد اختلف المفسرون في معنى السبع المثاني على قولين**[1]**، القول الأول**: أنها سورة الفاتحة، فهي سبع آيات، وسُميت مثاني؛ لأنها تُكرّر في الصلاة، أو لأن محتواها مقسومٌ بين اثنين، بين العبد وربّه، كما في الحديث، أو لأن فيها الثناء على الله

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 170).

قبل الدعاء، **والقول الثاني**: أن السبع المثاني هي السبع السُور التي في أول المصحف بعد الفاتحة، من البقرة إلى التوبة، بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة، **والراجح الأول**[1]؛ لأنه قد ثبت تفسيرها بذلك في الحديث: **"هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته"**[2]، ولأن سورة الحجر مكية، والفاتحة مكية، أما السبع الطوال فأغلبها نزلت في المدنية، ولم تكن قد نزلت عند نزول هذه الآية، ولأن معنى التثنية فيها غير واضحة كوضوحه في الفاتحة، ويكون عطف القرآن عليها من باب عطف العام بعد الخاص لمزيد من العناية والاهتمام به، ووصف القرآن بأنه عظيم يقتضي كل ما يعنيه لفظ العظمة، سواء من حيث عظمة المكانة، أو عظمة المعاني، أو عظمة الإعجاز، أو عظمة الأثر، ونحوها.

ثم قال الله لنبيّه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾، **الخطاب لرسول الله** ﷺ، **والمقصود** به أمته؛ لأن هذا من الأحكام العامة، ومدّ العينين معناه إطالة النظر إلى الشيء على سبيل التمني له والرغبة فيه، فنهاه عن إطالة النظر فيما متّع الله به أصنافًا من الكفار من المال وسائر النعم الظاهرة عليهم، وتمني الحصول عليها مثلهم، ونبّهه إلى أن ما عنده من الإيمان والتقوى والاستقامة والطمأنينة، أعظم وأفضل مما لديهم من النعم المادية الظاهرة، ولا تحزن عليهم بسبب إعراضهم وكفرهم بالله؛ فقد كان شفيقًا بهم حريصًا على هدايتهم، وأمره الله بخفض الجناح، وهو كناية عن التواضع لمن آمن معه؛ تشبيهًا له بالطائر

(1) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (2/ 315).

(2) صحيح البخاري: (6/ 17)، برقم: (4474).

الذي يرفع الجناحين عند الطيران، ويضمهما عند الاستقرار على الأرض[1]، وقلْ لقومك الذين كفروا وكذبوا بك: بأن مهمتك إليهم هي إنذارهم عذاب الله بسبب كفرهم، وأن نذارتك لهم واضحة لا غموض فيها ولا خفاء، واكتفى هنا بوصفه بالنذير؛ لأن المخاطَبين بذلك هم الكفار، ولو كان المُخاطَبون المؤمنين؛ لذكر معه وصف البشير، فهو البشير النذير للناس أجمعين.

وقوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾، الكاف للتشبيه، **أي:** إنذاري لكم يُشبه الإنذار الذي أنزله الله على المقتسمين[2]، **وقد اختلف المفسرون في تعيين من هم المقتسمين على قولين[3]، القول الأول:** أنهم المشركون من أهل مكة، **واقتسامُهم فيه معنيان، المعنى الأول:** أنهم كانوا يقتسمون ويتوزعون في طُرق مكة في بداية المواسم ليُحذّروا الداخل إليها من محمد ﷺ، **والمعنى الثاني:** أنهم افترقوا في موقفهم من القرآن إلى عدة فرق، **فقال بعضهم:** إنه سحر، **وقال بعضم:** إنه كهانة، **وقال بعضهم:** إنه شعر.

والقول الثاني: أن المقصود بالمقتسمين هم اليهود والنصارى، فقد افترقُوا في الموقف من الكتُب السابقة، فقد حرّفوها وآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، **وعِضين لها معنيان[4]:** عضّوه بمعنى فرّقوا القول فيه، أو من العِضة وهو السحر، وقد حصل

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 83).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 817).

(3) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 544).

(4) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 204).

من كفار قريش الأمران مع القرآن، فوصفوه بأنه سحر، واختلفوا في الموقف منه، وإذا كان المقصود بالمقتسمين اليهود والنصارى، **فيكون المقصود بالقرآن هو** التوراة والإنجيل لكونهما مما يُقرأ، حيث جعلوهما أجزاءً متفرقة[1].

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، **أقسم الله برب محمد** ﷺ تشريفاً له، أنه سيسأل الكفار جميعاً يوم القيامة، والسؤال هنا سؤال تبكيت وتوبيخ لا سؤال معرفة، **ولا تعارض بين هذه الآية وقوله:** ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[الرحمن:39]، فالنفي لسؤال الاستعلام والمعرفة، والإثبات لسؤال التبكيت والتوبيخ[2]، أو أن الناس في الدار الآخرة يمرون بأحوال متعددة، ففي بعض الأحوال يتركهم الله دون سؤال، وفي بعض الأحوال يسألهم عن كل أعمالهم التي عملوها في الدنيا، ثم يُحاسَبهم ويجازيهم عليها.

وقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾، **أمر الله نبيه محمداً** ﷺ بالجهر بالدعوة وإبلاغها إلى الناس في العلن، مما يدلّ على أن السورة مكية، وأنها نزلت مع نهاية الفترة السرّية للدعوة، فقد مكث النبي ﷺ يدعو إلى الله سراً في مكة حوالي ثلاث سنوات خوفاً من أذيّة قومه، فلما نزلت عليه هذه الآية خرج إلى الناس ودعاهم إلى الإسلام عَلناً، وأمره الله أن يترك الجدال والخصام مع المشركين المكذبين به، ولا يتألم من أقوالهم السيّئة فيه، ولا يرد

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 172).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 818).

على أذيتهم له، وأخبره أنه قد تكفّل بحمايته من أذيّة المستهزئين به الذين كانوا يقولون عنه: شاعر، وكاهن، ومجنون، ونحوها من الألفاظ، والمستهزئون هم مجموعة من كُبراء كفار قريش، ذُكر أنهم خمسة، وكانوا يُكثرون من الاستهزاء به ﷺ وبدعوته، فأهلكهم الله تِباعـًا في مكة قبل بدر[1] بأمراض أصابتهم وحوادث قضت عليهم، **ومن أوجه كفايته لرسوله ﷺ بعد أن صدع بالدعوة؛** إسلام عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبد المطلب، وغيرهم من كبار رجالات قريش الذين نصر الله بهم الإسلام، فأَمِن المسلمون بسببهم، وخاف منهم المستهزئون برسول ﷺ[2]، ثم وصف الله هؤلاء المستهزئين بأنهم أشركوا بالله وعبدوا غيره من الأصنام والأوثان، فجمعوا بين الكفر والشرك بالله والاستهزاء برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق، ثم هدّدهم بأنهم سوف يعلمون جزاء بهتانهم وعاقبة أفعالهم القبيحة، وهي نازلة بهم في الدنيا لا محالة، كما حصل لبعضهم في غزوة بدر وما بعدها، أو في الآخرة في عذاب جهنم.

وقولــــه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾، **اللام هنا** لام القسَم، **و"قد"** للتحقيق، وهما كناية عن الاهتمام برسول الله ﷺ، وأنه بمحلّ العناية من الله، وأنه مُطلّعٌ على ما يعاني من آلام نفسية بسبب تكذيب قومه له وما يقولونه في حقه من ألفاظ واتهامات سيئة، فيضيق صدره بسبب ذلك، ويشتد حزنه عليهم

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 153).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 90).

حتى يكاد الحزن أن يهلكه، **كما قال الله عنه:** ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾[الشعراء:3]، فسبب شفقته ورحمته بهم يتألم من إعراضهم وكفرهم، فهو يريد لهم الخير والهداية والنجاة من النار وهم يأبون ذلك، **وفي الحديث:** **"مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي"**(1)، ثم أرشده الله إلى علاج ما يلاقيه من الضيق وآلام النفس، بأن يسبح الله وينزِّهه ويقرن التسبيح بالحمد والثناء على الله، فيكثر من قول: سبحان الله وبحمده، ويداوم على الصلاة هو ومن معه، وعبّر عن الصلاة بالسجود؛ لأنه أهم وأعظم أركانها، **وفي الحديث:** **"أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء"**(2)، وهذا العلاج ليس خاصاً برسول الله ﷺ، بل هو عامٌ لكل مسلم يشعر بضيق الصدر لسبب من الأسباب، كالفقر، والحاجة، وأذية المجرمين، وإعراض العصاة عن دين الله ونحوها، فعليه أن يُكثر من ذكر الله وتسبيحه وحمده والثناء عليه، والإقبال على الصلاة فريضة أو نافلة، ولا يبحث عن الأدوية النفسية، ولا يسمع إلى موسيقى هادئة كما يزعمون، وسيجد أثر ذلك في انشراح صدره وذهاب الضيق عنه بإذن الله سبحانه، ثم أمره الله بأن يستمر في عبادة ربه وتحقيق التوحيد وإقامة الفرائض والواجبات حتى ينزل به الموت،

---

(1) صحيح مسلم: (4/ 1790)، برقم: (2285).

(2) صحيح مسلم: (1/ 350)، برقم: (482).

فإن التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد إلا بذهاب العقل أو بالموت، وتفسير اليقين في هذه الآية بالموت هو الصحيح الذي ثبت عن كثير من السلف[1]، **وفي الحديث** أن النبي ﷺ وصف وفاة عثمان بن مظعون، بقوله: **"أما هو فقد جاءه اليقين"**[2]، **خلافًا لبعض الصوفية** الذين يُفسّرون اليقين هنا بأنه مرحلة من مراحل التصوف التي يصل إليها الصوفي، ثم تسقط عنه التكاليف. فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل مستمراً في العبادة حتى أتاه اليقين من ربه[3].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان خطر الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه سبب في هلاك الأمم السابقة، وقد أبقى آثارهم للعظة والعبرة بهم.

2- النهي عن إطالة النظر والتمنّي لما تراه من نعمٍ بيد الكفار والمجرمين، واستمسك بإيمانك ودينك واستقامتك فهي أعظم مما عندهم.

3- بيان فضل سورة الفاتحة، فهي الشافية الكافية، وهي السبع المثاني، وأعظم سورة في القرآن.

4- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ، وعصمته من أذيّة الكفار، وحمايته له من المستهزئين به.

---

(1) ينظر: تفسير الطبري :(17/ 160).

(2) ينظر الحديث: في صحيح البخاري: (9/ 38)، برقم: (7018).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 435).

5- بيـان فـضل التـسبيح والتحميـد والـذكر والـصلاة، وأثرهـا في انـشراح الصدور وذهاب ضيقها.

6- وجوب استمرار العبد في عبادة ربه وقيامه بالتكاليف الشرعية حتى ينزل به الموت.

تفسير سورة النّحل

تفسير المقطع الأول من سورة النحل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ
بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ
فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا
تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ
إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ
وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ
وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم
مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ
وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ

لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة النحل؛ سورة مكية[1]، إلا الآية (110)، والثلاث الآيات الأخيرة منها فإنها مدنية[2].

والمقصد العام لهذه السورة هو تذكير الخلق بنعم الله عليهم، ووجوب شكره عليها بعبادته، والانتفاع بها في طاعته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولهذا سمّيت بسورة النعم[3].

وابتدأت بقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾﴾، **يخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن اقتراب أمر الله، **وفي معناه عدة أقوال**[4]، **أرجحها** أنه قيام الساعة، وعذاب الآخرة، ونهى المشركين عن طلبه قبل وقته، فقد كانوا يُنكرونه ويستعجلونه استهزاء به، وعبَّر عنه بالماضي؛ لأنه واقعٌ لا محالة، فهو في حكم الذي قد وقع، **ثم نزّه نفسه** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن شرك

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 555).

(2) ينظر: تفسير ابن جزي: (1/ 422).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 377).

(4) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 549).

المشركين به؛ فإن استعجالهم بالعذاب استهزاء به، يلزم منه اتهام الله تعالى بالعجز وعدم القدرة على فعله، فنزَّه نفسه عن ذلك.

وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾، ثم أخبر عن بعض دلائل عظمته وقدرته، فهو الذي يُنزِّل الملائكة، **والمراد به** جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فهو الذي ينزل بالوحي[1] المتضمن أمر الله الشرعي للخلق، وهو الحلال والحرام، على من اصطفى من عباده، وهم الأنبياء والرسل، وسمّى الوحي روحـًا؛ لأن به تكون حياة القلوب، كما تحيا الأجساد بالروح، مبينًا لهم الهدف والغاية من إنزاله الوحي على الرسل، وهو الإنذار للخلق، وإعلامهم بأن الله هو المستحق وحده للعبادة، فلا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، فعليهم أن يتقوا سخطه بفعل أمره واجتناب نهييه.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾، **ومن دلائل عظمته وقدرته؛** خلق السموات وما فيها من المجرات والأبراج، والأرض وما فيها من الجبال والأنهار والبحار، خلق ذلك كله بالحق، والباء للمُلابَسة، **أي:** أن خلقه لها ملابسًا للحق لا ينفصل عنه، فلا عبث فيه ولا باطل، بل خلقها لإقامة العدل وإحقاق الحق، تعاظَم الله سبحانه وتنزه عما يقوله المشركون فيه مما لا يليق به.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾، **بعد أن ذكر**

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 556).

الله خلق السموات والأرض وما فيهما إجمالاً، بدأ بذكر تفاصيل بعض المخلوقات، وابتدأ بذكر خلق الإنسان؛ لأنه أكرم المخلوقات على الله، والمقصود بالإنسان هنا جنس الإنسان، في طور خلقه الثاني، فإن الطور الأول له خلقه من تراب، وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم خلق الله منه حواء، ثم صار الخلق بعد ذلك يتناسلون من النطفة، وهي المني الذي يُقذف من الرجل في رحم المرأة، ويتكوّن منه الجنين، ثم طوى الخبر مراحل يمر بها الإنسان من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى جنين مكتمل الخلقة، ثم يخرج طفلاً، ثم يصير شاباً قادراً على النطق والبيان والجدال والخصومة، فهذه مرحلة متقدمة من نمو عقله واكتمال قدراته، وقد اُختزلت هذه المراحل كلها بفاء التعقيب وإذا الفجائية، للدلالة على بيان قدرة الله في الخلق والإيجاد، فصار شخصاً قادراً على المخاصمة، وبيان ما لديه بحجة وبرهان[1]، **وقيل**: إن المقصود به الإنسان الكافر، فقد خلقه من شيء حقير وهو النطفة، وجعله ناطقاً قادراً؛ فتكبّر على الله، وصار بعد ذلك يُجادل في استحقاق ربه للألوهية ويخاصم في ذلك[2]، **والقول الأول** أرجح للعموم؛ ولأن السياق جاء في معرض الامتنان على الخلق بذلك.

وقوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾، وخلق الله الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم بنوعيها، واللام للامتنان، **أي**: مَنّ عليكم بنعمة خلق الأنعام، وجعل لكم

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 203).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 103).

فيها ما تستدفئون به من اللباس والأكسية المتخذة من أصواف وأوبار وأشعار الأنعام، ووهبكم منها المنافع الأخرى كاللبن والسمن والحراثة والنسل والركوب، والحمل عليها، وسائر ما ينتفع به منها[1]، ومن لحمها تأكلون، وأفرده بالذكر مع أنه من ضمن المنافع؛ لما للأكل من المكانة عند الإنسان، ثم ذكر منظر الأنعام الجميل حين تذهب مجتمعة إلى المرعى وتعود منه، وخص حال الذهاب والإياب بالذكر لظهور جمالها فيه بسيرها مجتمعة، بخلاف حالها وهي في حظائرها، فلا يظهر جمالها لتفرقها أو لرقودها، وقدّم الرواح على السراح؛ لأن المنافع تؤخذ منها بعد الرواح، ومالكها يكون أعجب بها إذا راحت[2]؛ ولأن الجمال واضحٌ عليها بعد أن ظهر عليها الشبع والري أكثر من جمالها وهي جائعة!.

وقوله: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾، **والضمير عائد إلى أشهَر الأنعام** عندهم وهي الإبل[3]، فهي غالبًا التي تحمل الأثقال، وهو متاع السفر وما يحتاج إلى نقله من البضائع والتجارات، وتحمل الأشخاص بالركوب عليها من بلد إلى بلد آخر بعيد المسافة يصعب الوصول إليه سيراً على الأقدام إلا بحصول المشقة على النفس، وقد سخرها لكم؛ لأنه بكم رؤوف رحيم؛ حيث أراحكم من حمل الأمتعة والسفر بها، وتظهر هذه النعمة واضحة في زمننا هذا بما يسره الله للإنسان من أنواع

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 67).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 9).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 105).

المركوبات من السيارات والطائرات ونحوها من وسائل النقل الحديثة.

وقولـه: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾، وخلق الله الخيل والبغال والحمير، وهي من الحيوانات التي سخرها للركوب عليها، وذكرت الآية أشهر منافع الخيل والبغال والحمير عند العرب، وهو الركوب عليها والزينة، فالراكب يتزيّن بركوبها، فمن يأتي على ظهر خيل أو حمار أو بغل فهو أحسن حالاً ممن يمشي على رجليه، ومثله اليوم حال الشخص الذي يأتي راكبًا على سيارة فاخرة، فهو أحسن حالاً وأجمل منظراً ممن يمشي على رجليه، ثم ختم الله الآية بإخباره بأنه يخلق ما لا يعلمه الخلق من المخلوقات التي يُنتفع بها في الركوب عليها[1]، **وفي الآية إشارة** إلى أنواع المركوبات الحديثة التي ألهم الله الإنسان صنعها من الطيران والسفن والأساطيل والسيارات ونحوها.

وقولـه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾، ولما ذكر الله تعالى الحيوانات التي يركب الناس عليها وتسير بهم في الطرق الحسية، نبّههم إلى الطرق المعنوية التي يسيرون عليها في حياتهم اليومية، وأن الله قد تكفّل ببيان الطريق المستقيم، وهو دين الإسلام الذي ارتضاه للخلق بالحجج والبراهين، وأن السبل الأخرى المخالفة لصراطه المستقيم ودينه القويم، كلها منحرفة وزائغة عن الحق[2]، **وفي الآية إشارة** إلى أن كل ما خالف

(1) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (2/ 335).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 560).

شريعة الإسلام من الأفكار والأهواء والمذاهب الباطلة فهو من السبل والطرق الجائرة، ثم بيّن أنه لو شاء لوفّق الخلق كلهم إلى الإيمان، ولكن اقتضت حكمته ومشيئته أن يكون البعض منهم مؤمناً، والبعض كافراً[1].

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ ﴾، **ومن مظاهر قدرته** أنه أنزل الماء من السُحب التي في السماء إلى الأرض، وجعله عذباً صالحاً للشرب، وبه تسقى الأشجار التي ترعاها[2] الأنعام دون كلفة منكم ولا مشقة عليكم.

وقوله: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ ﴾، **ومن فوائد الماء الذي أنزله الله من السماء** إنبات الزرع الذي يُثمر الحب، كالحنطة والشعير ونحوها، فيقتات منه الإنسان، وإنبات أشجار الزيتون التي يستخرج من ثمرتها الدهن، وإنبات أشجار النخيل والعِنب التي تثمر الفاكهة وتيبس فتكون غذاء[3]، وينبت به من كل الثمرات الأخرى، وإنما ذكر هذه الأنواع لمكانتها عند المخاطبين وأهميتها لهم، واسم الإشارة يعود إلى ما سبق ذكره من إنزال الماء من السماء وإنبات الثمار، **ففي ذلك** علامة وحجة لقوم يُعملون أفكارهم فيها ويتدبرونها فتدلهم على قدرة الله وعظمته.

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 180).

(2) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 206).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 69).

وقولــه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾، وذلّل لكم الليل والنهار، وجعلهما في منفعة الخلق، يسيران بانتظام، فيستفيد الخلق من تعاقبهما في تحقيق رغباتهم وقضاء حوائجهم، وذلّل لكم الشمس والقمر وجعلهما تسيران بانتظام لمنفعة الخلق، والنجوم كذلك مذلّلات للخلق بأمر الله القدري الذي لا يتخلف، واسم الإشارة يعود إلى ما سبق ذكره من تسخير هذه الأشياء، ففيها علامات وحجج كثيرة لقوم يستخدمون عقولهم في التأمل والتدبر فيها فتدل على قدرة الله وعظمته.

وقولــه: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾، وفيما خلق الله لأجلكم[1] من الحيوانات والنبات والأحجار والمعادن ونحوها، فإنه خلقها مختلفة الألوان والأشكال والأنواع والمنافع، وفي ذلك كله علامة وحجة لقوم يتعظون بها فتدلهم على قدرة الله وعظمته، **وقد رتب الاستفادة من هذه الآيات المبثوثة في الكون**، فابتدأ بالتفكر، ثم التعقل، ثم الاتعاظ، فمن أعمل فكره؛ عَقَل الأمر، وحصل له الاتعاظ والعبرة، ومن اعتبر فقد استدل على المطلوب!.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾، وهو الذي ذلّل لكم البحر من أجل أن تغوصوا في أعماقه فتستخرجوا منه أنواع السمك والحوت، فتأكلوا منها اللحم الطري، ووصفه

(1) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 12).

بالطراوة للإشعار بلطافته، والمسارعة إلى أكله لكونه مما يفسد بسرعة[1]، ومن البحر تستخرجون ما تتزينون به من اللؤلؤ والمرجان ونحوها، والتعبير بالرؤية يفيد الحث على المعرفة، وهو أسلوب يُستعمل في التعجب[2]، **والخطاب فيها** لكل من يرى وينظر إلى السفن وهي تمخر عُباب البحر وتشق أمواجه بمقدمتها[3]، وتسير على سطحه، رغم ما تحمله من أثقال، وقد سخرها للناس ليركبوا عليها ويحملوا عليها بضائعهم من بلد إلى آخر ليتجروا فيها، فيحصل لهم الربح منها بفضل الله سبحانه، وقد فعل الله بهم ذلك لعلهم يشكرونه على هذه النعم بألسنتهم وجوارحهم، وخص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر؛ لأن السفر في البحر وقطع مسافات طويلة فيه مع أحمال ثقيلة خطير، إضافة لما اشتمل عليه البحر من النعم التي يستخرجونها منه، وهي من أعظم الأسباب المستدعية لشكر الله الموجبة له[4].

وقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾، وخلق الله الأرض وأوجد فيها الجبال التي تثبتها كي لا تضطرب بالخلق، **والميد:** هو الحركة والميل[5]، وشق فيها أنهاراً تجري من مكان إلى آخر، كنهر دجلة والفرات وجيحون وسيحون وغيرها، وجعل بين جبالها

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 183).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 119).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 193).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 184).

(5) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 206).

طرقاً[1] للسير عليها من مكان إلى آخر، وقد أوجد لهم هذه الطرق من أجل أن يسيروا عليها ويتنقلوا من خلالها إلى حيث يريدون.

وقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾، وجعل الله لهم في الأرض علامات، وهي المعالم الظاهرة، ومن أهمها الشمس، لأنها إحدى معالم النهار للمسافرين، وخاصة في الصحاري والبحار، ومن المعالم الجبال والأودية والتلال ونحوها من معالم الأرض التي تعارف الناس عليها لتكون لهم دلالة على المسافات والمسالك المأمونة في البر والبحر[2]، وجعل النجوم التي في السماء علامات لهدايتهم أثناء السفر في الليل[3] في الصحاري والبحار يستدلون بها على معرفة الجهات، فيصلون من خلالها إلى مبتغاهم.

وقوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾، **ثم عقّب الله على ما سبق ذكره من دلائل عظمته وقدرته ونعمه على الخلق بسؤال استنكاري**[4] توبيخي وتقريعي لمن يكفر به سبحانه، ويتخذا آلهة من الأصنام والجمادات لا تملك لنفسها شيئاً، فهل يستوي من خلق هذه النعم وسخرها للخلق مع تلك الأصنام العاجزة عن فعل شيء، أفلا تتعظون وتعتبرون فتؤمنوا بالله وحده؟!.

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾، **ثم أخبرهم بأن نعم الله عليهم كثيرة ومتعددة** ولا يستطيع الخلق أن يعرفوا عددها،

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 553).
(2) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 122).
(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 824).
(4) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 123).

فضلاً عن أن يحيطوا بتفاصيلها، وأن يطيقوا القيام بحقها وشكر الله عليها[1]، وما ذكره لهم منها هو نماذج وأمثلة فقط، وبيّن لهم أنه غفور لمن تاب إليه ورجع عن كفره وشركه، ورحيم بالخلق فلم يعاجلهم بالعقوبة عند كفرهم وجحودهم لنعمه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الوحي سبب لحياة القلوب والنفوس.

2- من إعجاز القرآن الكريم الإشارة إلى أنواع المركوبات الحديثة قبل وجودها بقرون.

3- بيان قدرة الله في الخلق والإيجاد لما في هذا الكون، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

4- أن كل ما خالف شريعة الإسلام من الأهواء والمذاهب الباطلة فهو من السبل الجائرة.

5- بيان عجز الخلق عن عد وإحصاء نعم الله عليهم لكثرتها.

---

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 600).

تفسير المقطع الثاني من سورة النحل

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ
شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ
رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ
ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ
ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ
ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ
مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ
فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩ ۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ
لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠
جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾، يُخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه مُطلع على ما يُسرّه العباد في نفوسهم وما يُعلنونه، فالسر والعلن عند الله سواء، فعلمه محيط بكل أحوال الخلق، وفي الآية تهديد ووعيد لهم بأن الله محاسبهم على كفرهم[1].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾، **الخطاب للكفار**، وفيه بيانٌ لحال آلهتهم التي يعبدونها ويدعونها من دون الله؛ فإنها عاجزة عن خلق شيءٍ، ولو كان صغيراً، بل هي مخلوقة لغيرها، وهي جمادات ميتة لا حياة فيها، فليست كبعض الأجساد التي تموت بعد ثبوت الحياة لها، بل لا حياة فيها أصلاً، فكيف يعبدونها وهم أفضل منها؟![2]، وهي لا تشعر بالوقت الذي يبعث الله فيه عابديها وهي معهم، ومن كانت هذه صفته فلا يصلح أن يكون إلهـًا ولا ربـًا، مما يدل على جهل من عبدها.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 125).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 187).

وقولــه: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢﴾، ثـم أخـبرهم بـأن الله هـو الإلـه الحـق؛ لأنـه انفـرد بـالخلق والإيجـاد والملـك والتصرف، ولكـن الكفـار قلـوبهم جاحـدة لوحدانيـة الله وألوهيتـه، وجـوارحهم مـستكبرة عـن الخـضوع والطاعـة لـه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وعبّـر عـنهم بالوصـف؛ لأن إنكار البعث والنشور كان أبلغ صفة فيهم، وهي سبب لإعراضهم عن الإسلام، وعبّر بالجملة الاسمية للدلالة على أن الإنكار صار لهم سجيّة، وأنه متمكّن من نفوسهم[1].

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾، حقـًا[2] أن الله يعلم ما يُسر الكفار من العقائد الباطلة، ومـا يعلنونـه مـن الأقـوال المنكـرة، فـالله مُطلـع علـى كـل أحـوالهم، والله يـبغض المتكـبر مـن الخلـق؛ لأن الكِبرياء من أخص صفات الله، فمن نازع الله فيها؛ قـصمه الله[3]، **والـسين والتـاء** للمبالغة **أي:** أنهم قد بلغـوا مـن الكبر مبلغـًا عظيمـًا، **وقـد جـاء تفـسير الكبـر في الحديث، بأنه "بطر الحق وغمط الناس"**[4].

وقولـــه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾، كـــان بعـض كفـار قـريش يقفـون علـى طريـق النـاس القـادمين إلـى مكـة، فـإذا جـاءهم

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 128).
(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 194).
(3) ينظر الحديث في: مسند أحمد: (15/ 439)، برقم: (9703)، وإسناده صحيح.
(4) صحيح مسلم: (1/ 93)، برقم: (91).

شخص غريب، وسألهم عن محمد ﷺ، وماذا أُنزل عليه؟!، **أجابوه بقولهم:** لم ينزل عليه شيءُ، وإنما معه مجموعة من القصص والأخبار التي جمعها عن السابقين له، وهذا من افترائهم وكذبهم على الله وعلى رسوله ﷺ، مع أنهم يعلمون أن القرآن ليس بسحر ولا بكهانة، ولا هو من قصص السابقين، بل وحيٌ من الله، وقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة واحدة مثله، فلم يستطيعوا ذلك.

وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾، **اللام** لام العاقبة[1]، **أي:** فعُوقبوا بسبب ذلك بأن يحملوا جزاء ذنوبهم كاملة، ويحملوا جزاء ذنوب الذين أضلوهم عن اتباع الحق بدون حجة ولا برهان؛ وجهلاً منهم بما يلزمهم من الآثام، وأضاف لهم حمل وزر من أضلوهم؛ لأنهم كانوا سبباً في إضلالهم، **وفي الحديث:** **"من سنّ خيراً فاستنّ به، كان له أجره كاملاً، ومن أجور من استن به، لا ينقص من أجورهم شيئًا، ومن استنّ شرا فاستنّ به، فعليه وزره كاملاً، ومن أوزار الذي استنّ به، لا ينقص من أوزارهم شيئًا"**[2]، **والأوزار** جمع وِزر، وهو في الأصل الشيء الثقيل[3]، **ثم عقّب على حالهم في الآخرة** بأسلوب يدل على الذم والتنفير منهم، فأسوأ الحمل كان حملهم، وأسوأ الجزاء كان جزاؤهم.

وقوله: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 188).

(2) مسند أحمد: (16/ 436)، برقم: (10749)، وإسناده صحيح.

(3) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (ص: 338).

﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾، وقد سبق كفار قريش قوم مكذبون مكروا برسلهم وحاولوا إلحاق الضرر والأذية بهم بأسلوب خفي سيء[1]، فأهلكهم الله بسبب ذلك، بأن هدم عليهم بيوتهم التي تحصنوا بها، فضرب قواعد تلك البيوت التي تحمل السقوف، فسقطت السقوف عليهم، وهم تحتها، فلم ينجُ منهم أحد، واستُؤصلوا جميعًا، وجاءهم الهلاك من حيث لم يكونوا يتوقعونه.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾، ثم إذا كان يوم القيامة يحصل لهم الإهانة والخزي بين يدي الله، ويسألهم الله سؤال توبيخ وتقريع، وهو أعلم بهم، أين الأصنام التي كنتم تدعون أنها شركاء لله، وجعلتموها سببًا للمعاداة والخصومة مع المؤمنين؟!، **وعبّر الله عن الأصنام** بـ"شركائي" على ما كانوا يدّعون ويعتقدون، وذلك على سبيل التهكّم بهم[2]، **أي:** أجعلتم هؤلاء العاجزين شركاء لي؟!، ثم يشهد أهل العلم يوم القيامة، وهم كل من آتاهم الله علم الحقائق من الرسل والأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، والمؤمنون[3]، باستحقاق هؤلاء الكفار الخزي والهوان ووقوع كل سوء بهم من العذاب الشديد، بسبب كفرهم بالله وتكبرهم على الخلق في الدنيا، **واستخدم لفظ**

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 73).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 829).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 137).

"على" الذي يدل على تمكّن الخزي والسوء منهم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾، ثم وصف حالهم حين تقبض أرواحهم الملائكة، حيث ينزل ملك الموت مع مجموعة من ملائكة العذاب إلى كل كافر فيفزعه ويُخيفه فتتطاير روحه في جسده وتهرب ولا تريد الخروج، كما في الحديث[1]، بسبب ظلمها لنفسها بالكفر والشرك، ثم إذا بعثوا يوم القيامة ووقفوا بين يدي الله انقادوا وخضعوا واستسلموا له[2]، باحثين عن أعذار كاذبة للتخلص من العذاب الذي يرونه، فيقولون كذباً: ما عملنا من سوء في الدنيا، ظناً منهم أن الإنكار والكذب سينفعهم، فترد عليهم الملائكة: بلى، قد كنتم تعملون في الدنيا السوء كله، وهو الكفر والشرك بالله والمعاصي، وأن الله قد أحاط علماً بأحوالكم وأعمالكم السيئة التي كنتم تعملونها كلها، صغيرها وكبيرها.

وقوله: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾، ثم تأمرهم الملائكة بدخول أبواب جهنم، وهي سبعة أبواب، وكل باب يُدخَل منه إلى درَكٍ فيه عذاب يتناسب مع جرائم صاحبه، وهذا من عدل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الكفار، **فالعذاب يكون على قدر الذنب في الدنيا**، فإذا دخلوها لم يخرجوا منها، بل يبقون ملازمين لها، وبئس المقام الطويل في جهنم مقامهم، بسبب تكبرهم عن الحق وإعراضهم عن اتباعه.

---

(1) ينظر الحديث في: مسند أحمد: (30/ 499)، برقم: (18534)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 567).

وقوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾، **ثم أخبر عن جواب المؤمنين** المتقين إذا سئلوا عن الوحي الذي جاء به محمد ﷺ، **فإنهم يقولون:** أنزل ربنا عليه قرآنًا فيه كل الخير، فهو يدعو إلى الإيمان والاستقامة والصدقة والعفاف وسائر مفردات الخير، والفرق واضح بين جواب المؤمنين وجواب الكافرين، فقد كان جواب المؤمنين صادقًا موافقًا السؤال، **حين قالوا:** أنزل خيراً، وفي ذلك اعتراف بأن الله أنزله، بخلاف جواب الكافرين، فقد كان فيه تهرّب وكذب، حين قالوا: هو أساطير الأولين، فلم يعترفوا بأن الله أنزله[1]، ثم أخبر الله بأن كل من أحسن في الإيمان والتوحيد والعمل الصالح في الدنيا سيجازيه الله بالخصلة الحسنة في الدنيا، وهي الرزق الواسع، والعيشة الهنية، والطمأنينة في قلب، والأمن والسرور في النفوس[2]، ويمنحهم في الآخرة خيراً مما أعطى غيرهم في الدنيا وهو دخول الجنة، ثم مدحها بأنها نعْم دارٍ أنعم بها على المتقين، فما أجملها وما أحسنها من دار!!.

وقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾، **دار المتقين هي** جنات عدن، التي يدخلونها ويلازمون فيها الإقامة ولا يخرجون منها، وتجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار المتعددة، ولهم فيها كل ما يريدون وما تشتهيه أنفسهم من

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 831).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 439).

الرغبات، **والكاف** للتشبيه، **أي**: مثل هذا الجزاء العظيم يجزي الله به كل من اتقى الله في الدنيا.!

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾، **ثم بيّن حال المؤمنين** حين ينزل بهم ملك الموت مع أعوانه لقبض أرواحهم الطيبة الطاهرة من الشرك والمعاصي، فتبشرهم الملائكة بالروح والريحان، فتحرج نفوسهم بسهولة وهي راضية، وتحييهم الملائكة بالسلام عليهم، وتبشرهم بسلامتهم فيما يستقبل من أمور الآخرة، فإذا بعثوا بين يدي الله طلبت منهم الملائكة أن يدخلوا الجنة دار النعيم، بسبب إيمانهم والأعمال الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا.

وقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾، هل ينتظر هؤلاء الكفار ويبقون على كفرهم إلى أن تأتيهم الملائكة لتقبض أرواحهم، أو ينزل الله بهم الهلاك العام الذي يستأصلهم جميعاً، أو تقوم الساعة عليهم؟![1]، ومثل ما يفعلونه من الكفر والإعراض قد فعله من قبلهم من الأمم السابقة، وما ظلمهم الله بإهلاكه لهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والإعراض عن الإيمان فاستحقوا الهلاك والعقاب على ذلك.

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 211).

وقولـه: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾، فأحاطت بهم عقوبة فعلهم للسيئات فأهلكتهم، وأحاط بهم العذاب الـذي كـانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء من جميع الجهات، فلم يستطيعوا الهروب ولا المفر منه(1).

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – أن الإنسان يحمل وزر عمله ووزر من أضله.

2 – أن شدة العذاب تكون في مجيئه بغتة دون مقدمات ولا تدرج.

3 – بيان فضيلة العلم وأهله، فإن الله جعلهم ناطقين بالحق والشهادة على غيرهم في الآخرة.

4 – بيان فضل الله وكرمه على المؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة.

5 – بيان سهولة نزع الروح من المؤمن، وشدة نزعها من الكافر.

6 – بيان أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة.

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 193).

تفسير المقطع الثالث من سورة النحل

۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا
حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾
وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ
هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ
كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا
رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي
تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ

مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾، **يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** هنا شبهة المشركين من كفار مكة وغيرهم، فإنهم يحتجون على شركهم بعدم إنكار الله عليهم، **أي:** لو شاء الله أن نعبده وحده لا شريك له؛ لمنعنا من عبادة غيره، فلما لم يمنعنا دل ذلك على أنه قد أذن لنا بعبادة غيره[1]، وهذه شبهة باطلة؛ لأنهم استدلوا بمشيئة الله القدرية على إبطال مشيئة الله الشرعية، **فالله له مشيئتان: مشيئة** كونية قدرية متعلقة بأفعاله في هذا الكون، وهذه المشيئة لا تتخلف ولا تتغير، فإذا أراد الله شيئًا كان، ولكن هذه المشيئة لا تدل على أن الله يحب الشيء الذي وقع ولا يرضاه، **والمشيئة الشرعية هي** المتعلقة بأفعال المكلفين، وهي أمره لهم بالإيمان والطاعات، ونهيه لهم عن الكفر والمعاصي، وهذه قد تتحقق وقد لا تتحقق؛ لأنها مرتبطة بفعل المكلفين، ولكن الله يحبها ويرضى بها، فهم احتجوا بالمشيئة القدرية، بمعنى أنهم مجبرون على الكفر والشرك بالله، هم وآباؤهم من قبل، كما أنهم استدلوا بهذه الشبهة على صحة تحريمهم لأشياء على أنفسهم، كالوصيلة والحام والبحيرة والسائبة وغيرها من أنواع الحيوانات التي كانوا يُحرمونها على

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 570).

أنفسهم ويجعلونها للآلهة، وبمثل شبهتهم هذه احتج الذين كفروا من قبلهم على شركهم وكفرهم بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وجادلوا بها رسلهم، فليس كفار قريش أول من احتج بهذه الشبهة، ثم بيّن مهمة الرسل، وهي إبلاغ الرسالة، وإيصال الحجة، وبيان المحجة للناس، ودعوتهم إلى عبادة الله، ونهيهم عن الشرك والكفر بالله، وليس من مهمتهم إدخال الإيمان إلى قلوب الكافرين.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾، ثم بيّن بطلان شبهتهم، وأن الله لم يقرّهم على كفرهم وشركهم بالله، بل أرسل الرسل، وأنزل الكتب؛ للأمر بالتوحيد، والتحذير من الشرك، ولم يترك الله أمة من أمم الكفر حتى أرسل فيها رسولاً يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن عبادة الطاغوت، وهو كل ما عُبد من دون الله برضاه[1]، فمن الأمم التي أُرسلت فيها الرسل من وفقه الله لاتباع الرسل والإيمان بالله، ومنهم من خذله الله عن الإيمان بسبب إعراضهم وتكبرهم عن قبول الحق، وبعدهم عن التعرض لأسباب الهداية، فإن الله يُضل من يشاء عدلاً، ويهدي من يشاء فضلاً، ثم دعا الكفار المخاطبين إلى السير في الأرض والتفكر والتأمل في آثار الأمم الماضية التي أهلكهم الله بسبب تكذيبهم وكفرهم، والاعتبار بما حصل لهم من عقوبة شديدة.

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 392).

ثم قال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾، الخطاب لمحمدٍ ﷺ، والحرص هو الإرادة والعزيمة على فعل الشيء[1]، والمعنى: مهما اجتهدت وعزمت وحاولت أن تُرشدهم إلى الهداية، وبذلت جهدك في الإرشاد والنصح والتوجيه لهم، ولم يُرد الله لهم الهداية بسبب إعراضهم عنها، فلن يُوفقهم إليها، بل يخذلهم الله عنها فيستحقون بسبب ذلك العذاب، فلا يوجد من يدفعه عنهم، ولا ينقذهم منه.

ثم قال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾، ويجتهد الكفار بكثرة الحلف وتعددها، وأغلظوا في الأيمان وبالغوا فيها[2]، تكذيباً منهم بقدرة الله على البعث بعد الموت، فردّ الله عليهم، وكذّب قولهم هذا، بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾، سيبعث الله من يموت، لأن هذا الأمر وعد الله، وهو حق لا يتخلف، بل سيكون لا محالة، ولكن أكثر الناس، وهم المشركون، لا يعلمون ذلك، وهذا يدل على جهلهم المطلق بالله وقدرته وعظمته، ولو علموا ذلك لما أقسموا الأيمان على إنكار والبعث والنشور.

وقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾، اللام للتعليل[3]، أي: ويبعث الله الناس يوم القيامة ليُوضح للمنكرين قدرته، ويثبت لهم صدق ما وعدهم به، ويفصل الخصومة بينهم فيما اختلفوا على

(1) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم: (3/ 145).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 105).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 155).

إثباته، وهو البعث والنشور، ولكي يعلم الذين كفروا وجحدوا به بمشاهدتهم له أنهم كانوا كاذبين في دعواهم بإنكارهم البعث والنشور في الدنيا.

وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾، وأعلمهم الله سهولة خلق الأشياء عليه، وأن تحقيق وعد الله ليس فيه مشقة عليه، بل إيجاده لأي شيء مهما كان عظيماً بقوله له كن فيكون، فلا يقف أمام قدرته شيء، ولا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، فلا تستبعدوا البعث والنشور بقياسكم قدرة الخالق إلى قدرة المخلوق، فالمخلوق ضعيف جداً، وقدرة الخالق لا حد لها، فإذا أراد الله أن يميت الخلق كلهم أماتهم بكلمة!، وإذا أراد أن يُحييهم أحياهم بكلمة!.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٤١﴾، **المقصود بالمهاجرين هنا؛** هم الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة، وهم أصحاب الهجرة الأولى والثانية(1)، لأن السورة مكية، فقد ذكر الله حالهم، وأنهم تركوا أوطانهم وديارهم وأموالهم لأجل الله وإقامة دينه؛ لأنه صعُب عليهم إقامة الدين على أكمل وجه في مكة بسبب ظلم كفار مكة وأذيتهم لهم، وقد وعدهم الله أن يُسكنهم في الدنيا في أرض وصفها بأنها دار حسنة، وهي المدينة(2) التي سماها النبي ﷺ طيبة(3)،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 572).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 62).

(3) مسند أحمد: (45/ 307)، برقم: (27325)، وإسناده صحيح.

ووعدهم الله فيها بالرزق الحسن، والثناء الحسن، والنصر على العدو[1]، وأن ما أعطاهم في الدنيا لا يُنقِص من أجرهم في الآخرة، وهو دخول الجنة والتنعم فيها، فهو خير مما حصلوا عليه من كل نعيم في الدنيا، **وقد أُثر عن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يُوزع العطايا على المهاجرين بعد أن فتح الله عليه البلدان، **ويقول للواحد منهم**: هذا رزقك الحسن في الدنيا، ولأجر الآخرة أكبر، متأولاً لهذه الآية[2]، **والخطاب في قوله**: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، لمن لم يهاجر، فلو كانوا يعلمون مكانة الهجرة وثوابها لهاجروا مع إخوانهم، أما المهاجرون فقد علموا ثواب عملهم؛ فتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا في سبيل الله.!

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾، **ثم وصف الله المهاجرين بالصبر التام الذي يشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي: الصبر** على الطاعة، **وعن** المعصية، **وعلى** الابتلاءات، وأنهم كانوا متوكلين على الله لا على غيره، ففوضوا أمرهم إليه، واعتمدوا في كل أمورهم عليه، فجازاهم الله على ذلك بالجزاء الحسن في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، **هذه الآية فيها جواب على شبهة الكفار** الذين كانوا يعتقدون أن الله لا يُرسل الرسول من البشر، وإنما يرسله من الملائكة، **كما في قولهم**: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[التغابن:6]، **وقولهم**: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[إبراهيم:10]، ونحوها من

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 560).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 206).

الآيات، **فبيّن الله أن** كل الرسل الذين أرسلهم الله قبل محمد ﷺ كانوا رجالاً من البشر، لتحقيق الأُسوة والقدوة بهم، **ولفظ: "رجالاً" يُفيد أمرين**[1]، **الأول:** أن الرسل ليسوا من الملائكة، **والثاني:** أنهم ليسوا من النساء، ثم بيّن أن الفرق بين بشرية الناس وبشرية الرسل، هو نزول الوحي على الرسل، وبه حصلت لهم المكانة والفضل، ثم أمر كفار قريش إن كانوا لا يعلمون أن الرسل من البشر بأن يسألوا أهل العلم من أهل الكتاب من قبلهم، وهم اليهود والنصارى، عن صنف الرسل الذين أُرسلوا إليهم؛ هل كانوا من الملائكة أم من البشر؟! فإن كانوا بشراً فلِمَ تنكرون على محمد ﷺ ذلك[2]، وقد كان كفار قريش يتواصلون مع اليهود والنصارى ويسألونهم عن مسائل في الدين، ويعتبرونهم قدوة في ذلك، وفي الآية دليل على وجوب سؤال أهل العلم في كل فن، فيُسأل الأطباء عن مسائل الطب، ويُسأل المهندسون عن مسائل الهندسة، ويُسأل علماء الشريعة عن مسائل الشرع، وهكذا.

وقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾، **يحتمل أن يكون** تعلق الجار والمجرور بأهل الذكر، **ويحتمل** أن يكون متعلقاً بأرسلنا[3]، **فعلى الاحتمال الأول؛ يكون المعنى:** أن أهل الذكر هم الذين لديهم علم بالحجج والبراهين والأدلة العقلية، ولديهم

(1) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (2/ 379).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 573).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 197).

علم بالأدلة النقلية المكتوبة في الكتب، وهي الزبر، **وعلى الاحتمال الثاني؛ يكون المعنى**: أن الله أرسل الرسل بالحجج والبراهين والكتب، وهو الراجح للسياق بعده، فكما أنزلنا على الأنبياء والرسل الكتب والحجج والبراهين؛ أنزلنا عليك كذلك هذا الكتاب، وهو القرآن، لكي تقرأه وتشرحه وتوضح للناس ما نزّل الله إليهم من الأحكام، ويدخل في مسمى الذكر السنّة، فهي شارحة ومبيّنة للقرآن الكريم، وهي متوافقة مع القرآن وملازمة له في بيان شرع الله، بخلاف بعض الفرق التي لا تحتج بالسنّة على تفسير القرآن، وبيان الأحكام الشرعية التي فيه، بل يصرّح بعضهم بالاكتفاء بالقرآن عن السنّة، وهي شبهة قديمة حديثة، المقصد منها فتح مجالٍ لتحريف معاني القرآن تبعًا للأهواء والمذاهب الباطلة المخالفة للسنّة، فتركوا تفسير السنّة وتفسير السلف من الصحابة والتابعين للقرآن، وفسروا القرآن بما يتوافق مع أهوائهم، ولعل المخاطبين بهذا حين تقرأ عليهم القرآن وتفسر لهم معانيه، يتفكروا فيه؛ فيفهموا المقصد منه؛ ويهتدوا به.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾، **الاستفهام** استنكاري تعجبي، لأنه لا يأمن مكر الله أحد من الخلق، فهم تحت قهره وسلطانه، فهل يصح أن يأمن الكفار الذين يمارسون فعل السيئات من الكفر والمعاصي ونحوها من الأذية للرسل أن يخسف الله بهم الأرض؟!، **والخسف**: زلزال شديد تنشق به الأرض، فتحدث بانشقاقها هوة عظيمة تسقط فيها الديار والناس[1]، فينزلون في جوفها، كما فعل

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 164).

بقارون، أو يأتيهم عذاب الاستئصال لهم فجأة من مكان لا يترقبون أن يأتيهم منه ضر، أو يأخذهم العذاب أثناء حركتهم وسفرهم وسيرهم في طرقاتهم وأعمالهم[1]، فليسوا بممتنعين عن الله، ولا يُعجِزونه في شيء، أو يأخذهم العذاب حال خوفهم وهلعهم من هلاك من سبقهم من قومهم، أو يأخذهم الواحد تلو الآخر حتى ينتهوا[2]، ولكنه أمهلهم وأجّل عقوبتهم لعلهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله قبل أن يعاقبهم، وهذا من رأفته ورحمته بهم.

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾، **الاستفهام** استنكاري تقريري، والرؤية يمكن أن تكون بصرية، لأنهم يروا المخلوقات، ويمكن أن تكون قلبية، بمعنى العلم والتفكر فيما خلق الله من المخلوقات، و"مِنْ" بيانية، فتشمل كل الأشياء التي خلقها الله مما لها جسم قائم له ظل، يميل ويدور من جانب إلى جانب آخر[3] بحسب موقع الشمس منه وحركتها، **وذكر اليمين والشمال** كمثال للجهات الأربع التي يتحرك فيها الظل[4]، وشبّه حركة الظل على الأرض بالساجد لله، وهل هذا السجود حقيقي أو مجازي؟! **قولان**[5]، **فيحتمل** أنه يسجد لله سجوداً حقيقياً مثل البشر، **ويحتمل** أن يكون سجود خضوع، فكل المخلوقات تخضع لله،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 575).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 837).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 81).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 169).

(5) ينظر: تفسير الرازي: (20/ 215).

والداخر هو الصاغر[1] الذليل لعظمة الله طوعـًا أو كرهـًا.!

وقولــه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾، **لما ذكر الله السجود** الأول، وهو خاص بالأشياء التي لها جسم وظل؛ ذكر بعده سجود كل ما يدب ويتحرك في السماء والأرض من الحيوانات، وخص الملائكة بالذكر لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، وأنهم لا يستكبرون عن السجود والخضوع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، بل هم خاضعون مُنقادون لأمر الله، ويخافون الله الذي هو فوقهم بذاته وقهره سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ[2]، وينفذون أمره بكل دقة وانضباط دون زيادة أو نقص، فلا يُخالفونه، ولا يعصون أمره، وفي الآية إشارة إلى تواضعهم وإقبالهم على الله وخوفهم، مع كثرة عبادتهم واستمرار طاعتهم لله تعالى، والتعريض بحال المشركين المكذبين المستكبرين عن طاعة الله.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن العاقل من يتعظ بغيره، وأن الجاهل من اتعظ بنفسه.

2- بيان أن الله لا يرضى لعباده الكفر، بل أرسل الرسل في كل الأمم لنهيهم عن ذلك.

3- بيان حرص النبي ﷺ على هداية الناس، وشفقته ورحمته بالخلق.

---

(1) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 207).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 442).

4- بيان فضيلة الهجرة في سبيل الله والصبر عليها والتوكل على الله في ذلك.

5- بيان أن الرسل كلهم من الرجال، وليسوا من الملائكة، ولا من النساء.

6- بيان مشروعية سؤال أهل العلم في كل فن، والتحذير من سؤال الجاهلين.

7- بيان قدرة الله على إهلاك المكذبين في كل أحوالهم.

8- بيان تواضع الملائكة مع كثرة عبادتهم وخوفهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

تفسير المقطع الرابع من سورة النحل

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا
مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾
لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا
رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا
يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ
مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ
ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا
يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ
أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ
لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قــول الله تعــالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١﴾، **نهى الله الخلق** عن عبادة آلهة متعددة غير الله جل وعلا، فالنهي عن عبادة إلهين اثنين يشمل من باب أولى ما زاد عليها، لأن الإله الحق لا يكون إلا واحداً، وهو الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، **وهـذا النهـي** يـشمل المجـوس الـذين كـانوا يعتقـدون بـإلهين للكون: إله للشر، وإله للخير، وقد قلّدهم في ذلك بعض قبائل العرب[1]، ثم أمر الله الخلق بإفراده بالخوف والرهبة منه، والنهي عن الخوف من غير الله، ويُفهم من الخطاب النهي عن الرغبة والرجاء لغيره، واستخدم أسلوب الالتفات، وهو نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور، لأنه أبلغ في الترهيب[2].

وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾، ولله ما في الكون كله خلقاً وملكاً وتدبيراً وتصريفاً، **وقدّم "وله"** لغرض الاختصاص، فإن الله قد اختص بذلك دون سواه، وله الطاعة والخضوع المطلق الواجب الدائم[3] المستمر الذي لا ينفك عن الخلق في جميع الأوقات، بخلاف طاعة غيره، فقد يُطاع ثم تنقطع الطاعة بحقه لموته أو لعزله ونحو ذلك، أما الله فهو الحي الذي لا يموت، وهو المتصرف في الخلق، طاعتهم له واجبة ودائمة، طوعاً أو كرها، والسؤال استنكاري تعجبي، **أي:** كيف يليق بكم أن تخافوا من غير الله؟! فلا أحد غير الله يستحق أن يُخاف منه ويُتقى سخطه!.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 171).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 81).

(3) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 104)

وقولــه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ٥٣ ﴾، جميع النعم التي منّ الله بها عليكم؛ فالله مالكها وواهبها لكم، سواءً كانت هذه النعمة دينية، كالإسلام والإيمان، والطاعة والرضى، أو دنيوية، كالصحة والمال، والولد والجاه، وسائر نعم الدنيا، فلا تنسبوها إلى أنفسكم، واشكروا الله عليها، ولا تجحدوها، فإن من طبيعتكم نسيان شكر النعم، وعدم الصبر على النقم، فإذا حصلت لكم مصيبة رفعتم أصواتكم بطلب العون من الله والاستغاثة به[1] ليرفع ما نزل بكم من ضر، كالفقر والمرض والسجن ونحو ذلك مما يتضرر منه الإنسان، وتخلصون الطلب في ذلك لله؛ لأن الإنسان وقت الشدة لا يعرف إلا الله، فيلجأ إليه بصدق، بخلاف وقت الرخاء، فقد ينسى ربه الذي أنعم عليه وأعطاه، وهذا في الغالب وصفٌ للمشركين، أما المؤمنون؛ فإن الإيمان قد هذّب فيهم هذه الصفات، فهم يذكرون الله عند الرخاء وعند الشدة.

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٥٤ ﴾، ثم إذا كشف الله الضر عنكم أيها الناس بعدما ذقتم شيئًا من مرارته وألمه؛ إذا فريق منكم، **والمقصود بهم الكفار**[2]، لا يشكرون الله على ذلك، بل ينسبون الخلاص إلى ذكائهم وحسن تصرفهم، ويعودون إلى الشرك مرة أخرى.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٥٥ ﴾، **اللام** لام التعليل، **أي:** ليجحدوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء، **وقيل:** لام

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 204).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 203).

العاقبة، **أي:** ليجعلوا النعمة سبباً للكفر[1]، **فيُقال لهم على سبيل التهديد والوعيد:** عيشوا متمتعين بهذه النعم في الدنيا، فسوف تعلمون ما ينزل بكم من العقوبة والعذاب بسب ذلك.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ٥٦﴾، ثم بيّن حال المشركين الذين كانوا يُصيّرون جزءاً من نعم الله التي رزقهم للأصنام، كالسائبة والبحيرة والحام وغيرها، فقد كانوا يحرّمونها على أنفسهم، فلا يأكلون منها ولا يتصرفون فيها، بل يُعطونها للأصنام التي لا تعلم عن فعلهم وتصرفهم هذا شيئًا؛ لأنها جمادات لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر، ثم أقسم الله على أنه سيسألهم يوم القيامة عن هذه الأمور التي افتروها وكذبوها على الله بدون دليل ولا حجة، ويعاقبهم على ذلك.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ٥٧﴾، **ومن أعمال المشركين القبيحة** أنهم ينسبون إلى الله البنات، كما حصل من بعض قبائل العرب، كخزاعة وكنانة، الذين زعموا أن الملائكة بنات الله[2]، **فنزّه الله نفسه عن هذه الفرية الباطلة** التي لا تليق به سبحانه، وأخبر أنهم لا يقبلون بنسبة الإناث لأنفسهم، بل يطلبون لأنفسهم ما يحبون ويرغبون به من الولد وهو الذكر فقط[3].

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 115).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 91).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 843).

وقولــه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾، وإذا جاءت أحدهم البشارة بأن زوجته قد ولدت بنتًا؛ فإنه يُصاب بالكرب والحزن من ذلك، ويظهر أثر ذلك على وجهه فيتغير لونه إلى السواد، وهو ساكت مكبود من شدة ما هو فيه من الحزن والقهر[1]، ويختفي من أصحابه وجماعته ولا يريد أن يقابلهم، حتى لا يُعيّروه بهذه البنت التي ساءته البشارة بها، وقد كانت هذه عادة سيئة عند العرب قديمًا، وما زالت موجودة عند بعض الناس إلى اليوم، فإنهم يستاؤون من ولادة البنات، ومن شدة كرهه للبنت التي بُشّر بها؛ فإنه يُفكّر في أمرها، ويتردد في القرار بشأنها، هل يُبقيها عنده وهي مهينة بلا كرامة، ولا عناية بها، ولا يورثها، ويفضّل أولاده الذكور عليها، أم يدفنها وهي حيّة في التراب ويتخلص منها؟!، **وقد كان هذا الفعل منتشراً بين المشركين، كما قال:** ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾[التكوير: 8-9]، **ثم وصف الله هذا التصرف منهم** بأنه سيء، فما أسوأ هذا الحكم الذي حكموا به، حيث نسبوا لله الولد، واختاروا لأنفسهم الأكمل من الولد وهم الذكور، وجعلوا لله البنات، وجاء التعقيب بصيغة الجمع؛ لاتفاق المشركين على ذلك دون نكير منهم.

وقولــه: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾، **ثم أخبر** أن للمشركين، الذين من أخص صفاتهم إنكار البعث والنشور، مثل السوء، وهو اتصافهم بمجموعة من الصفات السيئة الناقصة التي

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 578).

لا تنفك عنهم، ولله صفات الكمال التامة المطلقة[1]، فشتان بين صفات المخلوق وصفات الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يوجد تعارض بين هذه الآية التي تُثبت المثل لله، **والآية الأخرى التي تنهى عن ذلك، وهي قوله:** ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[النحل: 74]؛ **لأن المثَل له معنيان: بمعنى** الشبيه، **وبمعنى** الصفة الكاملة، فالنهي عن إثبات الشبيه لله، والإثبات للصفة الكاملة لله[2]، **ثم وصف نفسه سبحانه** بأنه العزيز الذي لا يغلبه شيء، والحكيم في أفعاله وأقواله وتشريعاته، فالعزة تقتضي نفي الضعف عنه، والحكمة تقتضي نفي الخلل والقصور في أفعاله.

وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾، ولو يعاقب الله الناس بعذاب الاستئصال بسبب كفرهم وشركهم بالله عند وقوعه منهم[3]؛ ما أبقى على ظهر الأرض من دابة، وهي كل ما يدبّ على الأرض من الحيوان، بل يهلكهم جميعًا، بالرغم من أن الحشرات والدواب والأنعام غير مكلّفة، إلا أن خطر الكفر يعمّ الخليقة كلها، ولكن الله لا يُعاقب الناس بمجرد وقوعهم في الكفر، بل يُعطيهم سنّة الإمهال إلى مدة محددة وأجل مسمى معلوم عنده، وهو أجل عذابهم[4]، فإذا جاء أجلهم المحدد فلا يتأخرون عنه، ولا يتقدمون عنه لحظة من الزمن.

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 443).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 119).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 83).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 205).

وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾، **ويضيف الكفار والمشركون إلى الله وينسبون له البنات، فقالوا:** الملائكة بنات الله، وهم يكرهون نسبتها لأنفسهم[1]، ويمارسون الكذب الصريح وينطقون به بألسنتهم ولا يكتمونه، بل يُعلنون أن لهم الجزاء الحسن[2] والحالة الحسنة من النعمة والخير والجاه والمكانة في الدنيا، ولو وجد بعث ونشور، فهم من أهل الجنة؛ لأنهم أحق بها من غيرهم[3]، فردّ الله عليهم هذا الافتراء، بأن لهم في الآخرة النار، فهي مأواهم ومصيرهم بلا شك ولا ريب، وأنهم مُعجلون وسابقون إلى جهنم قبل غيرهم، ومنسيون ومتروكون فيها[4]، فلا أحد يسأل عنهم، ولا يشفع لهم، ولا يُخرجهم منها.

وقوله: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾، **ثم أقسم الله بنفسه، مسليًا لرسوله ﷺ**، بأنه قد أرسل رسلاً إلى الأمم السابقة التي كانت قبل أمة محمد ﷺ، يدعونهم إلى الإيمان وعبادة الله وحده، ولكن الشيطان حسّن لهم الكفر والشرك والإعراض عن الإيمان بالله، وسائر أعمالهم القبيحة، وما زال الشيطان وليًا للمشركين حتى اليوم، يزيّن لهم الكفر والضلال[5]، ويدعوهم إليه، وهو وليّهم يوم

(1) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 100).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 207).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 102).

(4) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 196).

(5) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 208).

القيامة، ولا يملك لهم خلاصاً[1]، وقد أعدّ الله للشيطان وأوليائه من الأمم السابقة واللاحقة عذاباً شديداً في جهنم.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾، **الخطاب لرسول الله** ﷺ، مبيّناً له أن الحكمة من إنزال القرآن عليه هي البيان للناس في كل أمور الدين التي اختلفوا فيها، ومنها أمر البعث والنشور، والحلال والحرام، والحق والضلال ونحوها[2]، وجعل القرآن سبباً للهداية إلى طريق الحق والصواب، وسبباً للرحمة، وخصّ ذلك بالمؤمنين؛ لأنه لا يستفيد من القرآن إلا من آمن به، أما المعرض عنه المكذب به فإن الهداية والرحمة بعيدة عنه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- النهي عن عبادة غير الله، وبطلان الشرك به.

2- أن الرهبة والرغبة الكاملة لا تكون إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

3- أن النعم كلها مصدرها وواهبها للخلق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

4- أن من طبيعة النفس الإنسانية التجاؤها إلى الله وحده وقت الشدة والوقوع في الضر.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 580).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 84).

5- أن من جهالات المشركين نسبة البنات إلى الله والتنزه عن نسبتها لأنفسهم.

6- أن من العادة السيئة عند العرب في الجاهلية عدم الفرح بولادة الأنثى.

7- أن من سنن الله سنّة الإمهال للكافرين والعصاة إلى أجل مسمى لعلّهم أن يتوبوا.

8- بيان غرور الكافر وادعائه أنه هو أفضل حالاً من غيره في الدنيا والآخرة.

9- بيان أن القرآن أنزله الله تِبياناً لكل شيء، وجعله سبباً للهداية والرحمة للمؤمنين.

تفسير المقطع الخامس من سورة النحل

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ
يَسۡمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا
سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ
مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ
يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ وَٱللَّهُ
فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ
أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ
وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ
٧٤ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا
فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾، **يُخبر الله** عن بعض دلائل عظمته وقدرته في الخلق والإيجاد لتذكير الخلق باستحقاقه للألوهية وحده لا شريك له، فهو الذي أنزل من السحاب ماء المطر، **وبيّن** أثر الماء على الأرض، حيث يحييها بعد أن صارت يابسة قاحلة جافة بإخراج النبات منها، وفي ذلك علامة ودلالة على قدرته على البعث والإحياء بعد الإماتة لمن يسمع كلام الله سماع تدبر وعمل فيتعظ بذلك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾، **ومن دلائل عظمة قدرته في الخلق والإيجاد** أنه جعل لنا في الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم بنوعيه، عظة وعبرة، واختص الأنعام بالعبرة تنبيهاً إلى بديع صنعها، وكيفية خلق الألبان منها، التي نشربها فنرتوي منها، وتقوم مقام الطعام، **والضمير في "بطونه"** يعود على الأنعام، فهي اسم جنس يُذكّر إذا أفرد، ويؤنث إذا كان جمعاً[1]، **فذكّرها هنا، وأنثّها في قوله:** ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾[المؤمنون: 21]، **ثم بيّن** أن هذا اللبن يخرج من بطون

---

(1) ينظر: الدر المصون للحلبي: (7/ 253).

تلك الأنعام من بين الفرث، وهو بقايا فضلات الطعام في الكرش[1]، والدم، ومع ذلك فلا يغيّران له لونًا ولا طعمًا ولا رائحةً، فاللبن يتكوّن من العلف الذي تأكله الأنعام، ويذهب إلى المعدة فيُطحن ثم يفرغ في الأمعاء، فيُمتَص منه الغذاء بواسطة الدم ويجري في الجسم، وما بقي منه يصير فرثًا، وهو الروث الذي يخرج من الدبر، وما امتُص منه في الدم يدور في خلايا الجسم، فجزء منه يذهب إلى الكبد فيمتص منه السموم، وجزء منه يذهب إلى الكلى ويُخرج من القبل على هيئة البول، وجزء منه يذهب إلى الضروع فيخرج منها لبنًا[2] نظيفًا لا شائبة فيه ولا أوساخ، فيشربه الشارب فلا يُغص به، لسهولة نزوله من الحلق ولذة طعمه.

وقوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾، **ومن دلائل عظمة الله وقدرته في الخلق والإيجاد؛** بيان ما تنتجه النخيل والأعناب من ثمرات عجيبة يصنع منها الإنسان الشراب الذي يُسكر وهو الخمر، والرزق الحسن وهو جميع ما يؤكل ويشرب حلالاً من هاتين الشجرتين، وهذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر، فهي مكية باتفاق العلماء، وتحريم الخمر كان في المدينة[3]، ولكن في لفظها إشارة إلى الابتعاد عنه، فالعاقل يبتعد عن الشراب المسكر الذي يذهب عقله، ويختار الرزق الحسن من هذا الثمرات، وقد وُجد عُقلاء في الجاهلية لم يشربوها وهم على الشرك، ومنهم أبو

(1) ينظر: تاج العروس: (5/ 322).
(2) ينظر: تفسير الرازي: (20/ 232).
(3) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 128).

بكر الصديق، لم يشرب الخمر في الجاهلية ولا في الإسلام[1]، **واسم الإشارة** يعود على ما سبق، وهو إخراج اللبن من الأنعام، وإخراج الثمرات من النباتات، ففي ذلك علامة وحجة لمن استخدم عقله وتفكر وتأمل فيها، فتدلّه على الخالق العظيم المستحق وحده للعبادة.

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾، **ومن دلائل عظمة قدرته في الخلق والإيجاد** خلق النحل، **وسمّي بهذا الاسم**؛ لأن الله سبحانه نحل الناس وأعطاهم العسل الذي يخرج منها[2]، فقد ألهمها الله في نفسها وعلّمها طريقة صناعة بيوتها واختيار الأماكن المناسبة لهذه البيوت؛ لأن اختيار المكان له فائدتان: البعد عن أذية الآخرين لها، واختيار مكان ملائم للعسل الذي تنتجه، فهي تختار الأماكن الجيدة التي فيها تهوية وبعيدة عن القاذورات ووصول النجاسات إليها، **و"مِن" هنا** بيانية، لاختيار المكان المناسب، سواء كان في الجبل أو في تجاويف الأشجار، أو في الأسقف المرتفعة عن الأرض، أو في البيوت التي يصنعها لها البشر من الخشب ونحوه، ثم أرشدها إلى الأكل من كل زهرات الثمار الصالحة لإنتاج العسل، وهيّأ لها السير المنتظم في الطرق المذلّلة المُوصلة إلى تلك الثمرات والعودة إلى بيتها، فهي تطير بعيداً ثم تعود إلى بيتها دون أن تضلّ

(1) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي: (ص: 29).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 86).

طريقها، ثم بيّن كيفية صناعتها للعسل، فإنها بعد أكلها للأزهار تجمعها في حواصل خاصة في جسدها، فإذا رجعت إلى بيتها أفرغت من فمها ما في حواصلها من العسل في الشمع على شكل سائل، ثم يتجمّد هذا السائل بسبب الشمع، الذي يحتوي على مادة حارة تمتص الرطوبة(1)، ثم يتحول إلى عسل له قوام متعدد الألوان بحسب نوع الأزهار التي تأكلها النحلة، فمنه أبيض وأصفر وأسود ونحوها من الألوان، وجعل الله في هذا العسل سببًا لشفاء الناس المرضى الذين ينفعهم إذا شربوه أو استخدموه لأمراضهم، **وفي الحديث**: "أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: **اسقه عسلاً**، ثم أتى الثانية، فقال: **اسقه عسلاً**، ثم أتاه الثالثة، فقال: **اسقه عسلاً**، ثم أتاه، فقال: قد فعلت، فقال: **صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً، فسقاه فبرأ**"(2)، وذلك لأن العسل ينظف الفضلات الزائدة في الجسم، فقد كان عند الرجل فضلات متكدسة في أمعائه، فلما شرب منه عدة مرات نظفها وحصل له الشفاء التام بعد ذلك، **واسم الإشارة** يعود على ما سبق ذكره من خلق النحل وكيفية صناعتها للعسل، ففي ذلك عظة وعبرة لمن يُعْمل فكره، فيستدل بذلك على عظمة خالقها واستحقاقه للعبادة.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ ﴾، **ومن دلائل عظمة الله وقدرته** أنه خلق الناس وأوجدهم

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 208).

(2) صحيح البخاري: (7/ 123)، برقم: (5684).

بالطريقة المعروفة لهم، ويتوفاهم متى شاء، فمنهم من يموت طفلاً، ومنهم من يموت شاباً، ومنهم من يعيش حتى يبلغ عمراً طويلاً فتضعف حواسه وتذهب قواه، ويُصاب بالخرف وذهاب العلم الذي كان قد اكتسبه، ويعود إلى حالته السابقة من الجهل والضعف، وقد اختلف المفسرون في تحديد فترة أرذل العمر على أقوال[1]، **والراجح** أنها لا تُقاس بالسنين، وإنما بالصفات والتصرفات، فقد يبلغ عمر بعض الناس مائة سنة، وهو محتفظ بحواسه وذاكرته، وبعضهم يصل عمره إلى دون الستين وقد أصابه الخرف، ثم ذيّل الله الآية بذكر اسميه، وهما العليم القدير، لبيان أن علمه وقدرته محيطة بالإنسان في كل أطوار حياته.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾، **ومن دلائل قدرة الله في الخلق** أنه جعل بعضهم أغنياء، فوسّع عليهم في الأرزاق، وجعل بعضهم فقراء، فقتّر عليهم في الأرزاق، وأن الأغنياء لا يُشركُون في أموالهم أحداً من عبيدهم، ولا يتساوون معهم في ملكها، بل يظل العبد عبداً، والمالك مالكاً، ولا ينكر بعضهم على بعض ذلك، أما المشركون فقد جعلوا الأصنام شركاء لله في الألوهية، وهي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، ثم سألهم سؤالاً توبيخياً تقريعياً لهم؛ لأنهم لا يرضون أن يشركوا عبيدهم معهم في فضل رزقهم، فكيف يسوون الله بعبيده في الألوهية ؟![2]، فإن هذا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله عليهم.

---

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 200).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 214).

وقولـه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾، **ومن نعم الله على الناس** أن صيّر لهم أزواجًا من جنسهم، ليسكن بعضهم إلى بعض ويستأنس كل منهم بالآخر، ويحصل التناسل بينهم ويرزقهم الله الأبناء والحفدة، وهم أبناء الأبناء[(1)]، **وسمو حفدة؛** لأنهم غالبًا يقومون بخدمة الأجداد عند كبر سنهم[(2)]، **ومـن نعمـه علـى النـاس** أن رزقهـم عمـوم الطيبـات مـن مـأكولات ومشروبات وملبوسات ونحوها، ثـم سأل الله المشركين به سؤالاً استنكاريًا توبيخيًا لهم، كيف صدقتم بالباطل وهو عبادة الأصنام والأوثان مع عجزها، وكفرتم بالله الذي منحكم هذه النعم العظيمة؟!

وقوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾، **ثم بيّن ضلال المشركين** بأنهم يعبدون غير الله من الأصنام والأوثان وهي لا تملك لمن يعبدها رزقًا، ونكّر شيئًا للمبالغة في النفي، **أي:** ولا يملكون جزءاً قليلاً من الرزق[(3)]، فهي لا تستطيع أن تنزل المطر من السماء، ولا أن تنبت الزرع في الأرض[(4)]، فضلاً عن قدرتها عن مِلك باقي أنواع الرزق، كالصحة والعافية والمال والجاه ونحوها، بل لعجزها المطلق لا تفعل شيئًا ينفع العابدين لها، ولا تفعل شيئًا يضرّهم! ونفي الاستطاعة بعد نفي

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 852).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 586).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 221).

(4) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 588).

الملك لتأكيد ذم تلك الأصنام[1].

وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾، **معنى المثل هنا** هو الشبيه والنظير، **أي:** فلا تجعلوا له أنداداً وأشباهـاً وأمثالاً[2]، ولا تُشبهوا الله بشيء من خلقه، ولا تُشبهوا أحداً من الخلق بالله، لأن هذان النوعان من التشبيه هما سبب الانحراف في التوحيد، فتشبيه الخالق بالمخلوق ضل بسببه المعطلة والمشبهة في توحيد الأسماء والصفات، وتشبيه المخلوق بالخالق ضل بسببه المشركون في توحيد الألوهية، ومن فعل ذلك فهو جاهل؛ لأن الله نفى عنهم العلم الصحيح بالله وما يستحقه من صفات الكمال.

وقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾، **ثم ضرب الله لهم مثلاً** لبيان بطلان شرك المشركين به، فشبّه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال عبد مملوك لسيده لا يقدر على التصرف في نفسه ولا يملك مالاً، ولا يقدر على فعل شيء، وشبّه شأن الله تعالى في رزقه إياهم بحال الغني[3] الذي رزقه الله رزقاً حسناً، ولدية القدرة الكاملة على التصرف المطلق في ماله، فهو ينفق منه متى شاء وكيف شاء، فهل يستوي حال العبد المملوك العاجز مع حال الحر الغني القادر، الجواب: لا يستويان، فهكذا لا تستوي حال

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 852).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 588).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 224).

المعبودات العاجزة مع الله الغني القادر سبحانه، فلما أفحمهم الله وأبطل حجتهم، أثنى على نفسه بالحمد المطلق، وبيّن أن أكثر المشركين جهلة لا يعلمون ما يستحقه الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من التوحيد، ولذلك أشركوا معه غيره.

وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾، **وضرب للمشركين أيضًا مثلاً آخر بحال رجلين حُرّين، الأول:** أبكم لا يستطيع النطق من يوم ولادته، فلا يستطيع فهَم ما يُقال له، ولا يُفهِم غيره بما يريد، وغالبًا أن من وُلد أبكمًا يكون أصمًا، لا يَسمع ولا يُسمِع، فانسدت عليه منافذ الفهم والإفهام، وهو عالة على غيره ممن يلي أمره، **والكلّ في اللغة:** الثقيل الذي لا خير فيه[1]، فلا يقوم بما يُطلب منه، ولو وجّهه وليّه لعمل شيء ما فإنه لا يستطيع فعله، ولو بعثه في حاجته لما قضاها له، ونفى عنه المجيء بشيء فيه خير لمولاه، فاحتمال مجيئه بالشر وارد، فهل يستوي من هذا وصفه مع الرجل الآخر الذي يأمر بالعدل، وفي ذلك إشارة إلى اكتمال صفات الخير في شخصيته، كالقدرة والعلم والفهم والعقل، واكتمال الاستقامة في دينه وسلوكه، **فالأول هو** مثلُ الأصنام الجامدة التي لا تفقه، وهي محتاجة إلى من يحرسها وينفض عنها الغبار، **والثاني هو** مثلٌ لكماله تعالى في ذاته وإفاضته الخير على عباده[2]، **وقيل:** هو مثلٌ للمؤمن والكافر[1]، **فالرجل الأول**

---

(1) ينظر: لسان العرب: (11/ 594).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 228).

يُشبه حال الكافر المشرك الذي يعبد غير الله، فإنها لا تعود عليه بشيء من الخير، بل تعود عليه بالهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة، **والرجل الثاني** يُشبه حال المؤمن الموحد الذي يعبد الله وحده، وتعود عليه تلك العبادة بكل خير في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾، **ثم أخبر الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن إحاطته المطلقة** بكل ما غاب عن الخلق كلهم في الكون من الأشياء، وأنه لا يخفى عليه شيء منها، ثم ذكر الساعة وهو اسم لإماتة الخلق وإحيائهم[2]، وهو الأمر الذي كثر فيه جدال المشركين واستبعادهم لوقوعها، فأخبرهم أن الله قادر على إماتة الخلق وبعثهم في لحظة لا تتجاوز زمن حركة البصر السريعة، **و"أو" هنا** بمعنى بل[3]، **أي:** بل يتم ذلك في لحظة هي أسرع من لمح البصر، ولو وُجدت حركة في جسم الإنسان معروفة للناس هي أسرع من لمح البصر لذكرها لهم، وهي كناية عن سرعة القدرة على الإتيان بالساعة التي يكذبون بها، فإن الله على كل شيء قدير، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 589).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 214).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 218).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان دلائل عظمة الله وقدرته في إنزال المطر وإنبات الأرض، وفي إخراج اللبن السائغ الخالص من بين فرث ودم.

2- بيان قدرة الله وعظمته في خلق النحل وإلهامها بطريقة صناعة العسل الذي فيه شفاءٌ للناس.

3- بيان أن التفضيل في الرزق من عدمه لا علاقة له بالإيمان ولا بالكفر وإنما هو ابتلاء.

4- بيان فضل الله على الخلق، بأن خلق لهم من أنفسهم أزواجًا، وجعل لهم بنين وحفدة.

5- بيان بطلان آلهة المشركين بالحجج العقلية.

6- أن من وسائل الإيضاح ضرب الأمثال، فإنها تُقرب المعنى البعيد وتوضحه.

7- بيان إحاطة علم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالكون، وسرعة تنفيذ أمره فيه بأقل من لمح البصر.

تفسير المقطع السادس من سورة النحل

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ
وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا
يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا
وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا
وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ
لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم
بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ
ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣ وَيَوۡمَ
نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ
قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ
لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨ وَيَوۡمَ
نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾، **يمتن الله تعالى على عباده بذكر بعض نعمه عليهم، ومنها:** أنه أخرج الإنسان من رحم أمه بعد استكمال مدة الحمل طفلاً ضعيفًا جاهلاً لا يعلم شيئًا، وقد خلق له أدوات العلم والمعرفة والفهم والاستيعاب، وهي السمع والبصر والقلب، وخص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها، بل هي أهم منافذ العلم وأدواته التي بها يتعلم الإنسان[1]، ويلحق بها باقي الحواس الأخرى، وفعل الله بكم ذلك لكي تشكروه على هذه النعم؛ فتعبدوه وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٧٩﴾، **ومن دلائل قدرته سبحانه** أنه خلق الطير وأودع فيها قوة الحركة، وخلق لها الوسائل التي تمنعها من السقوط أثناء الطيران، كالأجنحة والذيل والحويصلات الهوائية وغيرها، وسخّر لها هذا الهواء اللطيف، وجعلها تطير في طبقات الجو البعيدة الواسعة بين السماء والأرض دون أن تسقط، وهو الذي يمسكها في حال قبض أجنحتها وبسطها واصطفافها في الهواء[2]، فهل تأملتم أيها الناس في هذا الأمر بعد رؤيتكم له؟! ففي ذلك حجة وعلامة يتعظ بها قوم يؤمنون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وخص المؤمنين بالذكر لأنهم من ينتفع بهذه الآيات.

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 445).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 91).

وقولــــه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾، **ثم امتنّ الله على الناس** بذكر نعمه عليهم في البيوت، فذكر أولاً بيوت المدن والقرى، وهي التي تكون للإقامة الطويلة[1]، وهي التي تبنى من الأحجار والطين ونحوها، فيستقر الناس فيها، ويحصل لهم فيها الهدوء والراحة والبُعد عن الأذية، ثم ذكر بعدها بيوت الخيام والقباب التي تُصنع من جلود الأنعام ومن شعرها، وتكون خفيفة الحمل في السفر والحضر، وصالحة للتنقل بها من مكان إلى آخر، ويتّقون بها الحر والبرد والمطر، وهي التي يستخدمها صنفٌ من الناس، وهم البدو الرحَّل ونحوهم، ثم ذكر بعدها نعمة الانتفاع بأصواف الضأن، وأوبار الجمال، وشعر الأغنام والأبقار، لصناعة الأثاث وهو متاع البيت من الفرش والأكسية ونحوها[2]، التي ينتفعون بها إلى زمن محدد؛ وهو موعد انتهاء آجالهم، أو موعد هلاك تلك الأمتعة[3].

وقولـه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾، **ثم ذكر نعمه على صنف آخر من الناس**، وهم الذين لا يوجد معهم بيوت ولا خيام، كالمسافرين ونحوهم، فهؤلاء صيّر الله لهم ظِلال الأشجار ونحوها مكاناً يأوون إليها ويستظلون بها من حر الشمس،

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 152).

(2) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 92).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 221).

وسخّر لهم في الجبال المغارات والكهوف مكانـًا يأوون إليها، ويتحصنون بها، ويستكنّون بها من المطر ونحوه، ومن نعم الله على الخلق أن سخّر لهم صناعة الثياب والألبسة من الصوف أو الشعر أو الكتان ونحوه، التي تقيهم الحر والبرد، وحذف البرد لدلالة الحر عليه، والسربال هو كل ما يُلبس من قميص ودرع ونحوه[1]، **ومن نعمه عليهم** أن سخّر لهم صناعة الدروع التي تُصنع من الحديد والنحاس ونحوه، وتُلبس على الجسد لتقي المحارب من ضربات السيوف ومن السهام والحِراب، والبأس هو شدة الحرب[2]، **والكاف** للتشبيه، **أي**: مثل ما سخّر لكم هذه الأشياء وأنعم بها عليكم[3]، يتم عليكم نعمته ببيان الدين الصحيح لكم، من أجل أن تنقادوا وتخضعوا لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فتوحدوه وتُؤمنوا به وتستخدموا نعمه في طاعته، فذكّرهم بنعمه الحسّية التي تتعلق بالحفاظ على الأجساد والأبدان، ونعمه المعنوية التي تتعلق بالحفاظ على العقول والأفئدة، وهي نعمة الوحي الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ ﴾، **ثم التفت الخطاب إلى محمد** ﷺ لتسليته، بسبب إعراض الكفار عن الإيمان به[4]، فلا يحزن عليهم، فإن مهمته هي البلاغ المبين لهم بتوجيههم وإرشادهم ودلالتهم إلى الحق، وليس عليه إدخال الإيمان إلى قلوبهم، **وفي الآية رسالة إلى الدعاة في كل عصر**

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 215).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 227).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 162).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 241).

ومصر، بأن لا يصابوا باليأس والقنوط من قلة المستجيبين لهم، بل عليهم الاستمرار بالبلاغ المبين الذي كلفهم الله به.

وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾، فالمشركون يعرفون نعم الله الكثيرة عليهم، ومنها نعمة إرسال محمد ﷺ إليهم[1]، وأنه رسول جاء بالحق، ولكن منعهم الحسد والكِبر من الإيمان به، وقابل أكثرهم تلك النعم بالتكذيب والجحود لها وعدم شكر الله عليها.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٨٤﴾، **واذكر يا محمد لقومك** يوم القيامة حين نبعث من كل أمة من الأمم شاهداً يشهد عليها، وهؤلاء الشهداء هم الأنبياء والرسل الذين أُرسلوا إلى أقوامهم، فيشهد كل رسول على أمته بأنه قد بلغهم الرسالة ولكنهم كفروا وأعرضوا عنها، فإذا شهد الرسل على أقوامهم بالكفر والإعراض، فلا يُسمَح للكفار بالكلام ولا يُؤذَن لهم بالجدال ولا النقاش، ولا يؤذن لهم بالاعتذار، ولا طلب الرجوع إلى دار الدنيا، ولا يقبل منهم طلب العتبى وهو استرضاء الله، فقد انتهى وقت التوبة والعمل، وحان وقت الجزاء والحساب[2].

وقوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٥﴾، وحين يرى المشركون عذاب جهنم بأبصارهم بعد دخولهم فيها ويذوقون شدته؛ يطلبون من ربهم تخفيف العذاب عنهم أو الإمهال لهم، فيرفض طلبهم،

---

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 207).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 223).

فلا يخفف عنهم العذاب ولا يؤخر عنهم.

وقوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾، **وإذا رأى المشركون يوم القيامة الأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله؛** طلبوا من الله أن يعاقب شركاءهم، أو أن يخفف عنهم العذاب، فيقسمه بينهم وبين شركائهم؛ لأنهم أضلوهم عن الحق، فكذّبتهم الأصنام في دعواهم؛ لأنها كانت جمادات لا تعرف عبادة عابديها[1]، وأنطقها الله وهي لا تنطق، لتخجيل المشركين وتوبيخهم[2]، وإظهار فضيحتهم.

وقوله: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾، **فلما سمع المشركون تكذيب الأصنام والأوثان لهم؛** استسلموا وخضعوا لله تعالى، وأقرّوا بذنبهم وشركهم، وبطل عنهم ما زيّن لهم الشيطان، وما كانوا يؤمّلون من شفاعة آلهتهم لهم[3]، وصار العابد والمعبود جميعاً في النار.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾، **يخبر الله عن جزاء الكفار الذين صرفوا أنفسوا عن الإيمان،** ومنعوا غيرهم منه، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقوا مضاعفة العذاب لهم بسبب كفرهم وفسادهم في الأرض، وإضلالهم غيرهم عن الحق، وهذه قاعدة

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 167).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 224).

(3) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 163).

مطردة في الخير والشر[1]، **فالكافر الداعية إلى الكفر** أكثر عذاباً في الآخرة من الكافر الذي لا يدعو غيره إلى الكفر، والمؤمن الصالح الداعية إلى الإسلام أكثر أجراً وثواباً عند الله من المؤمن الصالح في نفسه فقط.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾، **واذكر يا محمد لقومك يوم القيامة حين يبعث الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كل نبي شاهداً على أمته، وهو أعدل شاهد عليها[2]، لأنه منهم، فيشهد عليها بأعمالها، إتماماً للحجة، وقطعاً للمعذرة، ثم خصّ محمداً ﷺ بالذكر تعظيماً له، فيأتي الله به شاهداً على قومه وعلى كل الأمم التي كانت قبله، فهو الشاهد الكبير المُعظم يوم القيامة، والواو لا تقتضي الترتيب، بل تفيد عطف جملة على جملة، وقد أنزل الله عليه القرآن الكريم، وفيه بيان كل ما يحتاج إليه من قواعد الأحكام الشرعية العامة وأصولها وقواعدها التي يُستنبط بها الأحكام[3]، والإحالة فيما بقي منها على السنّة، فقد أمرهم باتباع رسوله ﷺ وطاعته فيما يأتيهم به من الأحكام، كما ثبت ذلك في عدد من الآيات القرآنية[4]، **والتاء في "تبيان"** للمبالغة في الوضوح، وليس معنى ذلك أن تجد حكم كل شيءٍ من فروع المسائل الفقهية مذكوراً بنصه في القرآن، بل فيه أصول القواعد التي توصل

(1) ينظر: تفسير الرازي: (20/ 257).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 216).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 447).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 224).

المجتهد إلى الحكم الشرعي لأي نازلة فقهية جديدة، لأن بعض الناس يعترض على ذلك، **فيقول مثلاً**: لا يوجد آية في تحريم الدخان، فهو مباح، **فيقال له**: بل ذكرت علة التحريم في القرآن في قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف:157]، وهذا أصل عام يحرم به كل خبيث تستخبثه النفوس السوية، والدخان منه، وقد جعل القرآن سبباً للهداية إلى الحق، وسبباً لحصول الرحمة للخلق، وهو بشارة للمسلمين الخاضعين المنقادين لأمر الله وشرعه، فهم الذين يستفيدون منه ويتأثرون منه، أما المتكبر المعرض فلا يستفيد منه، بل يزيده هلاكًا وخسارة.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن وسائل العلم ومنافذ المعرفة هي السمع والأبصار والأفئدة.

2- بيان كثرة نعم الله على الخلق في هذه الدنيا، وأهمية شكرها بتوحيد الله المنعم بها.

3- بيان أن الأنبياء والرسل هم الشهداء في الآخرة على أقوامهم.

4- بيان أن يوم القيامة تنقطع فيه الأعذار وطلب الرضا، لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل.

5- بيان تفاوت الكفار في عذاب جهنم بسبب تفاوت ذنوبهم.

6- أن القرآن الكريم احتوى على أصول وقواعد كل الإحكام الشرعية التي تحتاج إليها البشرية.

تفسير المقطع السابع من سورة النحل

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ
وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا
عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا
تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ
بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ
وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا
تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ
خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ
ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ
أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ

وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا
يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن
رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾، **قال ابن مسعود** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: "ما في القرآن آية أجمع لحلال وحرام، وأمر ونهي، من هذه الآية"(1)، لأنها احتوت على أصول المأمورات وعلى أصول المنهيات، فقد أمرنا بثلاث: أمرنا بالعدل، وهو إعطاء كل ذي حق حقه مع الله والخلق والنفس، فمن العدل مع الله توحيده وعدم الشرك، **فإن الشرك كما قال:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:13]، وأداء كل ما افترضه عليه من الحقوق والواجبات المتعلق بالله تعالى، ومن العدل مع الخلق أداء الحقوق والواجبات التي أوجبها الله للخلق عليك، ولا تظلم غيرك سواءً كان إنسانًا أو حيوانًا، ومن العدل مع النفس القيام بحقوقها والحفاظ عليها، **كما قال:** ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[النساء:29]، وأمر الله بعد العدل بالإحسان، وهو التفضل على الناس بما هو حسن من الأقوال والأفعال والمعاملات، فجمع الله بين الأمر بأداء الحقوق الواجبة والأمر بالإحسان في ذلك، ويدخل في معنى الإحسان فعل جميع المستحبات من العبادات والنفقات ونحوها، ثم ذكر مثالاً للعدل والإحسان بالعطاء لذي القربى، وهم أقرب الناس إليك، فحقق في

---

(1) الأدب المفرد للبخاري: (ص:171)، برقم: (489)، المعجم الكبير للطبراني: (9/ 143)، برقم: (8659)، وإسناده صحيح.

عطائك لهم صفة العدل والإحسان، فالعدل يكون في إعطاء من تجب عليك نفقته كالوالدين ومن تعول، والإحسان يكون في إعطاء من لا تجب عليك نفقته من الأقارب، **ثم نهانا عن ثلاث: نهانا عن الفحشاء، وهي**: كلما فحُش في النفوس السوية من الاعتقاد والقول والعمل، فكل شيء زاد وفحش قبحه فهو فاحشة من الاعتقادات والأقوال والأعمال[1]، **ونهانا عن المنكر، وهو** كل ما أنكره الشرع واستنكرته النفوس والعقول السوية[2]، وهو عموم المعاصي، فشمل النهي عن كل ما قبُح واستُنكر من الأقوال والأفعال والاعتقادات، **ونهانا عن البغي، وهو** كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض[3]، وهو مثالٌ للفحشاء والمنكر.

ثم ختمت الآية بالخطاب للمسلمين، فهم من يخاف الله ويتعظ بأوامره ونواهيه، **وقد أحسن الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين تولى الخلافة سنة تسع وتسعين للهجرة، وكان قد انحرف الحكم والسلطان في عهد بني أميّة عما كانت عليه الخلافة الراشدة، فوُجد بينهم من يطعن في الصحابة، أو يطعن في آل البيت، وربما ذكروا ذلك على المنابر يوم الجمعة، فأمر الخليفة الخطباء أن يختموا خطبتهم بهذه الآية[4] ليلغي تلك البدعة الشنيعة، وكانت سنّة حسنة، واستمر عليها الناس من بعده وإلى الآن.

(1) ينظر: تاج العروس: (17/ 297).

(2) ينظر: المعجم الوسيط: (2/ 952).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 447).

(4) ينظر: الكامل في التاريخ: (4/ 98).

وقولــه: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾، **ثـم أمـرهم الله بالوفـاء بـالعهود، ونهـاهم عـن نقـضها،** وتـشمل العهـد مـع الله بـأداء الفـرائض والواجبات التي شرعها على عباده، والعقود والعهـود مع الخلق، والعهـود مع النفس، ونهاهم عن نقـض اليمـين المؤكـدة وهـي المعقـودة بالقلـب، فـلا يجـوز نقضها إلا إذا كان قد حلف على أمرٍ ورأى غيره خيراً منه، فيجوز لـه أن ينقـضها ويُكفّر عن يمينه، كما في الحديث: **"من حلف على يمينٍ فرأى غيرها خيـراً منهـا فليُكفّر عن يمنيه، وليأتِ الذي هـو خيـر"**[(1)]، فمـثلاً مـن حلـف ألا يـزور أقاربـه، فيجـوز لـه نقـض اليمـين وزيـارتهم، وعليـه كفـارة يمـين، بخـلاف مـن حلـف ألا يشرب الخمر فلا بد أن يوفي بها، وذكر وصف التوكيد لليمين للتفريق بينها وبين يمين اللغو، وهي التـي تنطقهـا اللـسان بـدون أن يعقـد عليهـا القلـب[(2)]، فهـذه لا كفارة فيها، وعلّل ذلك بأن المعاهد والحالف قد جعل الله عليـه كفـيلاً وضـامنـًا حين عاهده وحلف به، فلا بد من الوفاء والحذر من المخالفة، ثـم أخـبرهم بأنـه مطلع على النفوس وأسرارها، وهـو مـن يحاسـبها عـلى أعمالهـا، وهـو أسـلوب يفيد التهديد والوعيد للمخالف.

وقولــه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ

(1) صحيح مسلم: (3/ 1272)، برقم: (1650).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 170).

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾، **ثم أكّد عليهم الوفاء بالعهود والأيمان**، وشبّه حال من نقض عهده وميثاقه مع الله بحال امرأة حمقاء كانت في مكة[1]، تُصبح الصباح فتأخذ المغزل فتغزل غزلاً متقنًا، فإذا جاء المغرب نقضت وفكّت ما غزلت وحولته إلى خيوط مبعثرة، وهكذا تفعل كل يوم! بدون سبب موجب لحله، فضربها الله مثلاً لناقضي العهد، ونهاهم أن يتخذوا هذه الأيمان سببًا للمكر والخديعة مع الآخرين، والدخَل هو الغدر والفساد والمكر والخديعة[2]، ثم بيّن بعض أسباب نقض العهود، ومنها: أن الشخص قد يعاهد قبيلة أو مجموعة من الناس، فيرى غيرهم أكمل وأكثر عدداً وأحسن معيشة منهم، فينقض عهده معهم ويذهب إلى غيرهم، فنهاهم عن نقض الأيمان والانفصال عن جماعة المسلمين بسبب ذلك[3]، فمن عاهد الله وأسلم وتبيّن له بعد الإسلام أن المسلمين ضعفاء أو فقراء، والكفار أقوياء أو أغنياء، فلا يجوز له أن ينقض عهده ويرجع مع الكفار، بل الواجب عليه أن يستمر، لأن الله يختبر عباده بهذه الأحوال لينظر من يعاهد الله على الإيمان صدقًا واقتناعًا وإخلاصًا، ومن يفعل ذلك بحثًا عن المصالح الشخصية العاجلة، وسيتضح لكم يوم القيامة ما كان مخفيًا عنكم في الدنيا من الخير والشر، والحق والباطل، وسوف يحكم الله بينكم فيما كنتم فيه تختلفون في الدنيا من العقائد والملل والنحل ونحوها من الأمور، فيظهر من هو صاحب الحق فيثيبه، ومن هو صاحب الباطل فيعاقبه، وفي الآية تحذير من

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 283).

(2) ينظر: تاج العروس: (28/ 479).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 266).

مخالفة ملة الإسلام لأي سبب[1].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، ولو أراد الله أن يجعل الناس كلهم على ملة واحدة هي الإسلام[2]؛ لفعل، ولكن اقتضت حكمته بأن جعلهم مختلفين في الدين ابتلاءً واختباراً لهم، وبيّن لهم طرق الضلال والهداية، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وخلق لهم سمعًا وأبصاراً وعقولاً، فمن ضلّ عن الحق فبعدل الله فيه، ومن اهتدى إلى الحق فبفضل الله عليه، ويوم القيامة يسألهم الله سؤال توبيخ وتقريع لهم، وليس سؤال استفهام[3]، فإن الله مطلع عليهم وعلى أعمالهم ثم يجازيهم عليها.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾، **نهاهم عن اتخاذ تلك الأيمان الكاذبة** سببًا للفساد والمكر والخديعة مع الآخرين، فيكون ذلك سببًا لهلاكهم بعد حصول الأمن لهم، ويصير حالهم كحال من زلقت قدمه بعد ثبوتها فسقط على أمّ رأسه فهلك، فشبّه زلل القدم باختلال الحال والتعرض للضرر، وشبّه ثبوت القدم وهي تمكن الرجل من الأرض، باستقامة الحال ودوام السير على الطريق[4]، وهددهم بأن الله لن يتركهم يخدعون الناس بهذه الأيمان

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 231).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 40).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 418).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 269).

الكاذبة، بل سيذوقون في الدنيا العذاب المؤلم والعقوبة السيئة، لأنهم بفعلهم هذا يصدون الناس وينفرونهم عن الدين الصحيح، لأن الكافر إذا رأى أن المسلم قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالإسلام ولا بالمسلمين[1]، وتوعدهم في الآخرة على فعلهم هذا بعذاب عظيم في نار جهنم[2].

وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾، **نهاهم عن نقض العهود** مقابل الحصول على عوضٍ من الدنيا قليل زائل، وأمرهم أن يثبتوا على الحق ويستقيموا عليه مهما حصل لهم من الابتلاءات والإغراءات، فهي لا تساوي شيئًا مقابل ما يمنحه الله للمؤمن الثابت على إيمانه من خير في الدنيا، كالسعادة والراحة والاطمئنان والتلذذ بالإيمان والطاعة، وهي جنة الدنيا، وما أعده الله له في الآخرة من نعيم مقيم في الجنة، إن كنتم تعلمون الفارق ما بين العوضين[3]، **وفي الآية إشارة** تنبيه وتحذير من فِعْل بعض الناس اليوم الذين يرتدون عن الإسلام لغرض الحصول على اللجوء في بلاد الغرب الكافرة.

وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾، **ثم بيّن** أن أموال الدنيا ومتاعها حقير وزائل وينتهي مهما كان مقداره، فلا يحل للمؤمن أن يترك دينه من أجلها، وأن ما عند الله

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 600).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 861).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 96).

للمؤمن الثابت على دينه من الأجر والثواب والنعيم المقيم باقٍ لا ينتهي، وحثهم على الصبر على أداء التكاليف الشرعية، ومنها الوفاء بالعهود، **وبيّن لهم** أنه يجازي الصابرين عليها بجزاء أشرف وأفضل وأكثر من عملهم في الدنيا، فإنه يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة[(1)].

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾، **ثم بيّن حال وجزاء المؤمنين العاملين للصالحات من الذكور والإناث**، وقرن بين الإيمان والعمل الصالح؛ لتلازمهما، فلا فائدة في الآخرة من إيمان بلا عمل صالح، ولا من عمل صالح بلا إيمان، ونصّ على الذكور والإناث حتى لا يتوهم أن هذا الجزاء خاص بالذكور، بل الرجل والمرأة في عموم التكاليف الشرعية متساوون إلا ما ثبت تخصيصه بأحدهما، ثم بيّن الجزاء لمن اتصف بذلك وهو الحياة الطيبة، **وللمفسرين في تفسيرها عدة أقوال**[(2)]، **والراجح** أنها تشملها كلها، فقد نكّرها لتشمل عموم الحياة في الدنيا والبرزخ والآخرة، **ففي الدنيا** يشعرون بالسعادة والاطمئنان والراحة النفسية مهما كانت أحوالهم المادية، فتجد المؤمن الصالح الفقير يعيش بنفسية راضية، ولو نام على الحصير وأكل الخبز اليابس، **وفي البرزخ** تحقق لهم الحياة الطيبة في قبورهم، فهم في روضة من رياض الجنة حتى يبعثوا، **وفي الآخرة** يدخلهم الله الجنة دار النعم، ويمنحهم أجرهم فيها، الحسنة بعشر

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 449).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 582).

أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وفي الآية بيان حال بعض الأغنياء من الكفار الذين يعيشون في قلق ونفسية مضطربة، ولا يشعرون بالسعادة ولا الراحة، رغم ما عندهم من النعم الكثيرة، مما يدفع بعضهم إلى الانتحار، ولذلك يكثر عدد المنتحرين في الدول الكافرة، مع ما يملكون من النعم ورفاهية العيش، ويقل عددهم في الدول الإسلامية الفقيرة!.

وقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾، **الخطاب لرسول الله** ﷺ مع عصمته، لبيان أن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة[1]، **والمعنى:** إذا أردت أن تقرأ القرآن فابدأ قراءتك، بطلب العوذ بالله من الشيطان، **بقولك:** أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، حتى لا يشغلك الشيطان ويوسوس لك ويُبعدك عن التدبر والتأمل فيما تقرأ من القرآن الكريم، وهو أمر ندب وليس بواجب[2]، ثم بيّن أن الشيطان لا يتسلط على المؤمن الصادق في إيمانه، المتوكل على الله، المستعيذ بالله من شره، وهذا يدل على أن الإيمان الصادق بالله، والتوكل الكامل عليه، يمنعان من تسلّط الشيطان على العبد، وأن ضعف الإيمان أو فقدانه والتعلق بالشيطان والخوف منه وطاعته والسير في طريقه من أسباب تسلّط الشيطان على العبد، والباء سببية،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 231).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 293).

أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى[1].

وقولـــه: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾، **ثـم أخبـر الله تعـالى عـن نفسه**، فهـو الذي أنزل القرآن، وهو الذي ينسخ بعض الأحكام الشرعية الواردة فيه متى شاء لحكمة يراها سبحانه[2]، وأن المشركين جعلوا ذلك سببًا لاتهام رسول الله ﷺ بالكذب، وهذا من جهلهم، فإن الرسول مبلّغ عن الله وحيه وشرعه، والله هـو الذي يشرّع الأحكام للناس، فهو الذي خلقهم، وهو الذي يعلم ما يصلح لهم في كل الأحوال، ويفعل ذلك بهم تربية لهم، وقد يكون النسخ بالتخفيف، وقد يكون بالزيادة، وقد يكون بلا بديل، بل أكثر المشركين لا يعلمون الحكمة من التبديل، فهم جهلة بمصالح الشريعة، وجهلة بمقام النبي ﷺ وصدقه وأمانته، ولو علموا ذلك لما اتهموه بالكذب[3].

ثـم قـال: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾، **قـل يـا محمـد لهـؤلاء المـشركين الجهلـة بمقاصد الشرع من النسخ**: إن الذي نزل عليك بالقرآن من الله هو جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة، فالروح هو جبريل، والقدُس هو الطاهر، وقد أنزله ملابسًا ومصاحبًا للحق[4] فلا باطل فيه

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 603).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 233).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 232).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 285).

ولا افتراء ولا كذب، والحكمة من إنزال القرآن هي تثبيت المؤمنين على الإيمان بالحجج والبراهين الواضحة، وهو سبب للهداية إلى الحق والهدى، وفيه البشارة بكل خير للمطيعين المنقادين لأمر الله وشرعه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – بيان حرمة نقض العهود والعقود، ووجوب الوفاء بها.

2 – أن عقوبة من نقض عهده مع الله هي الفتنة في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة.

3 – أن الإيمان والعمل الصالح سبب للحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

4 – أن الاستعاذة بالله من الشيطان سببٌ للتحصّن منه.

5 – أن الإيمان العميق الصادق، والتوكل الكامل على الله، يمنع الشيطان من التسلّط على العبد.

6 – بيان فضيلة القرآن الكريم، وأثره في ثبات الإيمان وحصول الهداية والبشارة لمن آمن وعمل به.

تفسير المقطع الثامن من سورة النحل

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ
وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ
جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ
نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ
مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ
بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾، **يُخبـر الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه يعلم بالفِرية التي قالها المشركون في حق محمد ﷺ، حيثُ اتهموه بأنه يتعلّم القرآن من شخصٍ أعجمي كان يعيش في مكة، وكان عبداً لبعض زعماء قريش، وكان يصنع السيوف ويبيعها عند الصفا، **وكان النبي** ﷺ يمر عليه أحيانًا ويدعوه إلى الإسلام[1]، وهي فِرية قبيحة لا يقبلها عاقل، **فالقرآن نزل بلغة العرب**، والشخص الذي نسبوا التعليم إليه أعجمي ليس بعربي!، لكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب ردّه بمجرد التأمل فيه[2]، **والإلحاد هو** الميل عن الاستقامة[3]، فهؤلاء مالوا عن القول الصواب المعقول إلى قولٍ باطل مكذوب.

وقولـه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾، **ثم بيّن الله** جزاء الذين كذّبوا بالآيات الشرعية والحجج والبراهين الواضحة وأعرضوا عنها وأنكروها، **فقد توعدهم الله بعقوبتين، الأولى:** عقوبة معنوية في الدنيا، وهي أن الله يطبع على قلوبهم ويمنع الهداية من الوصول إليها، فلا يروا الحق ولا يتأثروا به، عقوبة لهم، **كما قال:** ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:5]، **والعقوبة الثانية:** حسية أخروية، وهي أن لهم العذاب الأليم في جهنم.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 603).
(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 450).
(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 635).

وقولـــه: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾، **سبق أن المشركين اتهموا محمداً** ﷺ بأنه افترى القرآن، فكذّبهم الله وبرّأه من تلك التهمة، لأن من يؤمن بالله فإنه لا يكذب عليه، وحصر الكذب بالكفار؛ لأنهم لا يؤمنون بالحجج والبراهين الواضحة، فالكذب وصف يليق بهم[1]، فهم يُمارسونه حتى أصبح صفة لازمة لهم، ولذا وصفهم بالفعل أولاً، **ثم أكّد وصفهم بالجملة الاسمية** التي تدل على الثبوت والاستمرار.

وقوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾، **"مَن" فيها قولان**[2]: أنها اسمٌ موصول بمعنى الذي، وتكون متعلقة بالوصف السابق، وهو إنما يفتري الكذب من نطق بكلمة الكفر وهو مطمئن بها وارتدَّ بعد إيمانه وارتاح قلبه وانشرح صدره للكفر، فعليهم غضب من الله، إلا مَن أُرغم على النطق بالكفر، فنطق به خوفاً من الهلاك وقلبه ثابت على الإيمان، فلا لوم عليه، أو تكون مَنْ شرطية، **والمعنى:** من وقع منهم الكفر بعد الإيمان بدون إكراه عليهم، بل فعل ذلك بارتياح للكفر ورغبة فيه، فعليهم غضب من الله، ولكن من نطق بالكفر مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان، فلا لوم عليه، **ورجّح الطبري القول الثاني**[3]، وقد ترك المُكره ولم يذكر حكمه في الآية، تخويفاً

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 866).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 235).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 303).

للفاعل وإشعاره بخطورة الفعل، وقد جاءت السنّة ببيان حكمه، وذلك أن بعض المؤمنين في مكة اشتد عليهم التعذيب والأذى من كفار قريش فضعُف إيمانُهم ورجعوا إلى الكفر بألسنتهم وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، **فقد "أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ، قال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال: إن عادوا فعد"**[1]، **فدل ذلك** على أنه يجوز للمؤمن الضعيف الذي لا يستطيع أن يصبر على العذاب، لو اضطره من يعذبه إلى أن يكفر بالله، فليكفر بلسانه فقط، ويكره الكفر بقلبه، ولا يجوز له أن يكفر ظاهراً وباطناً بسبب التعذيب، لأن القلب لا يطلع عليه إلا الله، فمن فعل ذلك فعليهم غضبُ الله لارتدادهم عن الإسلام، ولهم عذابٌ عظيم في الآخرة، وشرط الجواز للنطق بكلمة الكفر هو أن يكون الإكراه ملجئً لا مفر للعبد منه، أما إن كان التهديد أو التخويف يستطيع تحمله، فلا يجوز له النطق بالكفر، وهي رخصة لمن لم يصبر، والعزيمة أفضل منها، فلو قُتل ولم ينطق بالكفر فهو أفضل حالاً وأعظم أجراً، **وقد أخذ بالعزيمة** بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورفض أن ينطق بالكفر، بل كان يقول: أحدٌ، أحدٌ[2]، **ولذا** يستحب لمن كان قدوة لغيره أن يصبر ولا يترخص.

---

(1) المستدرك، للحاكم: (2/ 389)، برقم: (3362)، **وقال:** هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(2) ينظر: مسند أحمد: (6/ 382)، برقم: (3832)، وإسناده حسن.

وقولــــه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، **اسم الإشارة يعود إلى العذاب العظيم** الذي توعّد الله به الكفار في الآخرة، بسبب أنهم قدّموا وآثروا حب الدنيا على الآخرة، بعد أن مَنّ الله عليهم بالإيمان وما رجعوا عنه إلا خوف الفتنة أو رغبة في رفاهية العيش، ولم يصبروا على الابتلاءات، فيكون كفرهم أشد من كفر من لم يؤمن ابتداء، فلهم في الآخرة عذاب عظيم، وفي الدنيا حرمهم الله من الهداية بسبب عدم تعرضهم لأسبابها، وإعراضهم عنها، والتعبير بكلمة قوم مع صفة الكفر، إشارة إلى أن هذه الصفة قد صارت متجذرة فيهم وأصبحت من ضمن مقوماتهم[1].

وقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾، **اسم الإشارة "أولئك" يعود على من سبق ذكرهم**، وهم الذين ارتدوا عن الإسلام إلى الكفر، **واللام** تفيد بُعدهم عن الله واحتقاره لهم، لأنهم اختاروا الكفر على الإيمان، فمنعهم الله الهداية وأبعدهم عن أسبابها، فأغلق عنهم منافذ الهداية والعلم والمعرفة، وطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأحاط بهم الخذلان[2] من كل جهة؛ عقوبة لهم، وهم الغافلون الكاملون في الغفلة، الذين لا أحد أغفل منهم، لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها[3].

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 296).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 450).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 637).

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾، **حقًا**[1]، إن من اتصف بتلك الصفات السيئة هم الخاسرون في الآخرة، وهم الذين حلت بهم الخسارة بجميع صورها وأحوالها، فدخلوا النار، وحرموا من النعيم المقيم في الجنة الذي أعده الله لمن ثبت على الإيمان ومات عليه.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾، **ثم أخبر عن حال مجموعة من المؤمنين** عذبوا في مكة وأُكرهوا على كلمة الكفر فنطقوها بألسنتهم، وبقيت قلوبهم مطمئنة بالإيمان، ثم هاجروا من مكة إلى المدينة، وشاركوا في الجهاد في سبيل الله، وصبروا على الفتنة والهجرة والجهاد[2]، فإن الله وعدهم بالمغفرة لما صدر منهم ذنوب، ورحمهم فلم يعاقبهم عليها، وهذا يدل على أن هذه الآية مدنية.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾، **ثم انتقل الحديث لبيان حال الناس يوم القيامة** في موقف الحشر والحساب بين يدي الله، فكل نفس تحضر لتدافع عن نفسها، والمقصود بالنفس كل شخص مكلف، والنفس الثانية هي الذات[3]، والجدال محاولة دفع أثر الذنب بالتبرير أو الإنكار أو الاعتذار ونحوها، وهذه الآية لا تتعارض مع آيات نفي الكلام يوم القيامة، لأن يوم القيامة تتعدد فيه أحوال الناس[4]، ففي

(1) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 210).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 306).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 237).

(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 869).

حالة لا يُؤذَن لهم بالكلام فهم لا ينطقون، وفي حال يُسمَح لهم بالكلام، وبعد العرض والحساب تُعطى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر وافيًا غير منقوص، بدون ظلم لها، فلا يُزاد في سيئاتها، ولا يُنقِص من حسناتها[1].

وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾، **للمفسرين في معنى الآية قولان**[2]، **الأول**: أن هذا المثال ضربه الله بمكة نفسها، فقد كان أهلها في أمن وأمان ونعم عظيمة، تُجبَى إليهم ثمرات كل شيء، فلما كفروا بمحمد ﷺ؛ أصابهم الجوع والفقر، وجاءهم الخوف بعد الهجرة بسبب سرايا وجيوش المسلمين، **والقول الثاني**: أن هذا مثال ضربه الله لأهل مكة بقرية كافرة كانت سابقة لهم، والقول الأول هو الراجح، لأن الصفات التي وصفت بها هذه القرية تتفق مع صفات أهل مكة المذكورة في القرآن[3]، **وعبّر بالذوق** توبيخًا لهم، وإشارة إلى أنه تمكّن منهم فأصاب كل خلايا أجسادهم، وعبّر عن الجوع والخوف باللباس؛ لأنهما أحاطا بهم من كل الجوانب كما يُحيط اللباس بالجسد[4]، **والباء** للسببية، **أي** عاقبهم بذلك بسبب صنيعهم السيء من الكفر والمعاصي ونحوها.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾،

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 607).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 309).

(3) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (2/ 455).

(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 870).

ولقد أرسل الله إلى أهل تلك القرية التي ضربها الله مثلاً، رسولاً من جنسهم ومن نسبهم يعرفونه بأصله ونسبه، وهو محمد ﷺ، يدعوهم إلى التوحيد وطاعة الله، فلم يؤمنوا به، بل كذّبوه وكفروا بما جاءهم به، فعاقبهم الله على كفرهم بالقحط والسنين والخوف[1] والقتل في بدر وغيرها، وهم ظالمون لأنفسهم بالكفر والشرك بالله.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان قُبح كذب الكفار بأن محمداً ﷺ تعلّم القرآن من عبدٍ أعجمي، وأنهم لو تفكروا في ذلك لما قالوا تلك الفرية.

2- بيان أن الكاذب الحقيقي هو من كذّب بالحجج والبراهين والآيات الواضحة.

3- بيان أن للمُكرَه إكراهاً مُلجِئاً أن ينطق بالكفر بلسانه، ولا يطمئن به قلبُه.

4- بيان استحقاق المُرتد لغضب الله في الدنيا والعقوبة في الآخرة.

5- بيان أن من وقع في الذنب وسارع بالتوبة غفر الله له ذلك.

6- أن الجزاء من جنس العمل، وأن شكر النعمة سبب في بقائها.

7- وجوب الإيمان بالرسل وخطورة تكذيبهم.

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 103).

تفسير المقطع التاسع من سورة النحل

۞ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ
بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ
أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا
عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟
ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ
ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾
إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ
وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾، **الخطاب لعباده المؤمنين**[1] بالأكل مما رزقهم الله تعالى من الحلال، وهو المأذون فيه شرعاً، والطيب، وهو كل تستطيبه النفس السوية من المأكولات والمشروبات، فكل طيب حلال، وليس كل حلال طيب، والأمر للإباحة، وأمرهم بشكر الله على نعمه كلها، فيقروا بها ويعترفوا بأن مصدرها هو الله، وهو الذي وهبها لهم، ويصرفوها في مرضاته إن كانوا يوحّدون الله حقاً ويفردونه بالعبادة، **وفائدة الشرط** الحث على الامتثال[2] وكمال الاستسلام والطاعة لله، فمن كان خاضعاً ومستسلماً لله حقاً؛ فعليه أن يكثر من شكر نعم الله عليه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾، **ثم ذكر المحرمات من المأكولات،** لأن الأصل في الأشياء الإباحة، والحرام هو ما ثبت تحريمه في القرآن أو السنّة، والقصر هنا ليس قصراً حقيقياً عاماً من جميع الوجوه، بل جاء قصراً بالإضافة إلى السياق، فإن الكفار كانوا يستحلّون هذه المحرمات، فجاءت الآية للرد عليهم بصيغة جازمة، وأن هذه ليست هي كل المحرمات،

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 220).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 309).

وإنما هي أصولها وأعظمها، وقد ثبتت محرمات غيرها في السنّة الصحيحة، والميتة هي التي ماتت حتف أنفها قبل أن يذكر اسم الله عليها وتذبح، والدم المقصود به الدم المسفوح الذي يخرج عند الذبح من الحيوان، فهذا محرم، وهو من الناحية الصحية خطير لأنه مجمع لكل السموم، وحرَّم لحم الخنزير ويلحق به شحمُه وعظمُه، **وإنما ذكر اللحم** لأنه المقصد الذي تذهب إليه النفوس، وغيره يدخل فيه تبعـًا، وذلك لقذارته ووساخته، فإنه يعيش على القاذورات والأوساخ، ويلحق به الجلّالة، وهي كل حيوان يعيش على فضلات الناس ونجاساتهم حتى يذهب أثر ذلك منه، وحرّم كل ذبيحة ذبحت تقربًا لغير الله من الأصنام والأوثان والجن والشياطين والقبور ونحوها، ويلحق به ما يُسمى عند أهل اليمن بالهجر، وهو أن يأتي الشخص بحيوان كالكبش والتبيع ونحوه ويذبحه بين يدي الذي أخطأ عليه لقصد إرضائه وتطييب نفسه، فهذه كلها لا يجوز أكلها إلا لمن أصابته الضرورة من جوعٍ ونحوه ولم يجد ما يأكل وخشي على نفسه الموت، فله أن يأكل منها بقدر الحاجة دفعًا للضرر، فالضرورات تُبيح المحظورات وتُقدّر بقدرها، فلا يأكل منها بغير ضرورة، ولا يتجاوز في الأكل قدر الحاجة، فمن أكل منها للحاجة فالله غفور لذنبه رحيم به فلا يعاقبه على ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾، ثم نهى الله سبحانه وتعالى الخلق أن يضيفوا ما حللوه أو حرموه من تلقاء أنفسهم إلى الله بدون حجة، وقد كان المشركون يُحلون أشياء ويُحرمون أشياء

على أنفسهم بدون حجة من الله ويُضيفونها إلى الله، **واللام في "لتفتروا"** لام العاقبة[1]، فإن نتيجة وعاقبة التحليل والتحريم من دون حجة هو افتراء الكذب على الله، ولذلك كره أهل العلم أن يُطلق الإنسان على المسائل الاجتهادية لفظ الحلال والحرام، لأنه اجتهاد قد يُصيب فيه وقد يُخطئ، ثم بيّن حكم من يكذب على الله، بأنه لا فلاح له ولا نجاح في الدنيا ولا في الآخرة، وإن حصل له فائدة في الدنيا بسبب كذبه على الله والسير وراء أهوائه وما تشتهي نفسُه في الدنيا فهو متاع قليل زائل، يقابله استحقاقهم عذاب أليم في الآخرة بسبب افترائهم الكذب على الله[2].

وقولــــه: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾، **ثم بيّن الله سبحانه وتعالى لرسوله** ﷺ أنه قد حرَّم على اليهود مجموعة من المأكولات سبق أن قصّها عليه في سورة الأنعام[3]، **وهي المـذكورة في قولـه:** ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[الأنعام:146]، **وهذا يدل على أن سورة الأنعام نزلـت قبـل سـورة النحـل**، وقـد حرّم الله عليهم هـذه الأشياء بسبب انحرافهم وفجورهم وظلمهم، وما ظلمهم بهذا التحريم، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم حين خالفوا أمر الله وتجاوزا حدوده، فحرّم عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 239).
(2) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 312).
(3) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 315).

وقولـــــه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾، **ثم أخبر الله رسوله ﷺ** عن حال الذين عملوا الكفر والشرك والذنوب والمعاصي بسبب جهلهم بعواقب فعلهم، وإعراضهم عن تعلّم حكم ذلك، أو لجهلهم بقدر من يعصونه[1]، بأنه غفور رحيم لذنوبهم إذا تابوا من ذلك توبة صحيحة، وأصلحوا أعمالهم التي كانت باطلة بالسوء الذي عملوا[2]، فمن كان مشركًا؛ تاب من الشرك ووحد الله، ومن كان تاركًا للصلاة؛ تاب من الترك لها وحافظ عليها، وهكذا..، **والضمير يعود** على التوبة والعمل الصالح، فمن تاب من ذنبه وعمل صالحًا بدلاً عنه؛ غفر الله له ما سلف من ذنوبه، فالله غفور لذنوب التائبين، ورحيم بهم، فقد أمهلهم حتى يتوبوا منها.

وقولـه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾، **ثم أخبر عن إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إمام الحنفاء، وأبي الأنبياء، بأنه كان أمة بمفرده، وقد تعدّدت معاني الأمة عند المفسرين[3]، وكلها متوفرة في إبراهيم ولا تعارض بينها، فقد انفرد بتحقيق التوحيد قبل غيره من الناس، وكان فيه من التوحيد والعبادة والصلاح ما يكون في أمة كاملة، وكان داعيةً وقدوة وإمامًا لغيره في الخير، وكان كثير الطاعة والعبادة والمداومة عليها، وكان مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولم يقع في الشرك طيلة حياته، وهذه تزكية له من الله سبحانه وتعالى.

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 104).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 240).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 219).

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾، **ثم وصفه بأنه كان كثير الشكر لله على نعمه**، وقد اصطفاه الله واختاره لرسالته، وهداه إلى دين الإسلام القويم الذي لا اعوجاج فيه.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢﴾، **وقد منحه الله حسنة الدنيا**، وقد تعددت أقوال المفسرين فيها[1]، ولا تعارض بين تلك الأقوال، بل تشملها كلها، **وهي**: الاطمئنان وانشراح الصدر، والسعادة، والولد الصالح، والزوجة الصالحة، والذكر الحسن، وجعله قدوة لمن جاء بعده، ونحوها من النعم الدنيوية التي حصلت له في الدنيا في حياته وبعد موته، وهو في الآخرة في منزلة ومكانة عالية في الجنة بسبب صلاحه، وإنما ذكر أنه من الصالحين تشويقاً لغيره في الصلاح، فكنْ مثل إبراهيم في الصلاح لتكون معه في الجنة[2].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣﴾، **ثم خاطب رسوله محمداً** ﷺ بأنه قد أوحى إليه آيات بيّنات تأمره أن يسير على طريقة إبراهيم عليه السلام، ويقتدي به هو وأمته في كيفية الدعوة إلى التوحيد، بأن يدعو إليه بطريق الرفق واللين، وإيراد الحجج والدلائل عليه[3]، فقد كان إبراهيم عليه السلام مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولم يكُ من المشركين كما زعم الكفار، بل كان عبداً مُوحّداً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طيلة حياته.

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (2/ 592).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 228).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (20/ 285).

وقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٢٤﴾، **إنما فُرض تعظيم السبت على اليهود** بسبب مخالفتهم لنبيهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد دعاهم لتعظيم الجمعة، فتركوها وعظّموا السبت، فألزمهم الله بتعظيم السبت[1]، وجعلوه عطلة لهم، **وقد جاء في الحديث: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد"**[2]، **وهذا يدل** على ضلالهم في اختيار يوم السبت، **وأن اليوم المُعظم عند الله هو** يوم الجمعة، **وفي الحديث: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة"**[3]، وإن ربك يا محمد! ليفصل بينهم يوم القيامة فيما خالفوا فيه الأنبياء والرسل من الأحكام، فيبيّن لهم المحق من المبطل، والمستحق للثواب ممن استحق العقاب، ثم يُجازيهم على ذلك.

وقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ١٢٥﴾، **الخطاب لرسول الله** ﷺ، والأمر له أمرٌ لأمته، وخاصةً الدعاة منهم، بأن تكون الدعوة إلى سبيل الله، وهو دين الإسلام، بالكلام المُحكَم المناسب لحال المدعو، وأن

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 612).

(2) صحيح البخاري: (2/ 2)، برقم: (876).

(3) صحيح مسلم: (2/ 585)، برقم: (854).

يستخدم الرفق واللين معه غالبًا، والشدة أحيانًا إذا اقتضى حاله ذلك، **ومن الحكمة** الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم[1]، وبالموعظة الحسنة، وهي المشتملة على الترغيب بالخير والطاعة وثوابها في الجنة، والترهيب من المعصية وعقوبتها في النار، والمجادلة للمخالفين جدالاً حسنًا بالكلمة الحسنة والطريقة والأسلوب الحسن الذي يُقربهم من الحق ولا ينفرهم عنه، فهذه مهمة الرسل والدعاة إلى الله بعدهم، وهي القيام بالدعوة والبلاغ بهذه الأساليب ونحوها، ودلّت الآية على أن القرآن مشتمل على هذه الطرق الثلاث من أساليب الدعوة.

ومن الإعجاز العلمي في القرآن؛ أن هذه الآية جمعت أصول الاستدلال العقلي الحق، وهي البرهان والخطابة والجدل[2]، ثم ذيّلت الآية بأنه الله سبحانه يعلم من يستحق الهداية فيوفقه إليها، ويعلم من لا يستحقها فيُضله عنها، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وللدعاة من بعده إذا لم يستجب لهم الناس.

وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾، **الخطاب للمؤمنين**، يأمرهم بعدم التجاوز في العقوبة ممن اعتدى عليهم أو ظلمهم، بل يكتفوا بالمماثلة بالعقوبة دون زيادة، ولئن صبروا عن المجازاة بالمثل، أو على ما يصيبهم من أذى المشركين، أو على ظلم من ظلمهم[3]، واحتسبوا ذلك عند الله ووكلوا أمرهم إلى الله، فذلك خيرٌ لهم في

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 452).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (14/ 330).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 236).

الدنيا وفي الآخرة، وقد ورد أن هذه الآية نزلت بعد غزوة أُحُد، حين قتل المشركون يوم أحد من الأنصار أربعة وستون، وأصيب من المهاجرين ستة منهم حمزة، فمثّلوا بقتلاهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً من الدهر لَنُرْبِيَنَّ عليهم، فنزلت هذه الآية[1]، فتركوا ذلك، ونهوا عن التمثيل بالمقتول مطلقاً[2]، وهو قطع بعض أعضائه بعد قتله، وهذا يدل على أن هذه الآية وما بعدها مدنية، والسورة كلها مكية[3].

وفي الآية أن القصاص جائز، والعفو مستحب للنفوس السوية الطيبة التي تتأثر بالعفو عنها، **ويستثنى من العفو** بعض الأشخاص الذين يزيدهم العفو إجراماً، كحال بعض المجرمين الذين يقتُلون ثم يُسجَنون، ثم يشفع لهم بعض الناس ويدفعون عنهم الدية، أو يُحرجون أصحاب الدم فيعفون عنهم، ثم يعودون إلى الفساد في الأرض مرة أخرى.

وقوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨ ﴾، **أمر الله رسوله** بالصبر على ما يُصيبُه من أذى الكفار، وأن يستعين على ذلك بالله، فهو الذي يوفقه للصبر الجميل، ولا يحزن على الكفار بسبب إعراضهم عن الإيمان[4]،

---

(1) مسند أحمد: (35/ 152)، برقم: (21229)، سنن الترمذي: (5/ 150)، برقم: (3129)، وإسناده حسن.

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 322).

(3) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (2/ 466).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 433).

فالهداية بيد الله، ولا ينقبض صدره ويضيق بسبب مكرهم به، فإن الله معه مؤيداً وناصراً له، ومع أتباعه المؤمنين الذي اتقوا سخط الله وتركوا فعل ما يغضبه، وأتقنوا أعمالهم الصالحة وأخلصوا النية فيها لله سبحانه، وهي معيّة خاصة تعني التأييد والتوفيق والتسديد والحفظ والرعاية[1].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن المقصد من تحريم بعض المأكولات والمشروبات هو الحفاظ على حقوق الإنسان ورعاية مصالحه.

2- بيان أن سورة النحل نزلت بعد سورة الأنعام.

3- أن كل من يعصي لله فهو جاهل بعظمة الله وشرعه.

4- أن من رحمة الله أنه يقبل توبة العاصي ويغفر له إن تاب وأصلح.

5- بيان مكانة إبراهيم الخليل، وأنه إمام الأنبياء والمرسلين، وأنه جمع الدين إيمانـًا وعملاً وقدوةً.

6- بيان أساليب الدعوة الصحيحة، وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال الحسن.

7- جواز العقوبة بالمثل واستحباب العفو لمن يستحقه.

8- بيان مكانة المتقين والمحسنين عند الله، وأن الله معهم بتأييده وتوفيقه ورعايته وحفظه.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 615).

فهرس المحتويات


لطائف البيان
في تفسير القرآن
تفسير جزئي يوسف والحجر
(١٣-١٤)
تأليف
أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة